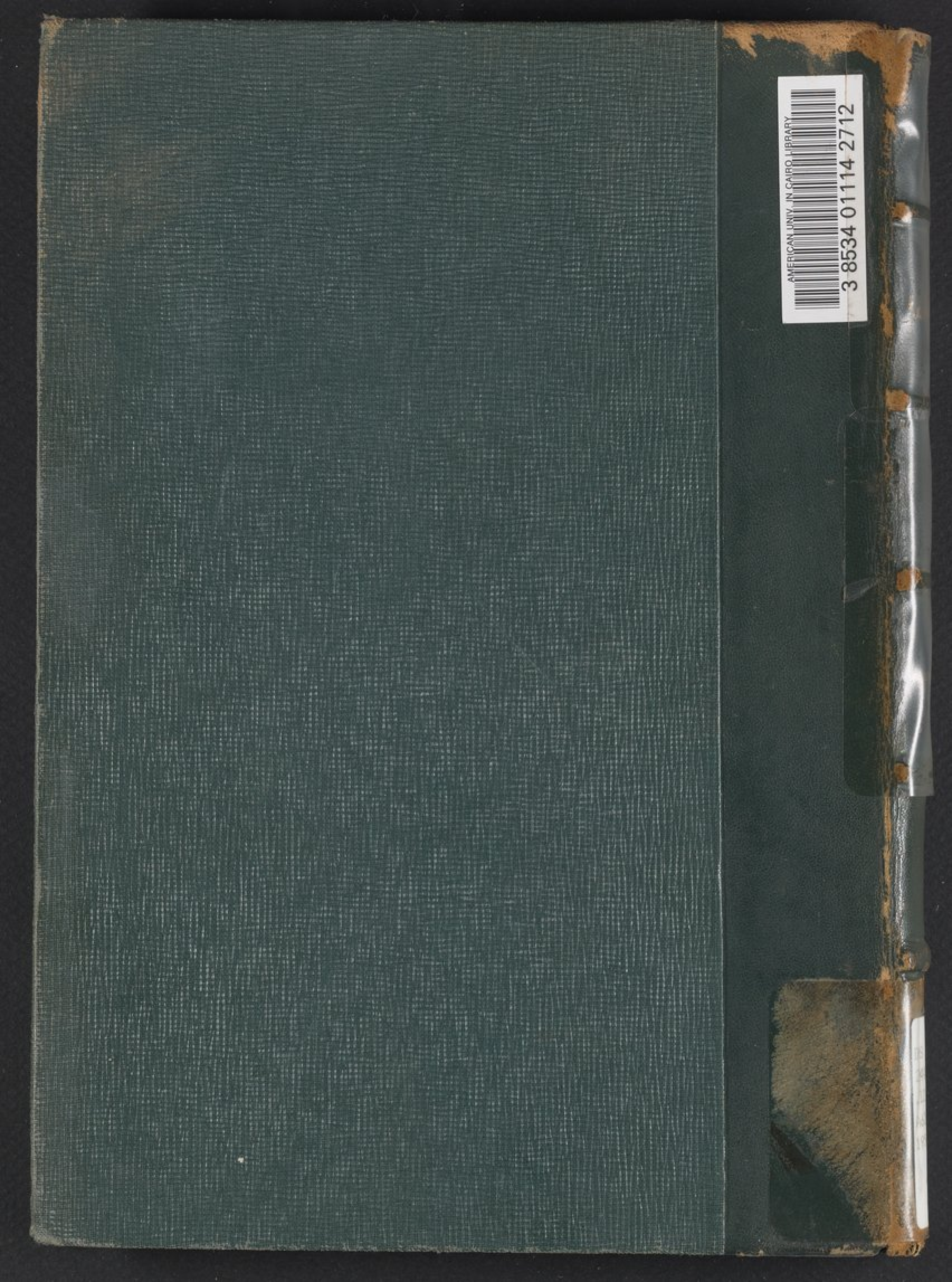
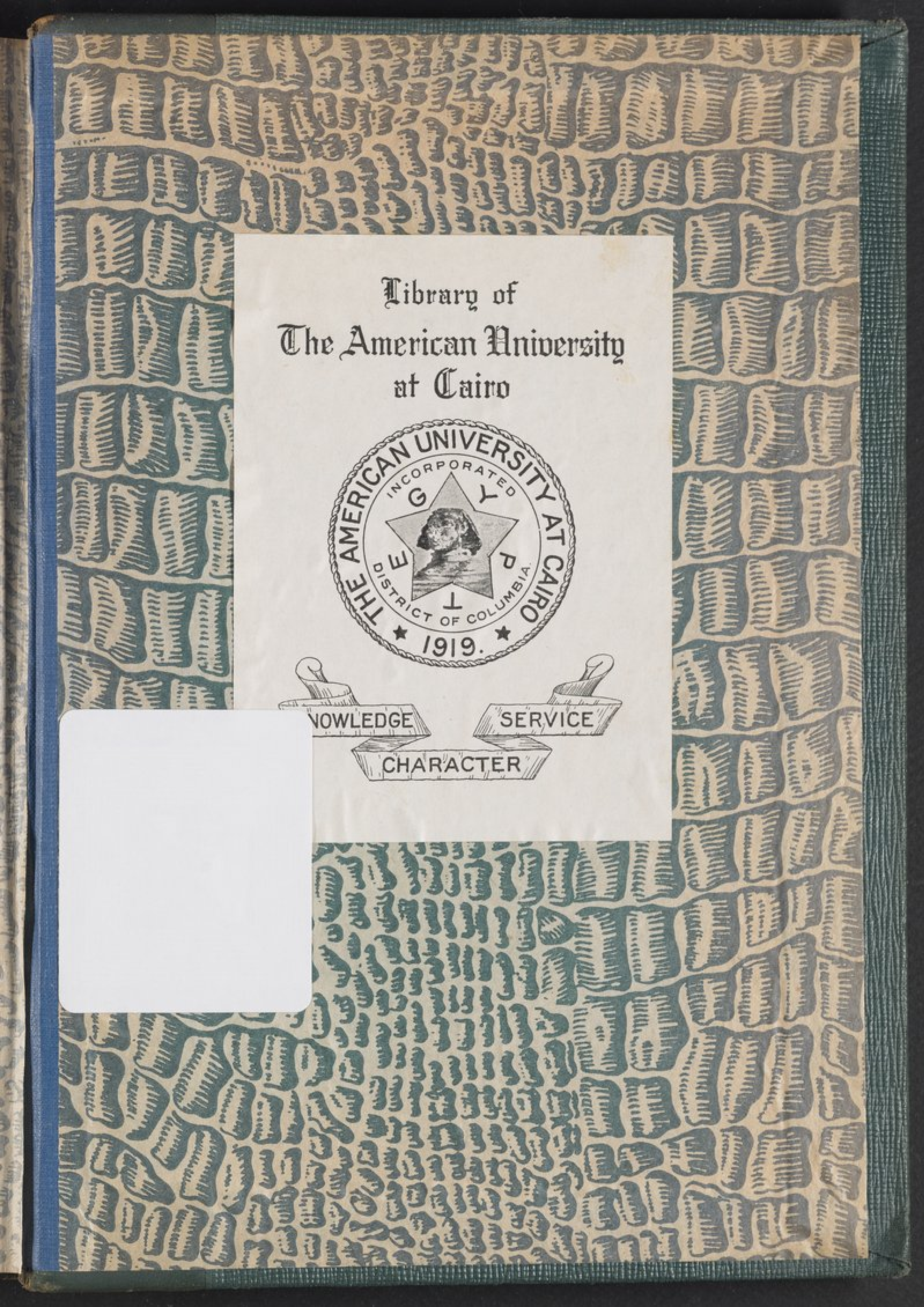
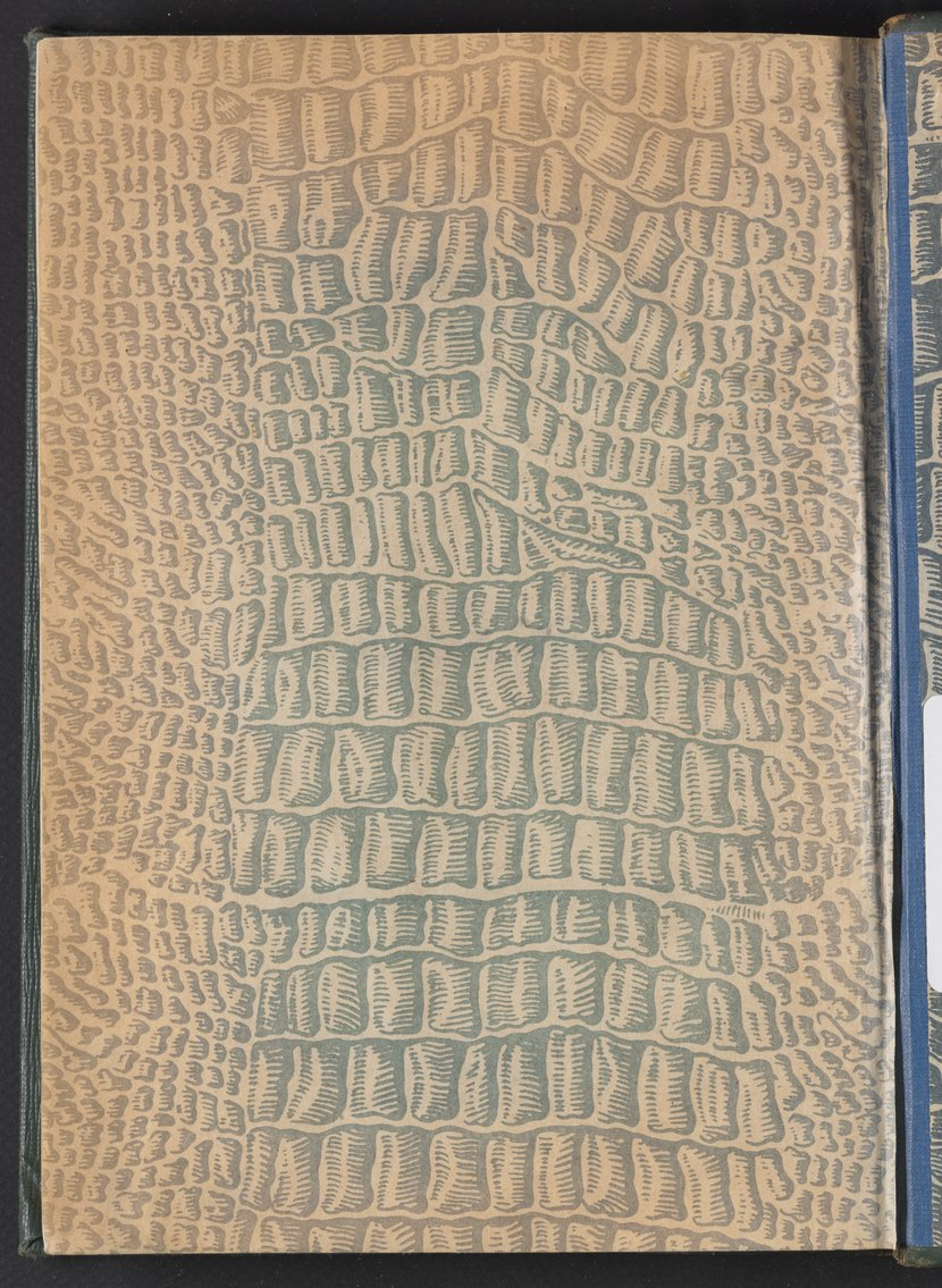
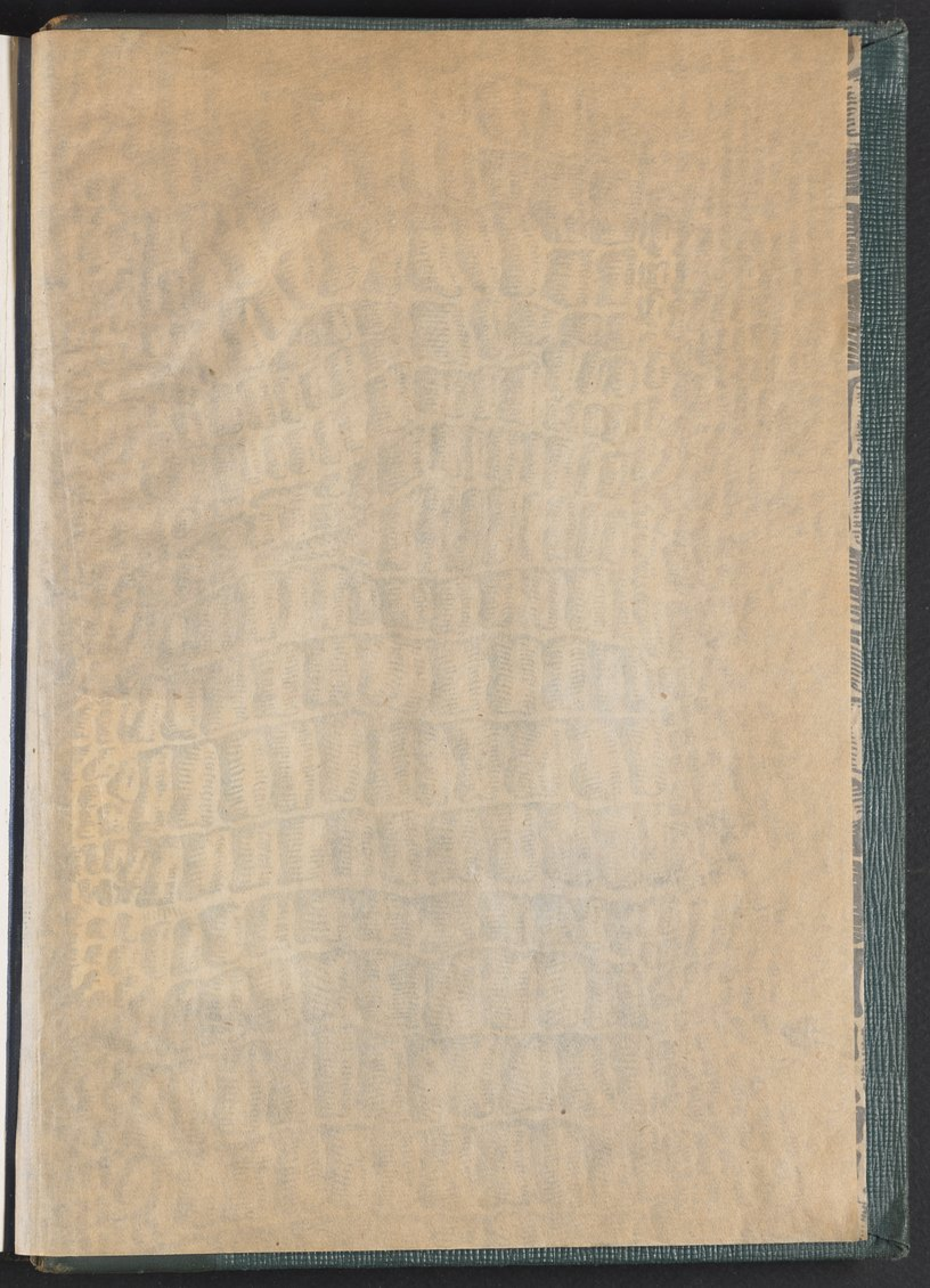

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01114 2712



Library of
The American University
at Cairo
THE AMERICAN UNIVERSITY AT CAIRO
INCORPORATED
E G Y P T
DISTRICT OF COLUMBIA
1919.
NOWLEDGE
SERVICE
CHARACTER





انسان الجزيرة

عرض جديد لسيرة الملك عبدالعزيز آل سعود

تأليف
الدكتور ابراهيم عبده

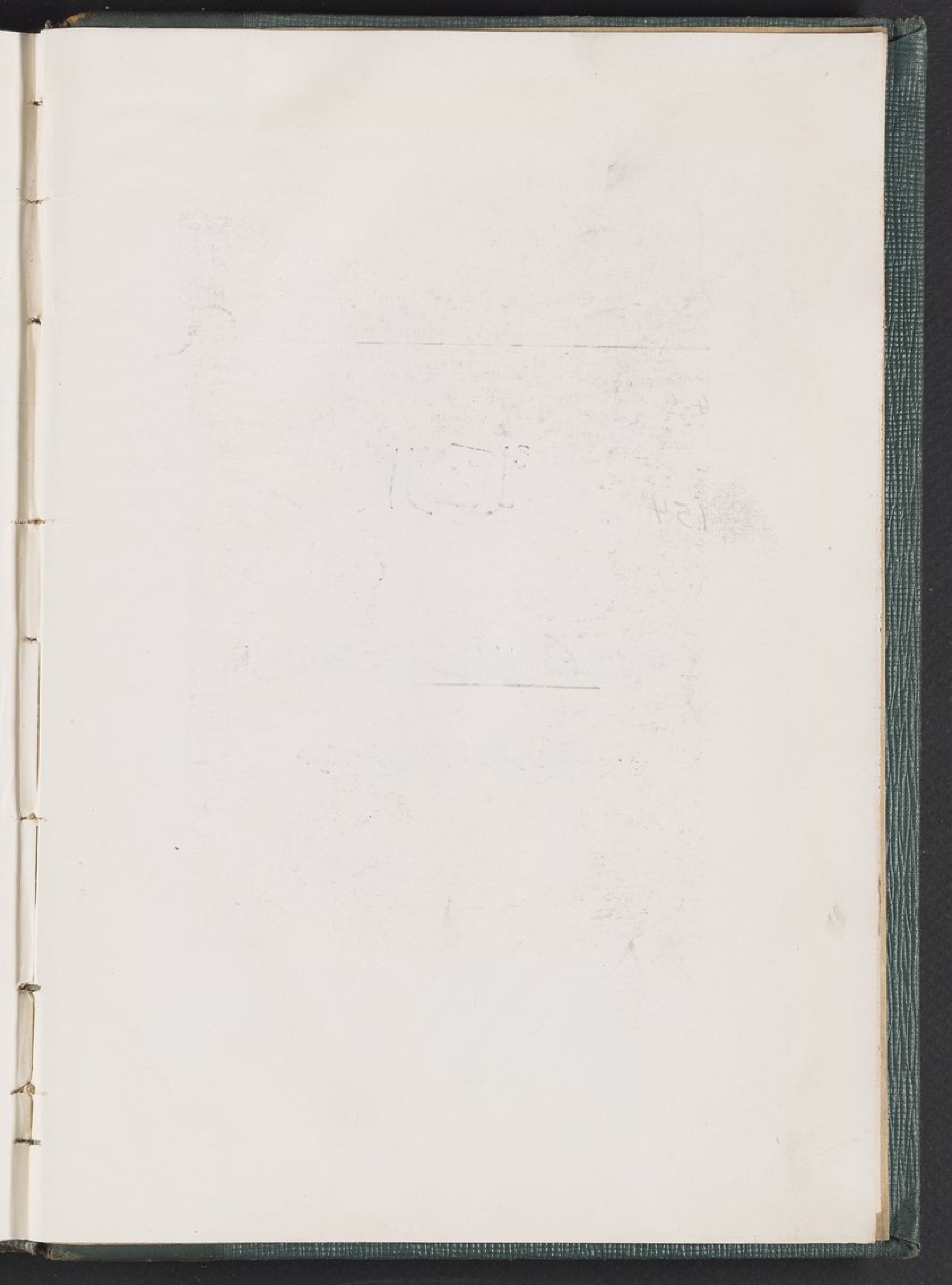
الناشر — مكتبة الآداب بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٩ حارة الباشا الحلمية الجديدة

الإهداء

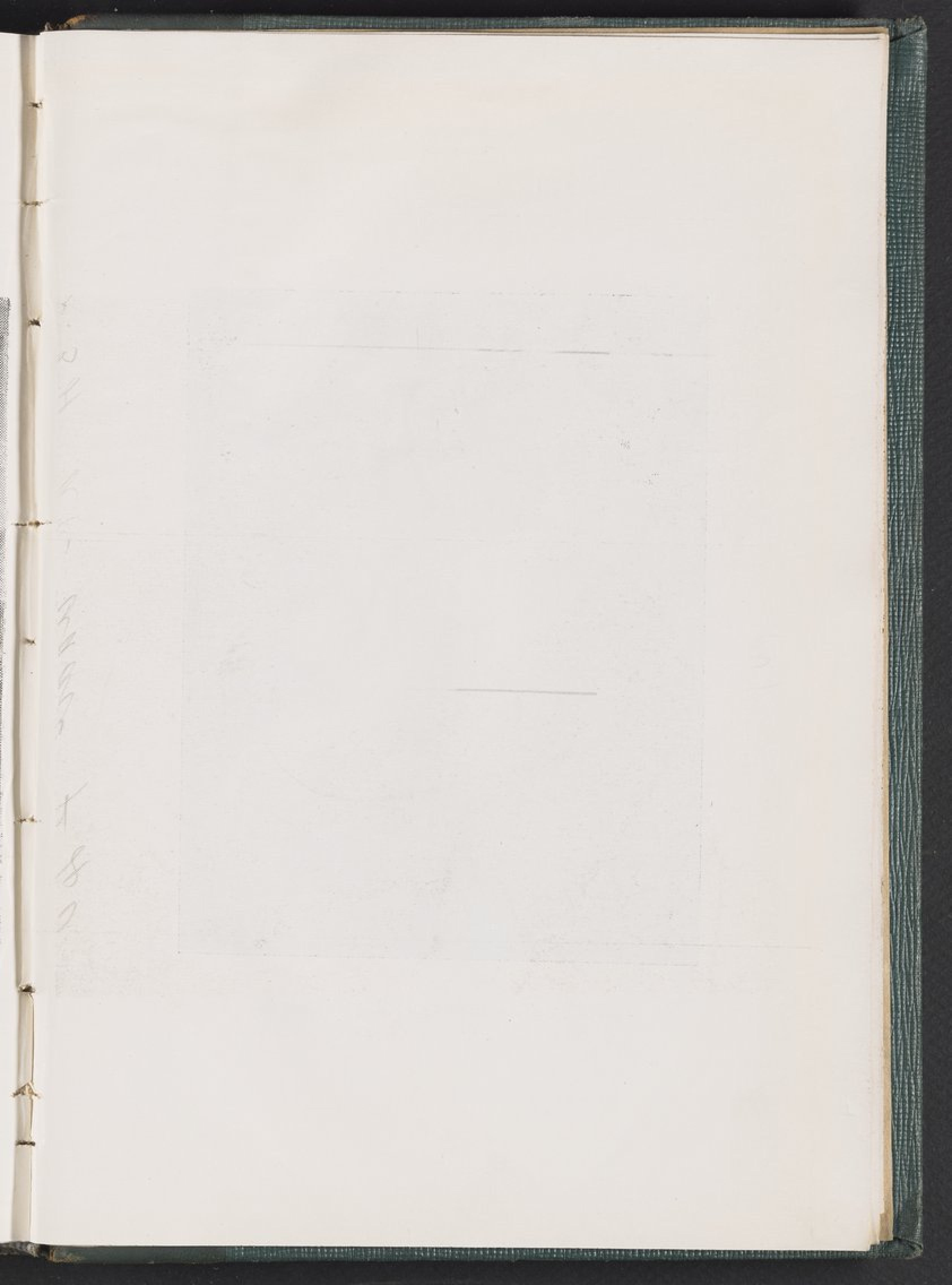
الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك سعود

حيث اشرف بقعة واطهر مكان ...



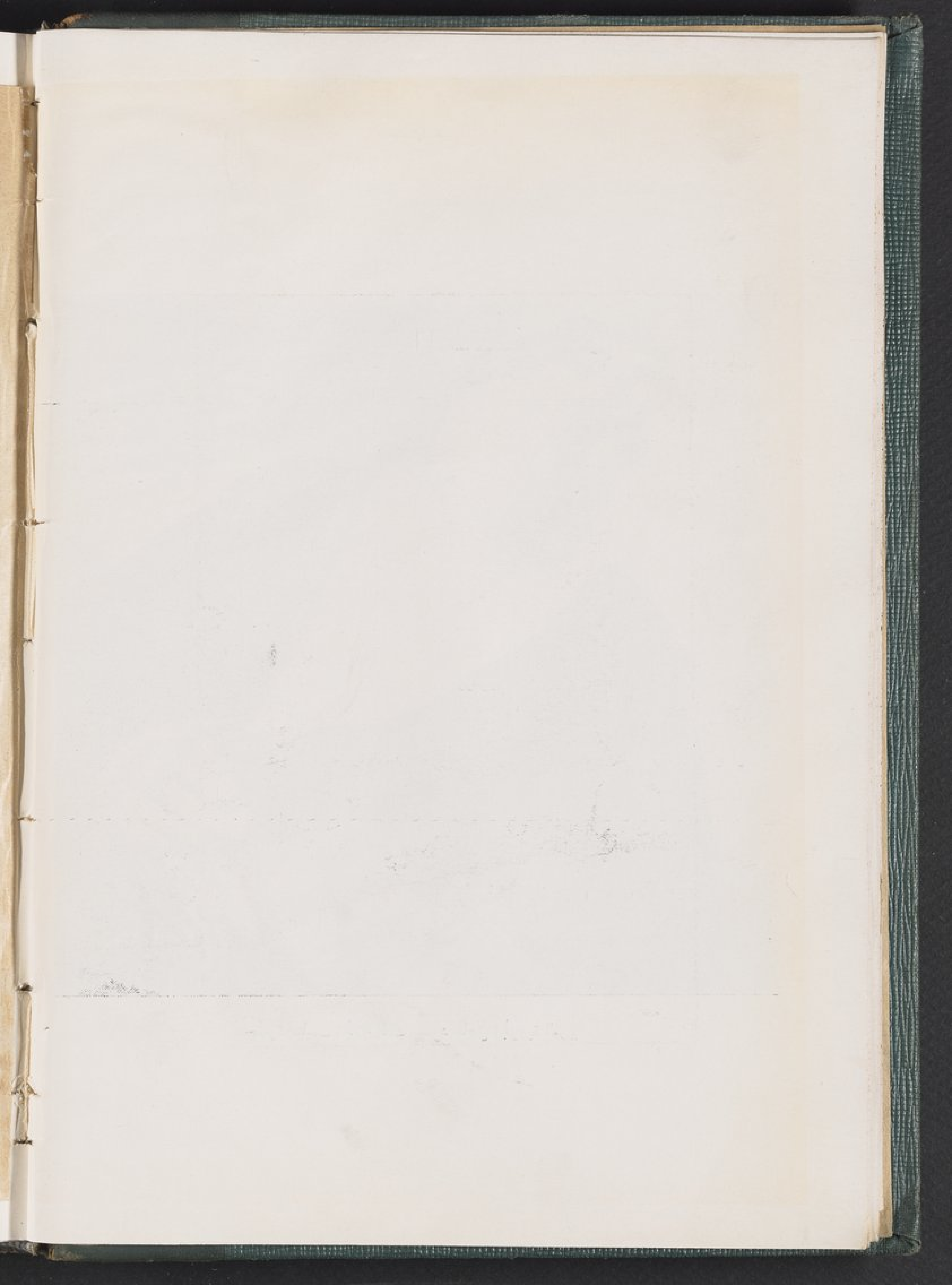


جلاله المغفورله « إنسان الجزيرة » الملك عبد العزيز آل سعود





حضرة صاحب الجلالة الملك سعود عاهل الجزيرة العربية



تصويب

فى الكتاب بعض الأغلاط جاءت سهواً ونصححها فيما يلى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠		عارف	عارفاً
١٢	٦	من المنقلب	من سوء المنقلب
٢١	١٠	معاني	معان
٢٧	١٢	حمّارة	حمارّة
٤٤	٨	خلت به	تخلت عنه
٥٤	١	العدل المعروف	العدل والمعروف
٦١، ١١١، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٠		دهناق	دهقان
٦٧	٢٣	ويسبى	ويسب
٧٣	١١	يأوهم	يؤوهم
٧٨	١	ليرح	وليرح
١٠٤	١	العالة	العالمية
١١٣	٦	ويطويه	وتطويه
١١٥	٢٠	يضيق	يضيف
١١٩	١٢	واكتفووا	واكتووا
١٤٣	٣	فى بينها	بينها
١٦٠	٩	عند	عن
١٦٤	١٧	إذا	إذّا
١٦٨	٧	عمرا	عمر
٢٠٥	١٦	عقب	عقبى
٢٠٦	٨	ما	من
٢١٧	٢٣	تعزف	تعز
٢٢٩	١٢	إمن	إحن
٢٣٩	٢	أنه	أن
٢٤٨	٤	تنسى	تنس

أسئلة يتدرك بها يابانى أو صينى من عباد بوذا ، ولا تصدر أبداً عن مسلم له بالحسين صلة ونسب ، ويفترض فيه إسلامه العريق أن يكون على بينة من تاريخ البلاد الذاهب إليها ، عارف بكل شيء عنها

وكان ذلك الجهل بالناس والأشياء ، حافزاً لى على دراسة البلاد التى سعدت فيها شهوراً ، وخاصة بعد أن أصغيت بكل نفسى إلى الحكايات والروايات تحكى لى عن الملك الراحل ، مما شوقنى إلى دراسة سيرته فيما سُجل عنه فى كتب العرب والفرنجة على السواء

وحمل إلىّ أصدقائى كل ما كتب عن الملك عبد العزيز آل سعود ، وبينها مؤلفات ضخمة وعشرات من الصحف والمجلات بشتى اللغات ، ومضيت مع هذه المؤلفات ستة أشهر أعيش وإياها فى جده منذ ساعات الأصيل إلى أن ينتصف الليل أو يبزغ النهار ، وقد اقتصرت على ذكر أهمها فى هوامش الكتاب ، ولم أجد مبرراً لنشر بيان عنها جميعاً ، فبعضها لا يستحق الذكر أو البيان

وقد تبينت ويا هول ما تبينت ! تبينت أن معرفتى لم تكن قليلة بالملك عبد العزيز ، ولم تكن قليلة بالبلاد السعودية فحسب ، بل كانت قليلة جداً بشئون الدين على الصورة التى يحكم بها السعوديون بلادهم ، وبالتعاليم الصحيحة للعقيدة الإسلامية التى يقومون على تطبيقها تطبيقاً رد للإسلام عزته ، وأعاد إليه مجد الأولين

ثم لاحظت أن كل الكتب ، وكل المقالات التى نشرت فى الملك الراحل عنيت بناحيتين عناية ملحوظة ، عنيت بحروبه ثم بحياته الخاصة ، وجاءت هذه العناية على حساب سائر النواحى التى تميز بها « طويل العمر » وأُثرت عنه فى تاريخه العريض ، ولم تخل الناحيتان من المبالغة التى تصل أحياناً إلى حد الابتكار فى خلق القصص والروايات ، وتبلغ عند الكتاب الأجانب المغرضين ، حد الادعاء والكذب الصريح

ولاحظت أيضاً فى كتب الفرنجة فصولاً وقفوها على بحث الدين الإسلامى ،

وأقل ما يقال فى هذه الفصول ، إنها مغرضة ولا تمثل حقيقة الدين فى شىء ، أو تمثل أصحابها سطحيين لا يعرفون أوليات هذا الدين ، فكان خلط بعضهم هنا خلطاً لحته الغرض وسداه الأساءة إلى المسلمين

لقد رأيت فى مواقف الراحل الكريم الذى نؤرخ له ، سواء فى شئون الدين أو شئون الدنيا ، ما ينم عن إنسانية جديرة بالبسط والتسجيل ، وجديرة بأن تضع صورته فى المكان اللائق بها ، وهو مكان الخلفاء الراشدين ، أو مكان الأئمة الصالحين ، أو مكان المصلحين فى كل زمن وحين

وكان فى وسعى أن أضاعف صفحات الكتاب مرة ومرتين ، حتى يبدو سجلا ضخماً كبعض الكتب التى قرأتها ، غير أننى رأيت لصالح هذا التاريخ - وهو تاريخ يجهله كثيرون ومن بينهم بعض أهل العلم والأدب — رأيت أن أقتصد فى رواية الحوادث ، وأوجز فى التعليق ، لأمكن كل عربى من اقتناء الكتاب وقراءته فى وقت قصير ، وأعينه على فهم سيرة العاهل العربى العظيم دون أن أزحمه بوقائع الحرب أو أفصل له فى تاريخ القبائل العربية من أفخاذ وبطون

وأهم ما شغلنى وحبب إلىّ الكتابة فى هذه السيرة ، فضل صاحبها فى إشاعة العدل والنزول عند كلمة الحق ، وتشجيع الأحرار على نشر أفكارهم وإذاعة آرائهم دون تحرج من سجن أو تحرز من اعتقال ، أو خوف على لقمة العيش وإدام العيال!

وقد قصدت بتسجيل هذه النواحى الإنسانية من رسالة عبد العزيز ، أن أطرح على بعض الملوك والحكام صورة هذا الملك ليعتبروا ، ويدرسوا ، ويفيدوا ، ويتعظوا إذا أعوزتهم القدوة أو طلبوا المثال ، فبعض الملوك والحكام يجنبهم دعاة السوء طريق الهداية ، ويغريهم الطغيان بالترفع عن النهج القويم ، ويحجب الخيرَ عنهم انصرافهم عن قراءة السير والاتعاظ بما فيها من عبر!

وإنى لأرجو أن يقرأ هذا البعض من الملوك والحكام فصول هذا الكتاب ، ليروا كيف كره الملك آل سعود النفاق والمنافقين ، وقال فى الخصلة وأصحابها

كلمات يجب أن تنقش على صدر كل من أخذ نفسه بولاية قوم ، أو فرض نفسه على مقدرات الأمم والشعوب

وإنى لأرجو أن يلتمس هذا البعض العبرة من خشوع الملك ، وخوفه من ربه وفرقه من الظلم ، وجزعه من العدوان ، فكم من الملوك والحكام ظلم وأسرف فى الظلم ، ولم يفزع قط من الجرائم التى ارتكبها تارة باسم الدين ، وأخرى باسم الحرية ، حتى أصيب آخر الأمر بما يصاب به عادة الطغاة البغاة من المنقلب وذل الخواتيم

إن فى سيرة عبد العزيز أكثر من لفتة إنسانية ، ما أحوجنا إلى التمعن فيها والإنصات إليها ، فقد يكون فى ذلك خير كثير لنا ولمن يأتى فى أعقابنا !

أما بعد ، فقد اعتدت فى كتبى التى نشرتها فى سير الأشخاص والأمم وفى تاريخ الصحافة وفنونها المختلفة ، أن أنهج نهجاً علمياً يتقيد بالمراجع ، ويشير فى الهوامش إلى كل كبيرة وصغيرة ، وهى طريقة علمية التزمتها فى نحو أربعة وعشرين كتابا طبعت لى يوم كنت أستاذاً فى الجامعة ، غير أننى فى هذا الكتاب قررت أن أتحرر من هذا النهج الثقيل على أكثر القراء ، وأن أترك سجية المفتن تسيطر على قلم المؤرخ حتى يخرج الكتاب فى أسلوب الأديب ، محافظاً فى الوقت نفسه كل المحافظة على الحقيقة التاريخية ، ملتزما إياها فى كل مارجعت إليه من وقائع وأحداث

لقد أحببت الملك عبد العزيز آل سعود حين سمعت عنه وقرأت له ، وسوف تحبه مثلما أحببته ، لأنه جدير بالحب

وهل يجدر بحبنا إلا إنسان ؟

القاهرة فى ٣٠ يونيه ١٩٥٤ ابراهيم عبده

فصول الكتاب

الإسم والمسمى

سنراه فى الرخاء والشدة والهزيمة والنصر
إنساناً تنبع من نفسه الصافية كل مزايا
المخلوق الذى فطره الله نوراً لدينه وهدى
للناس . . . . .

بماذا يوصف الملك عبد العزيز آل سعود حين يكتب تاريخ الجزيرة ، وتروى سيرته بين سير الخالدين من صفوة الملوك والحكام ؟

لقد كانت حياة العظيم الذى خف إلى ربه حياة لم يعرفها العالم إلا فى الأساطير والحكايات ، فهو فى طفولته وشبابه ، فى كهولته وشيخوخته ، أسطورة قل مثالها ، وندر صنوها ، وعز نظيرها ، فلكل أسطورة جانب من الخلائق والصفات ، وأسطورة عبد العزيز ، جماع الشمائل والطباع ، مصفاة من السوءات والأدران .

فبماذا نصف صاحب السيرة إذا أردنا أن ننشر بعض ماله فى دنيا الجهاد ؟

قالوا . . . أسد الجزيرة . . وصقر الجزيرة . . وأخذوا يصنفون له الكتب والمقالات ، ولم يختلف عنوان عن آخر إلا فى الألفاظ واللغات ، واستوى فى ذلك الأمريكيون والإنجليز ، وغيرهم من المؤرخين فى كل صقع وناد .

أسماء توحى بالقوة ، وعبد العزيز آل سعود كان قوياً . . .

أسماء توحى بالبطش ، والبطش من شيم القادرين إذا كان بطشهم فى سبيل الحق والعدل ، وعبد العزيز كان عنواناً للعدل والحق .

أسماء تنبىء عن قدرة صاحبها ، والملك كان قادراً فى غير ميدان واحد ، بل فى أكثر ميادين الحياة . .

ولست أجد فى هذه الأسماء جميعاً ، الليث والصقر والأسد ، شيئاً غريباً على مؤلفى الكتب وناشرى المقالات ، فقد كانت سيرة الملك عبد العزيز قوية جبارة ، تبهر أصحاب الأقلام ، وتغرى بهذه النعوت إذا شرعوا أقلامهم وهموا برواية نبذة من تاريخه العظيم .

لا أجد غرابة فى أن تستهوى قوة الملك وقصة حياته الجبارة أولئك الذين سبقونى فى النظر إلى سيرته ، فإن القوة تبهر الناس ، عامتهم وخاصتهم ، ومن طبيعة البشر فى أكثر البشر ، الإعجاب بالقوة وتأييدها فى كل زمان ومكان

لقد كان عبد العزيز آل سعود رجلا جميلا ، فيه جمال الرجولية المأثورة عن العرب الميامين ، كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، ممتلئاً قوة وفتوة ، مبارزاً ومناضلا ، وفدائياً إن صح التعبير ، خاض المعارك فى حداثته بنفس الطريقة التى مارسها فى شبابه وكهولته ، لم يتغير فى مراحل السن ، أو يتردد حين مضى به الزمن إلى الشيخوخة التى تفترض فى صاحبها عادة شيئا من الحرص والتردد . .

ويكشف هذا كله عن قوة الملك الذاتية ، ويبرز سمة من نواحى العظمة فيه ، وقوته هنا تشبه قوة أصحاب الأساطير التى جاءت فى إلياذة هوميروس ؛ فليس بعجيب إذن أن يلتمس المؤرخون والكتاب ألفاظ الليث والأسد والصقر حين يصنفون كتبهم أو ينشرون مقالاتهم أو يروون بعض مايحبون له من روايات . . .

أما أنا ، فلم تأخذنى قوة الملك كما أخذتهم ، أو تأسرنى كما أسرتهم ، وإن بهرتنى سيرته فى الحرب كما بهرتنى فى السلام . . .

رأيت فى الملك أجمل مافيه . . . رأيته إنساناً بكل ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معانى الإنسانية التى قلما نجدها فى الملوك والسلاطين .

رأيته فى طفولته القاسية حائراً بين البيد والحضر ، رأيته فى ركاب أسرته النازحة عن الوطن والدار كأنها بلا هدف ، لا يعى إلا القليل مما يدور حوله ، رأيته فى أحضان والديه يبكى الملك الضائع ، ويلتمس العزاء فى فسحة العمر ، رأيته حزيناً والحزن بين كرام الأطفال يطهر نفوسهم الناشئة ، ولا يعرف ذلك إلا من كابد الأسى فى مطلع حياته ، وحبا وسط العواصف والأنواء . . .

كان من الممكن أن تؤثر المحنة فى الصغير كغيره من الأطفال ، فيشب على

البغض والسخيمة ، وينشأ على الحقد والموجدة ، غير أن أصالة الخلق وكرم المحتد وطيب الأرومة جنبت « الإنسان » أقبح مافى الإنسان ، فاذا عبد العزيز فوق السخائم والأحقاد ، يُجرى العدل وفى مقدوره أن يصطنع الظلم ، ويجنح إلى العفو عن عدوه وفى وسعه العصف به ، ويميل إلى السلام فى سعير الحرب ولو فوت بعض حقه ، مع أنه قادر على النصر مطمئن إلى نتائجه واصل به إلى أقصى مايريد . . .

إنسان الجزيرة . . .

هو الإسم الجديد بأن يطلق على ساكن الجنان فى هذا الكتاب دون أن يغض ذلك من دراسة جوانب القوة فى ذاته الخالدة

إنسان الجزيرة . . .

سنراه فى الحرب والسلم إنساناً بماتحتوى عليه هذه الكلمة من معانى سامية..

سنراه فى الرخاء والشدة ، وفى الهزيمة والنصر ، إنساناً تنبع من نفسه الصافية كل مزايا المخلوق الذى فطره الله نوراً لدينه وهدى للناس . . .

سنراه فى كرمه إنساناً يؤثر الفقير بماله ، ويجود بما عنده حتى لخصومه إن فزعوا إلى بابه أو جاءوا ساحته نادمين . .

سنراه إنساناً مع أعدائه فى ساعات النصر ، ونشوة النصر تفقد المنتصر عادة الروية والتفكير ، وتملؤه بالخيلاء والجبروت ، إلا عند صاحب هذه السيرة الذى أعاد إلى الأذهان بسماحته ورضوانه قصة الخلفاء الراشدين . . .

أليس من غرائب الطبيعة البشرية أن ينسى الطريد الشريد مآسى الطفولة والشباب ، فيكرم من طاردوه ، ويرد العافية لمن شردوه ، ويحمى ذمار من خانوه ، ويعفو عند المقدرة فى زمن يسخر القادر من العفو ، وينتظر الموتور ساعة النصر ليقتص من واتره ، ويأخذ بثاراته ويروى غلة الصادى من دم الخصوم والأعداء ؟

أليس من غرائب البشر أن يكون عبد العزيز ملكا مطاق اليد فى شعبه

وماله ، ثم يقوم الليل راجياً غفران الله ، خشية أن يكون قد ظلم فى مال أو جسد واحداً من رعاياه ؟

أليس من غرائب الأشياء فى عصرنا أن يمضى الملك العظيم إلى وجه ربه ولا يترك فى الدنيا عقاراً باسمه ، أو ضياعاً يستغل فيها أحداً من مواطنيه ، أو مالاً يفاخر به أترابه من أصحاب الصولجان ؟

أرأيت كيف سيطرت على قلمى فكرة الإنسانية فى عاهل العرب ؟ لم أذهب قط وأنا أقرأ عنه أو أستمع إلى الرواة القريبين منه مذهب الفرنجة حين نشروا فيه الكتب وأنشأوا المقالات ، فهو عندى أسمى من الليث وأفضل من الصقر والأسد

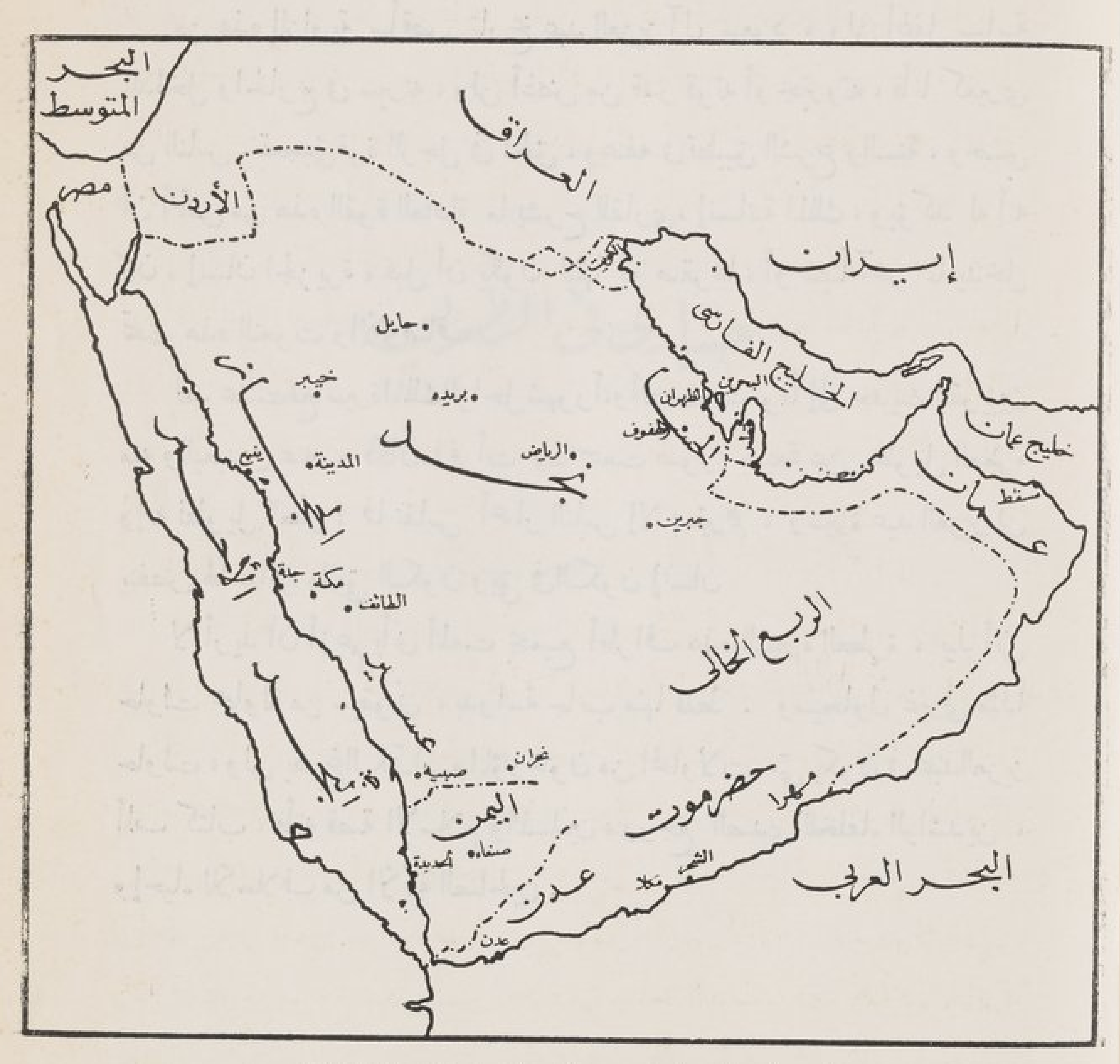
إن صفات عبد العزيز آل سعود صفات فيها صفاء القلب وطمأنينة النفس ودقة الحس ورقة الحاشية ؛ وكل هذه الصفات لا تتعارض مع القوة ، بل لعلها من أسبابها الأصيلة ، فالإنسان الذى ينشأ وفى صدره كل هذا ، إنسان قوى ، إنسان أقوى من الليث والصقر ، وأعظم عند الله والناس من سائر الناس حين تنصب الموازين وتذكر الحسنات

إنسان الجزيرة . . . هو الإسم الذى يليق بالمسمى . . .

إنسان الجزيرة ، ملك بدأ حياته مكافحاً ، والجزيرة نفسها تخاصمه ، ويخاصمه معها كل بلد يحيط بها ، خاصمه جيرانه الأقربون فى الجنوب وفى الشرق وفى الشمال، وخاصمه جيران الحدود المرسومة فى العراق وشرق الأردن ، وخاصمه غيرهم من حكام نبتوا فى العز والمنعة ، وملكوا من قوى البشرية مايثير الرعب فى النفوس

ثم راض إنسان الجزيرة خصومه بالحسنى أكثر مما أخذهم بالشدة ، فدانت له الجزيرة وأصبح إنسانها وعينها ، ولم يغمض له جفن إلا وهو عميد ملوك العرب وسلاطينهم ، وموضع تكريمهم وإجلالهم ، وملجأ الضعيف فيهم وملاذ الخائف منهم .

ولم يصب الشيخ التوقير الـكامل عند لداته وأقرانه فحسب ، بل أصابه عند خصوم المملكية وأضدادها فى الشرق والغرب ، فجاءوا إلى ساحته مبايعين ، كما نال نفس هذا التوقير مصحوباً بالحب والولاء من أحرار العرب ، الذين وجدوا فى جزيرته الأمان والسلام ، واستقر بهم المطاف عند بابه ، بعد أن أرّق المستعمر حياتهم وطاردهم هنا وهناك ، ثم عجز عن أن يصيبهم بسوء عند (إنسان الجزيرة)



الجزيرة العربية وعليها مواقع البلاد التى جاء ذكرها فى الـكتاب

الذى أبت مروءته أن يضام مجاهد فى أرضه ، فوقف الظلم والاضطهاد عند حدود بلاده لا يتخطاها ، لا خوفاً من بطش الملك ولا فرقاً من قوته ، بل رهبة من إنسانيته التى تجير المظلوم وتحنو على مهيض الجناح ، وتأبى أن يسام فى جزيرته — حيث الأمن والطمأنينة والعدالة والسلام — رجل لجأ إلى إنسانيته وفزع إلى أريحيته وهو ، لها . . . لأنه إنسان ! .

من هذه الزاوية سأقص تاريخ عبد العزيز آل سعود ، ولن أغفل سياسة الداخل والخارج فى سيرته ، ولن أغض من قدر قوته أو جبروته ، فأنا كغيرى من الناس ، تعجبنى قوة الرجل فى الحق ، وعنفه فى تطبيق الشرع والسنة ، وحسبى أن ألتمس من هذه القوة العادلة ما يشرح للقارىء إنسانية الملك ، ويؤكد له أنه كان « إنسان الجزيرة » قبل أن يكون ليثها أو صقرها ، أو شيئاً آخر مما يدخل تحت هذه النعوت والأوصاف

لقد عشت مع سيرة الملك الراحل شهوراً ، وأنصت مشغوفاً إلى حديث القريبين منه والبعيدين عنه ، فكان ما قرأت وما سمعت صورة بديعة عن « طويل العمر » وإنه لطويل العمر ! فما تقاس أعمار الناس إلا بسيرهم ، وسيرة عبد العزيز لن ينفض لها سامر ما بقى الكون وبقى فى الكون إنسان

لا أريد أن أزعم بأنى ألممت بجميع أطراف هذه السيرة العطرة ، بيد أنى حاولت محاولة من سبقونى ، بدراسة جانب منها فقط . وسيحاول غيرى مثلما حاولت ، ولن يفرغ الكتاب والمؤرخون من المحاولات حتى يكون فى عبد العزيز ألف كتاب ، فأنه قصة الإسلام والمسلمين ، ورجع الصدى للخلفاء الراشدين ، وإحياء للأسلاف من الأئمة الصالحين .

حيارى فى الطريق

قالت أمه إنها تشتهى أن يرزقها الله
ولداً فيساوى الدنيا وما فيها ، وإنها لسيدة
قريبة من الله ، ولن يحرمها الله ولداً يساوى
الدنيا وما فيها ، ومن ذا يكون ياترى هذا
الولد الذى يزن الدنيا وما فيها ؟

أضنت الراحلة الصبي الصغير ، ولم يعتد من قبل أن يغذّ به السير بعيداً عن قصره فى المدينة الغناء . وقد أمسى وأصبح على الراحلة أياماً طويلة كأنها الدهر، وحرم صحبة الرفاق الذين كانوا يلتفون حوله ويرضون توجيهه كلما لعبوا أوفكروا فى أمر من الأمور التى تعنى الصغار وتبهج نفوسهم المتفتحة للحياة تفتح الأزاهير فى الرياض .

إنه يعلم أن بلاده التى يسمونها (نجداً) أوسع أجزاء الجزيرة العربية ، يعلم ذلك من أبيه الذى كان يحدثه عنها قبيل النوم أو وجه النهار ، ويعلم فيما أرشده إليه الخدم والأنصار ، أن بلاده الحبيبة وهاد وجبال وأودية ، يتخللها كثير من الأراضى الغنية بالزرع ، المزهرة بالثمر ، كثيرة المراعى التى يلتقى فيها أهله أو بعض أهله ، فيتزودون بخيراتها فى شىء يشبه الرضى والاطمئنان .

وأخذ الصغير يستعيد فى رحلته الطويلة المملة ذكريات الحياة التى عاشها فى العاصمة أو حولها ، ويذكر قر الشتاء وحمّارة القيظ ، ويذكر فيما يذكر بعض جهات نجد ، حيث يصفو الجو ويعتدل الهواء ، فيخلو من الرطوبة والحرارة ، ويشيع فى القلوب البهجة والسرور .

ويدرك الصبى أشياء كثيرة أكبر من سنه وأعلى من مداركه ، فقد كان صغيراً لا يتجاوز السابعة من عمره ، ومع ذلك فأن ملامح النضج كانت تغلب على طفولته وترفعه عن لداته وأقرانه ، وتقربه إلى صفوة الشباب وخيرة الرجال ، وقد أعانه على ذلك فهم باكر وجسم فاره ووسط فيه من العلم بأمور الدين والدنيا الشىء الكثير .

ومع أن الراحلة قد أضنته ، فأنه لا يشكو ولا يتبرم ، وإنه لفتى من

نجد! وغداً سيكون فتى نجد وغير نجد من البلاد والأمصار ، وكيف يشكو نجدى من راحلة تنقله مئآت الأميال فى وهج الشمس أو ثليج الليل ، وأصحاب نجد أهل صبر وكفاح ؟

إن ذلك لايليق بالصبى إن فكر فى متاعب الطريق . . . والحق إن الصبى لم يفكر فى الطريق ومتاعبه ، وأين هذا مما ينتظره من ألوان الشدائد والملمات ؟ .

حنانيك ياصغيرى فأن أمامك ستين عاماً من العرق والجهاد ! . .

وأناخت الراحلة هنا وهناك ، والصبى لايشغله مايراه حوله من الأهل والأقارب والخدم ، إنما تشغله المدينة التى تركها منذ أيام حيث كان ينعم فيها بقصر فاخر ونظام رتيب . وجو من التدين والتهجد ، وهى عنده من أزهى المدن ، ولم يكن يعلم أنها ستصبح بعد سنين أزهى المدن فى الجزيرة العربية الفيحاء وأنها ستزهو — بفضله — على حواضر العرب ، وسيكون لها — بجهده — مكان الصدارة فى الدين والسياسة ، ومنها ستصدر تعاليم الإسلام الصحيحة وتدار حكومة لم يعرف لها نظير منذ ألف عام ، بل لم يعرف لها شبيه على الإطلاق .

لم يكن الصبى يعلم هذا ، بل كان يحسه ، وكان الأمر يختلط عليه أحيانا فلا تعينه السن المبكرة على فهم كل الأمور فى وضوح وجلاء ، فقد عرف من روايات أبيه أنه أمير ابن أمير ، وأنهم ورثة عرش له فى الزمان مكان مرموق ، وأن هذا الأسى الذى يشغلهم حين يقرون أو يرحلون مصدره الذكريات الأليمة التى مرت ببيت آل سعود ، فرفعتهم حيناً وخفضتهم حيناً ، ولم تفقدهم قط الأمل فى الله والثقة فى مستقبل الأيام .

يذكر الصغير ، فيما يذكر ، أن أباه حدثه كثيراً عن مؤسس دولتهم الإمام محمد بن سعود ، وقص عليه كيف كان هذا الإمام سيفاً للإسلام والمسلمين ، وعدواً للمرقة والصائبين من أهل نجد ودعاة الخرافة فيها ، وكيف كان هذا الإمام أول من آمن بدعوة محمد بن عبدالوهاب التى جاءت فى وقتها تلح فى تطهير النفوس

من الزيغ والضعف والاستسلام للمنكر وتنقية الإسلام من البدع والخرافات ، ولا يذكر الصبي في سنه تلك أكثر من هذا عن دعوة الوهابية ، وقد تتضح له التفاصيل بعد قليل ، وإنما قرن له أبوه ذكرى مؤسس بيتهم العتيد بذكرى النهضه الدينية التي جاء بها الوهابي الطريد الشريد ، ذلك المسلم الحنبلي الذي وجد المنعة والفرجة لدعوته عند باب محمد بن سعود .

وقد مضى أبوه يحدثه عن خلفاء البيت السعودي ، واحداً بعد آخر ، فعلقت بذهنه أشياء وأشياء ، ولن ينسى الصغير الرواية التي رواها أبوه الشيخ عن وارث جدهم الأكبر في حكم البلاد ، في سميه الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود .

إنه لن ينسى هذا الإسم ولن ينسى صاحبه ، بل لعل سيرة ذلك الإمام كانت أقوى ما أثر في نفسه السمحة وقلبه الكبير المتعطش للمفاخر والأمجاد ، وكان خير ما انطبع في ذهنه طرائق النظر التي ساس بها سميه أمور الدين والدنيا ، فقد كان عبدالعزيز الأول رجلاً متواضعاً أشد التواضع ، لا تستطيع أن تفرق بينه وبين نجدي آخر في مظاهر العيش ومراتب الحياة ، فهو أمير ركب الإماره ولم تركبه ! وأذلها دون أن تذله ، وصرفها عن العرض الصغير ، فلم تبد ملكا ولا جاهاً ولا زينة للحياة الدنيا ، وإنما بدت شيئاً صلداً صلباً لا نعيم فيه إن شئت العاجلة ؛ فكانت حياة أمير نجد إذ ذاك حياة حَبَسَ فيها عن نفسه مظهر الإمارة ومخبرها ، واصطنع التقشف قاعدة للحكام والمحكومين حتى لا تغرهم الدنيا أو تصرفهم عن واجباتهم نحو الدين ، الدين الذي وهب عبدالعزيز الأول كل إمكانياته لإعلاء كلمته في الإطار الذي حمله إلى نجد محمد بن عبد الوهاب ، فنفذ تعاليم الإسلام نصاً وروحاً ، وأقام الحد حتى على أولاده وحواريه ، ولو أخطأ هو لاقتص لدينه من نفسه . . .

هكذا كانت رواية أبيه عن سميه في قديم الزمان

إن حكايات أبيه عن الأسرة وما أصابها من خير وشر ، كانت مفرق الطريق في

نفسية الصغير الحائر مع والديه وإخوته فى بيداء نجد والربع الخالى، وإنه ليستعيدها صورة بعد أخرى كلما خلا إلى نفسه يسائلها الخبر عن سبب ماهم فيه من تشريد.

وإن قلبه لتأنس إليه الطمأنينة حين تستعيد مخيلته تاريخ ثالث أمراء البيت السعودى « سعود الكبير » الذى قاد نجداً إلى الحجاز ووسع ملكه فى الحواشى والأطراف ، ونشر كلمة الله فى ربوع أفسدتها بدع الأتراك وما جاءوا به من قشور الحضارة التى نحّت تعاليم الإسلام جانباً وأبرزت مفاسد المدنية الحديثة ، وجعلت الدين قصصاً وروايات ، وأدخلت عليه المنكرات وأحلت به الخرافات، وأشاعت فى جوانب الجزيرة العربية من حياة الترف والزيغ الشىء الكثير

يذكر الصبى الصغير جده سعوداً فى لحيته المدلاة وشاربيه الطويلين العريضين، حتى أطلق عليه (أبو الشوارب) لقباً عرف به فى كل مكان ، وإن نفسه لترتاح إلى هذا الذى حكاه أبوه عن كرم سعود الكبير ، فما كانت يسراه تعرف ماقدمت يمناه إذا دق طارق أوجاء زائر أو شكا عاجز أو مد فقير يده بسؤال ، ولا كان (أبو الشوارب) محباً للمال ولا كان مبغضاً له ، لم يحرص على ذهب أو فضة . فما به حاجة إلى الذهب والفضة ، وإنما كان يرحب بهما ليقضى حاجة الناس ويقيم أود المعوزين ، ويستر عرض الأحرار المجاهدين

لقد كان جده سعود زعيم الأحرار فى زمانه ، لم يرض تلك البدع التى جاء بها الترك ، لذلك كان يفسح صدره للأعراب ويمد لهم فى كرمه ، ويبث فيهم روح التضحية من أجل الإسلام الصحيح أو من أجل حياض الوطن العزيز ، حتى إذا آمن الجميع بدعوته نفر للذود عن كتاب الله وسنة رسوله ، وفتح الحجاز وأقام دعائم الدين على قواعده الأصيلة ، ومن أجل ذلك حارب الترك والمصريين حرباً مريرة ، سجل فيها جده هذا كثيراً من الأمجاد التى يفخر بها النجديون على كر السنين والأيام ، ويفخر بها الصبى ، ويستند إليها كلما لاحت له هزائم الأسرة بعد وفاة سعود الجد العظيم

إن السير العطرة التى تراود ذهن الصغير عن أجداده، ماعتمت أن اختفت وأفعم قلبه الكبير بالهم والغم حين رن فى أذنيه صدى صوت أبيه وهو يحكى له قبيل الهجرة من « الرياض » ما آل إليه بيت آل سعود نتيجة الفرقة والخصام بين أفراد الأسرة ، وأثر ذلك فى كيان الدولة، فقد كبا خلفاء سعود العظيم وتنكبوا طرق الصالحين من آبائهم ، فكان عهد عبدالله بن سعود أول الكوارث والأحقاد، وعهد التصدع فى البنيان المرصوص ، وعلامة العجز فى السياسة والحرب على السواء

ويذكر الصغير فيما يذكر من حكايات أبيه فى الرياض أن قومه أعوزتهم حنكة القدامى من أهله أجيالا وأجيالا ، فتفرق الشمل واتسع الخرق على الأسرة الواحدة فراحت شيعاً وأحزابا ، وشردت فى متاهات الصحارى حتى تمكن البطل السعودى تركى بن عبدالله من توحيد الصفوف وسد الثغرات واسترداد المجد الضائع بانتزاع الرياض من براثن الأتراك والمصريين ، غير أنه وهب عمره فى سبيل تلك المحاولة ، المحاولة العظيمة لاستعادة مجد الآباء والأجداد ، ولم يكن خصومه من الغزاة فحسب بل كان الأقارب الطامعون شر خصومه وخصوم وحدة البلاد ، فراح وراحت جهوده عبثاً ومضت معها الأمانى والأحلام .

ثم يشرق وجه الصغير الصبوح وهو يستعيد أقوال أبيه فى وارث عرشهم فيصل بن تركى ، ذلك الفتى نزيل القاهرة الذى استطاع أن يفر من الأسر ويعود حاملا راية الجهاد من أجل دين بلاده ودنياها ، ثم تغيض الإشراقة من الوجه الصبيح حين يتخيل الصبى حرب الأهل ، وعدوهم الرابض يذكيها بين الأشقة حتى يبلغ منها مايريد ، منتهزاً قضاء الله فى فيصل الذى ترك الملك بين ولديه يتنازعانه سنوات وسنوات .

وبذلك هوى أقدم بيت من بيوت الإمارات التى عرفتها جزيرة العرب أحقاباً بعد أحقاب ، وذوى المجد الرفيع والجاه العريض فى منافسة صغيرة بين ولدى فيصل « عبد الله وسعود » .

عرف الصغير كل هذا ، وعرف البلاء الذى حل بأسرته نتيجة الفرقة والخصام والتنافس على توافه الحياة وصغارها ، ولم يحزن قط قدر حزنه على ما وصلت إليه حال أسرته ، تلك الأسرة التى ذكر له أبوه أنها إن لم تكن أعرق أسرة عرفتها جزيرة العرب ، فهى على الأقل فى مقدمة بيوت الإمارة الكريمة القوية ، ذكية النسب عريضة الجاه . . .

وقد ضاقت نفس صبينا بأحداث الحاضر الذى شاهده بنفسه قبل النزوح عن تراب الوطن الحبيب ، فما أبعد ما رآه مما حدثه عنه أبوه من ذكريات الماضى حيث كانت إمارتهم بيت الكرم ، وكان أمراؤها أهل غوث وغياث ، لك طعامهم ولو جاعوا ولأرض نجد دماؤهم يروونها بها ذباً عن حياضها ودفاعاً عن حرماتها !

ما أبأس الطفل الصغير حين ينأى به الزمن عن أجداده الوطنيين المجاهدين المغاوير الذين عشقوا الحرية وعاشوا لها وماتوا فى سبيلها !

ما أتعس الصبى الصغير حين ينأى به الزمن عن أجداده سدنة الدين وحماة العلم ويقربه من كوارث الأسرة حيث يفترق عماه متخاصمين ، يتنازعان الملك ولا يقيمان وزناً لأعدائهما الرابضين فى كل مكان !

ألا بئس ما وسوس به الشيطان فى آذان عميه ! لقد هوت الفرقة بالبيت الخالد وملك أمور الرياض ونجد آل الرشيد خصومهم منذ قديم . . .

لم تعد الدهشة تسيطر على أفكار الصبى وهو يستعيد التاريخ البعيد والقريب ، لقد درس على والده قصة البيت السعودى ، وشهد بنفسه النزاع وأحس الهاوية ، ورأى أفراد الأسرة مشردين بين السجون والصحارى ، وفهم عن والده أن العيش لم يعد محتملاً فى « الرياض » وخيل آل الرشيد تدق سنابكها أعناق الأحرار ، وتعبث بمقدرات آل سعود ، ولا تبقى إلا على والده الإمام عبد الرحمن التقى العالم الورع الذى حمته هيبته ووقاره وصفاته من أن يلحق بأخويه وأسرته إلى الموت أو إلى السجون .

وإن قلب الصغير لينفطر حزناً على والده الشيخ الذى أبت كرامته ، وأبت أريحيته أن يعيش رعية لآل الرشيد ، فقد كان آل سعود أصحاب نجد وسادتها ، وكان الرشيديون عمالهم ومواليهم ، فخرجوا عليهم وقلبوا الأوضاع وابتهلوا الفرقة بين أفراد الأسرة فانتزعوا السيادة منها ، وأصبحوا حكاماً لنجد ، شمالها وجنوبها ، حائلها وعارضها وقصيمها ! . . .

ألا بئست الحياة فى أعطاف الذل ولو كانت قصوراً من الجنان ! . . .

ألا بئست الحياة تتلقاها من فضالة عدوك فى غطرسته وخيلائه ! . . .

وماذا يرجو عبد الرحمن فى شيخوخته إلا أن يعيش كما عاش آباؤه وأجداده حراً كريماً ، قريباً من الله ، قائماً على شريعته وسنته ؟

إن العيش فى ظل الحاكم الجديد قضاء على حريته وكرامته ، وحرمان له من أداء واجباته الدينية ، وهو العالم الفقيه ، والإمام الصادق الأصيل ، والحر المتواضع ، كبير القلب رضىّ النفس أبىّ الضمير .

إن بلاد الله واسعة ، فليضرب عبد الرحمن وأسرته وحواريوه فى أرض الله ، فذلك أحفظ لكرامتهم وسمعتهم ، وذلك أبقى لشرفهم وعزتهم ، وأفضل لهم من أن يشهدوا آل الرشيد وعمالهم يصنعون فى بلادهم وآلهم ورسالتهم أسوأ ما شاهده آل سعود فى تاريخهم العريض .

وماذا يريد الإمام عبد الرحمن ، وفى صحبته زوجه وأولاده ، وفيهم واحد قالت أمه يوماً إنها تشتهى أن يرزقها الله إياه فيساوى الدنيا وما فيها ؟ وإنها لسيدة قريبة من الله ، ولن يحرمها الله ولداً يساوى الدنيا وما فيها ! ومن ذا يكون ياترى هذا الولد الذى يزن الدنيا وما فيها ؟

إصبر عبد الرحمن ، فإلى جانبك عبد العزيز الصبى الصغير ، غداً يملأ الدنيا ، وغداً يشغل الدنيا عما فيها . . .

إصبر عبد الرحمن ... إن غداً قريب ، وإن الله ليرمق «عبده» بعنايته ويسوى

له من الدين والدنيا ملكاً عريضاً لم يعرفه سعودى من بيتك ، وإن ربك لقادر أن يعوضك فى الصبى كل مافات من أمجاد الأولين والحاضرين . . . فاخرج عبد الرحمن إلى « الربع الخالى » ، داو جرحك ، وعالج أمرك بالصبر على المكروه ، واعلم أنه امتحان عسير لك ولآلك ، وكن واثقاً من أن فرج الله قريب . . .

إن عبد الرحمن الشيخ الوقور الصبور ليصغى بالمودة إلى هذا الهاتف الذى يزعم له أن ولداً من أولاده الغر الميامين سيطوى الجزيرة العربية طياً ويصبح « إنسانها » ورائد فكرتها ؛ غير أن التحنان للوطن ، والرغبة فى تخليصه من ذل مستعمره ، جعلت الشيخ يأبى الركون إلى قبائل العجمان التى نزل بأرضها ، وأصر على أن يستنفر العرب هنا وهناك ، فبعث بأسرته إلى البحرين ، وفيهم عبد العزيز الصبى الذى ألم به المرض أثناء الرحلة الشاقة العنيفة ، ومضى والده الشيخ يحاول إثارة النخوة فى نفوس الأصدقاء من قبائل الصحراء ، فلم يجد منصتاً أو مجيباً

ورأى الوالى التركى فى الحسا أن يقتنص حاجة الرجل لأدوات الكفاح ، فعرض عليه أن يزوده بالمال والسلاح إذا قبل أن يكون للترك جنود فى الرياض بعد تطهيرها من آل الرشيد ، وعز على الشيخ العرض الرخيص ، وعز عليه الهوان وتبديل احتلال باحتلال ، فأغلظ للجهول الذى ظن خفة فيه حتى تقدم إليه بيده اليمنى يحمل العون والتشجيع ، لتسحبهما اليد اليسرى صنيعة الشيطان ! . . .

ويذكر عبد العزيز أنه خف إلى والده بعد أن أبل من مرضه ورأى بعينيه ولاة الترك وأمراء الرشيد يطاردونهم مطاردة عنيفة ملحة ألجأتهم إلى الربع الخالى حيث الرمال التى لا يحدها بصر والمتاهات التى يخشاها أقوى البشر ، وحيث قبائل « مرة » وكانوا فى ذلك الزمان غلاظ القلب جفاة الطبع ، وحيث الحياة نوع من التشرد والمشقة والنصب ، فما أقل الماء وما أندر الثمر ! وما أصعب الحياة على أهل مرة أنفسهم ، فكيف بالأمير الشيخ وبولده المرجى هذا البلاء وهذا الكفاح فى سبيل عيش هو الكفاف بعينه ؟ وما لهذا خرج عبد الرحمن وأهله

من بلادهم ، ولا من أجل هذا سعوا فى الأرض بقارص بردها وحمارة قيظها ، وإنما يقصد الشيخ المتمرد من الهجرة إلى بطن الصحراء العود إلى الكفاح من أجل الوطن ، وحياته هنا لاتنبىء بعاجلة ولا آجلة ، بل تهد الأعصاب وتذوى فيها النفوس الثائرة

غير أن الفتى عبد العزيز رأى فى الربع الخالى وبنى مرة مدرسته الأولى فى الكفاح والنضال ، فقد شارك القوم حياة البداوة وساهم معهم فى الغزو والصيد ، وتعلم كيف يروض الأفراس ، ويذلل الهجين ، ويحتمل الجوع والعطش ساعات وأياما . . لقد كبر الصغير على حجر والديه ، وانتصب عود الفتى واشتد ساعده ، وبدا فى ميعة الصبا وشرخ الشباب وإن لم يبلغ من العمر ثلاثة عشر ربيعا

أبعدت الشدة من حياة عبد العزيز فى مطالع عمره ، طراوة العيش التى عرفها إخوانه أبناء الأمراء والحكام ، وتركت الحوادث التى عاشها وقصص الأسرة التى استمع إليها سحابة من الحزن بقيت تصاحب وجهه المشرق فى كثير من الأحيان ، فقد كان عبد العزيز وارثاً لأحزان البيت السعودى وأحزان أبيه ، ألم يشهد انهيار الدولة وتشريد أقاربه وعلى رأسهم والده الشيخ الوقور العالم إمام النخبة المنتقاة والصفوة المرتجاة من أسرته التى حكمت نجداً نحو قرنين من الزمان ؟

صقلت الحوادث الفتى الصغير ، فلم تزده النائبات إلا مضاء ، ولم يزده التقشف إلا رواء ، وخلعت عليه الصحراء جمالا يندر أن تجده فى الصحراء ، غير أنه جمال موروث عن بيت أصيل وأب وضاء الجبين مهيب القسمات ، وأم تميزت بالحسن وتجملت بالصبر ورقت بشمائلها ودقت بأحساسها وتقواها ؛ ألم تقاسم زوجها التشريد والنفى ؟ إنها وطنية عظيمة فى وطنيتها ، إنها أم لم تعرف زينة الأميرات أو لهو الغانيات ، فقد كفلت زوجها فى حله وترحاله ، وقامت على تربية أبنائها وتوجيههم الوجهة الصحيحة نحو دينهم ، وأعدتهم الإعداد الملائم لتحمل التبعات فى مستقبل الأيام

إن عبد العزيز وارث عظيم لأجمل مافى البشرية من خلائق ، إنه ورث عن أبويه خليقة الكرم ، وهى فضيلة فيه بقيت تلازمه وقت الرخاء ووقت الشدة على السواء ، ولم يعرف فى تاريخ الملوك والسلاطين ما أثر عن عبد العزيز فى هذه الناحية من الفضائل ، وإذا ذكرت بعد ذلك شمائل الأسرة فى أسمى معانيها فسوف تجد فى تاريخ عبد العزيز أنه جماع هذه الخلائق والصفات

وبعد فلنطو هذه الحقبة من تاريخ « الحيارى فى الطريق » فأن فتانا عرف الأسى ، ودرس حياة الصحراء ، وألم بسيرة الأسرة ، وأخذ عن والده وصحبه الكثير من علوم الفقه والتوحيد والتاريخ والآداب ، وحفظ القرآن الكريم قبيل الهجرة وإبانها ، وعلمته المصاعب والأخطار والسير والدراسات الصبر على الزمن ، والثقة بالنفس ، والإيمان بالمقدور ، وإن المقدور لينتظره فى كل مكان ، وأول الخطو هناك عند (مبارك). فمن ذا يكون مبارك ذلك الذى خط «إنسان الجزيرة» عنده أول صفحات الجهاد ؟

أول النصر

. . . وحسبه هذا الفتى الشجاع الملهم
يتلقى عنه الراية فى مدلهمات الأيام . . .
ليكن فدائياً ، إن عاش وانتصر فقد رفع
عن الكواهل الذل والعار وإن مات فهو
صريع الحرية والاحرار

دعا أمير الكويت ، عبد الرحمن بن سعود وأسرته إلى رحابه ، ولعل السبب المباشر لهذه الدعوة الكريمة ، الخصومة المستعرة بين أمير الكويت وبين ابن الرشيد ، ففى تكريم أمير سعودى نكاية بالعدو المشترك ، واستخفاف بقدره وازدراء لقوته ، ولعل هناك سبباً آخر أكبر من هذا السبب، وأخطر فى سياسة الجزيرة العربية ، فقد قيل إن الأتراك أقض مضاجعهم سلطان ابن الرشيد الذى أخذ يطوى معظم الجزيرة ، ويثير الرعب فى أرجائها ، فوسطوا أمير الكويت ليفاوض عبد الرحمن بن سعود لعله يتمكن بمعاونتهم من أن يخضد من شوكة ابن الرشيد الذى أصبح يهدد مكانتهم فى جزيرة العرب ، ولعل من أسباب هذه الدعوة ، شعور أمير الكويت بالعطف على خيرة من فى بيت سعود الذين شردهم آل الرشيد ، وعلى رأسهم عبد الرحمن الشيخ الإمام العادل الحصيف .

ومهما يكن من أمر هذه الدعوة ، فأن الشيخ رحب بها ، ورحب بها أولاده ومن فى ذمته من خدم وأنصار ، فقد كانت حياتهم فى الربع الخالى مأساة ومضجرة ، وكان عيشهم فيها عيش الكفاف ، مما لا يليق بعامة أهل الرياض بله أمراءهم، ومهما يكن نصيب العيش فى الكويت فهو على أسوأ الظروف ألين من ظروف العيش فى الصحارى والمتاهات ، ومن يدرى؟ فقد يكون فى الكويت خير وبركة ، وقد يكون الارتحال إليها أول الخطو نحو الحرية والانطلاق من أسر النفى وعذاب القلب والضمير .

أقبل عبد الرحمن وبنوه على أمير الكويت ، وكان الشيخ يرضى عن الأمير إلا فى قسوته على رعاياه ، وكان عبد العزيز ابنه يرضى عن شقيقه مبارك الطامع فى ملك الكويت وإن لم يعجبه منه تحرره أحياناً مما فرضه الإسلام من مظاهر ،

غير أن عبدالعزيز كان يحب هذا الأمير الذى يكبره سناً لصفات فيه يندر وجودها فى كثير من الأمراء، إذ كان كريماً مواتياً ، وكان ذكياً نبيهاً على أصالة فى النظر إلى طرائق الحياة ، محنكاً مدرباً على شئون السياسة ، فاهماً لمغاليقها عارفاً بأسرارها ، حانياً على عبد العزيز ، معجباً بسجاياه ، قريباً من قلبه ونفسه ، شديد التعلق به .

كان مبارك مدرسة عبد العزيز الثانية . . . وكان الأمير الشاب يختلف إلى قصر الأمير مبارك قبل ولايته العرش وبعد أن اعتلاه ، وكان يجلس إليه كما يجلس التلميذ إلى أستاذه ، وكان مبارك يبصره بأشياء ما كان يمكن له أن يهضمها أو يعقلها إلا فى حضرة أمير الكويت ، فقد كانت الكويت أشبه بمدينة طنجه ، فيها أصناف من العرب ، وفيها خليط من الأجانب الترك والألمان والإنجليز والفرنسيين والروس ، وفيها ثراء مصدره لآلىء الخليج الفارسى ، وفيها بترول تنافست من أجله الدول جميعاً وإن لم يكن أمره معروفاً ، أو لم يكن قد أخذ بعد هذا الخطر فى خلق المصاعب وإثارة المتاعب والمشكلات .

وكان الألمان والإنجليز والروس يتنافسون على منابع البترول ، وكان الألمان يسعون حثيثاً لإنشاء سكة بغداد الحديدية ، وكان الروس ينافسون الألمان خشية أن يتم الخط وتقوم لهم امبراطورية شرقية ،وكان الترك حيارى بين أولئك وأولئك ، وكان الفرنسيون ينتهزون الفرصة فينشئون المرافىء على شواطىء اليمن، وكان أمير الكويت يعبث بهؤلاء جميعاً ويضحك من هؤلاء جميعاً ، وينفذ بحذق ومهارة سياسة التفريق بينهم ليسود عليهم ، وينال أغراضه ويحمى ذماره ويضمن سلطانه ، ويتقى بالتوثيق والتعاهد — وخاصة مع الإنجليز — غارات عدوه اللدود إبن الرشيد

فى هـذا الجو المضطرب المتشابك تفتح ذهن عبد العزيز عـلى أشياء كثيرة كان يجهلها ، فقـد عرف أن قضايا العرب ليست محصورة بين آل الرشيد وآل سـعود ، وليست مقصورة على أمير الكويت أو إمام



الملك عبدالعزيز فى شبابه

اليمن ، بل علم أكثر من هذا ، علم أن الدولة العثمانية التى يدين لها بالولاء الملوك والأمراء والحكام العرب تكاد تكون كولاياتها مطمع كل طامع، ومطيةذلولاً للألمان وغير الألمان من الدول العظمى ، وفهم أن الملك يحتاج إلى سياسة وكياسة ، وأنه ليس كله حرباً وغزواً بل قد يكون مداورةومناورة ،وقديكسب الحاكم بهما إن أجاد المداورة والمناورة ، أكثر مما يكسب من النزال والطعان ، وكان أستاذه فى هذا الميدان « مبارك » أمير الكويت الذى أدناه إلى قلبه وقربه من نفسه وسماه « ولده » فى جميع الظروف والمناسبات ! . . .

ولما فرغ الشاب عبد العزيز من الدرس ، وفهم ماجريات الأمور ، نظر إلى أسرته فوجدها تعيش فى بيت كالخصاص ، ضيق الحجرات متصدع البناء يكاد لايتسع لنوم أوطعام ، ورأى والده — على الفقر والإملاق — لايزال على سجيته كريماً يقرى الضيف ويستدين لاستقبال الزائرين وإطعامهم ، وكان يرى الشيخ الوقور حزيناً هدت النوائب والسنون من بنيانه ، وأرق عيشه التحنان للوطن وأرضه الغالية ، فيقول له « ياأبت إن الموت خير من العيش الذليل ولو كان صاحبه فى نعمة سابغة »

قالها لأبيه أكثر من مرة لعله يأذن له بالسعى فى استرداد العز المفقود ، وكان أبوه يخشى فى السبعة عشر عاما التى يحملها عبد العزيز العجز لأداء المهمة التى يريد الشاب الجرىء أن يؤديها ، وقد ألهمه الله بأنه قادر عليها جدير بها كفيل بالنصر فيها ، وإنه ليريد أن ينقذ أسرته من هذا النصب الذى تعيش فيه ، وهذا الشظف الذى تحيا فى أعطافه ، وينقذ فى الوقت نفسه مواطنيه من استعمار آل الرشيد ويرد عليهم كرامتهم ويرفع ذكرهم فى الخافقين

وجاءت الفرصة ولم ير الوالد الشيخ بداً من الموافقة على مغامرة ابنه العظيم ، فقد عزم آل الرشيد على غزو الكويت ، ووجد أميرها فى صديقه الشاب المغامر الشجاع وسيلة من وسائل الكفاح ، فليمده بالمال والرجال والذخيرة ، ليخرج

فى جيش يدين بالولاء لعبدالرحمن بن سعود ، ويكون فى طليعته ولده عبدالعزيز، ويخرج مبارك فى جيش آخر ، فيقع أمير حائل بين نارين ، وكاد عبد العزيز يطير فرحا ، فقد جاء اليوم ليطير عدوه منه فرقا ، جاء اليوم الذى يغسل الشاب الجرىء عار الهزيمة ويسترد اعتبار الأسرة ويحرر الوطن من العدو الدخيل

ومضى عبد العزيز وصحبه خفافاً إلى أطراف نجد ، يؤرقون آل الرشيد وأنصارهم فى كل مكان حتى بلغ الرياض عاصمة بلاده، وتهيأ لمهاجمة ولاة الرشيد وأعوانه فى حصنها الحصين ، فإذا بأنباء سيئة تجيئه عن هزيمة حليفه أمير الكويت، فقد خلت به قبائل العجمان وولت من الميدان فدارت عليه الدائرة ، وقوات الرشيد فى طريقها إلى الكويت !

لم يجد الشاب المتحمس بدأ من العودة إلى الكويت ، فماله بقوات الرشيد قدرة ، وليس من أصالة الرأى أن يطمئن إلى جيش معظمه من العربان الذين قد يخونونه كما خانوا من قبل صديقه مباركا ، وإنها لتجربة ، وإنه ليمضى بعدها بحفنة من الأنصار المؤمنين به يثير الرعب فى قبائل عدوه ومدنه ، يلقاهم فى كل ساعة من الليل أو النهار ، ويثير فى نفوسهم الذعر فى كل مكان ، وقد ألقى أبوه إليه الأمر كله فقد طعنت به السن وتقدم به الزمن ولم يعد قادراً على القتال، وحسبه هذا الفتى الشجاع الملهم يتلقى عنه الراية فى مدلهمات الأيام ، وإنه لها ، وإن أول النصر لقريب . . .

ليكن فدائياً ، إن عاش وانتصر فقد رفع عن الكواهل الذل والعار ، وإن مات فى الميدان ، فهو صريع الحرية والأحرار ! . .

هذا هو الهاتف الذى ألم بعبد العزيز بن سعود ، وقد ذهب إلى والديه يقص عليهما ما اتخذ من قرار ، وفَرَق الوالدان لهذا الذى تسلط على نفس ولدهما، فإنه يريد أن يفتح الرياض عاصمة السعوديين بثلاثين رجلا قد يزيدون إلى أربعين ! وسيلقى بهذه الحفنة الضئيلة ، حامية الرشيد فى المدينة ، وهى عشرة آلاف محارب

عدتهم كاملة وعتادهم موفور ، وعلى رأسها عجلان الحاكم الفظ القاسى الذى دوخ النجديين وألقى الرعب فى نفوسهم بما اصطنع من أساليب التعذيب والإرهاب التى لم يعرف لها نظيراً دين من الأديان ولا حكومة من الحكومات

إن هذا الهاتف الذى ألم بعبد العزيز لم يكن إلهاماً لا تسنده المبررات ، فأن الشاب الجرىء دخل من قبل الرياض فى ألف رجال ، ولولا هزيمة أمير الكويت أمام جيوش ابن الرشيد لاحتل حصن المدينة وقضى على شوكتهم هناك ، فقد التف حوله المواطنون من الرجال والنساء ، ووجدوا سيدهم وابن سيدهم وسط المعمعة جاء إليهم عبر الفيافى والقفار ، لينقذ شرفهم المثلوم ويرد عليهم كرامتهم التى مرغها فى التراب عجلان عامل ابن الرشيد فى البلاد ؛ جاء إليهم وعلى كفه رأسه قد يقدمها قرباناً لهذا الغرض العظيم فى تاريخ الشعوب والأوطان ؛ وقد استطاع عبد العزيز فى حربه الخاطفة تلك ، أن يرتب شئون الطابور الخامس فى الرياض ، ولم يتركها إلا بعد أن ترك عجلان وجنوده يعيشون فى سعير حرب باردة كانت تطلقها أداة ذلك الطابور من النجديين الأحرار ، وتؤكدها إغاراته على أطراف نجد بين آن وآن

تلك هى المبررات التى جعلت الهاتف قوياً مدوياً فى نفس الأمير المقدام وشجعه أن الأخبار ترامت إليه بأن عجلان يعيث فى الأرض فساداً ، وأنه اطمئناناً إلى غيبته فى الكويت أسرف فى ألوان الكبت والتضييق على الحريات ، وأن ابن الرشيد مؤمن بأن عبد العزيز أعجز من أن يخرج فى جمع كبير كذلك الجمع الذى احتل به الرياض وقتاً من الزمان ، وأن صديقه أمير الكويت لن يجرؤ على إعانته ومده بمال أو سلاح ، فقد خسر فى الموقعة الأخيرة زبدة جيشه وأصبح فى حاجة إلى ميرة وعتاد يصون بهما حدوده أو يضبط بهما على الأقل الأمن فى بلاده ، ومثل هذا الأمير مهما يتميز بالشمم والإباء فلن يفرط فيما تبقى لديه من القوى ، وخاصة أن شعبه شعب مسالم لا يرتاح لكفاح أو نزال ، وأنه إذا افتقد من جيشه جنديا

تعذر عليه أن يأخذ من صفوف الشعب من يسد به الثلمة أو يرتق به الرقع ، فصفوف الشعب مشغولة بتجارة اللآلىء ، معنية بصناعة القوارب ، غارقة فى مال التجارة والصيارف

وصح تخمين ابن الرشيد ، فأن « الوالد » مباركاً لم يستطع أن يعين « ولده » عبدالعزيز إلا بتافه التأييد والتشجيع ، فمنحه مائتى ريال وثلاثين بندقية وأربعين جملا وقليلا من الإدام يتزود به فى الطريق ! . . .

إن ماحصل عليه عبدالعزيز من صديقه أمير الكويت لا يصلح لقافلة تجارية تريد أن تقطع الطريق بين الكويت ونجد ، وتريد أن تأمن الطريق بين البلدين ، فكيف يظن مبارك أن هذا الذى منحه لعبد العزيز شىء يعتد به فى مهاجمة مدينة مسورة يحميها عشرة آلاف من الرجال ، وفيها من الزاد ما يكفيها شهوراً وسنوات ، لو قام عليها حصار من عدو لجب كثير الجند والعتاد ؟

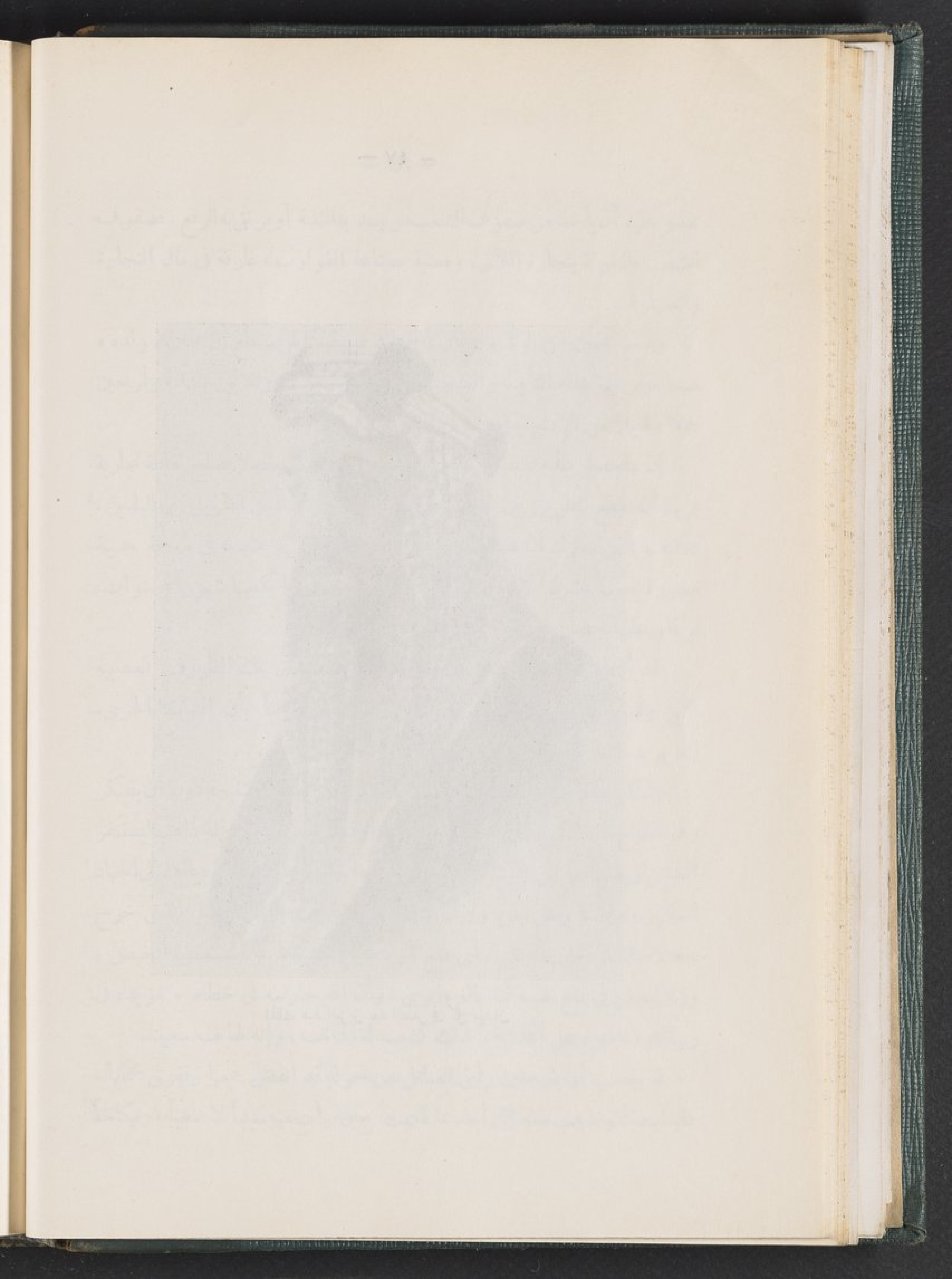
لقد أعطى مبارك « ولده » ما يستطيع أن يمده به فى تلك الظروف العصيبة التى وقعت فيها البلاد ، ولعله كان فى قرارة نفسه مؤمناً بأن الشاب الجرىء إنما يريد المناوشات ولن يفكر أبداً فى اقتحام الرياض . . .

ولكن عبدالعزيز كان قوى الإيمان بالنصر ، واثقا من النتيجة دون أن يفكر وهو خارج من الكويت فى خطة موضوعة أو فكرة مرسومة ، إنه ذاهب ليستنفر القبائل ويقلبها على ابن الرشيد ، ويختبر عودها ، فأن اطمأن إليها دعاها إلى الجهاد الكبير ، وإن لم يرض عن ولائها وحماستها انصرف بالنفر القليل الذى خرج معه لأداء الواجب العظيم ، أى فتح الرياض ونجد وطرد المستعمر البغيض ، وإنه ليحس فى قاع نفسه أنه بالغ ما نوى ، وأن الله حارسه فى خطاه ، مؤيده فى رسالته ، ناصره على أعدائه ، بذلك كشف له الهاتف ، وإنه لهاتف سعيد .

لم يغضب أو ييأس حين رأى القبائل من حوله قد انفض جمعها وتفرق شملها ، فقد أبت أن تذهب معه إلى أبعد مما ذهبت حين رأت منه سيداً لا ناهباً ، ومكافحاً



الملك عبد العزيز بعد النصر فى كل ميدان



لا سارقاً ، وحاكماً لا قاطع طريق ، والقبائل فى البـــدو تريد النهب والسلب ، وتستعجل الحوادث كى تصيب الغنائم والأسلاب ، وعبد العزيز لا يريد إلا تحرير بلاده ، فأن أصاب مغنما بعد ذلك فلأصحابه ومعاونيه ، والغنم كل الغنم عنده ، تحرير الرياض والقضاء على شوكة ابن الرشيد

لقد كانت مخاطرة رائعة مروعة أن يسقط عبد العزيز آل سعود من حسابه معاونة القبائل الضاربة حول نجد فى فتح الرياض ، فأن تلك القبائل ، لو صح عزمها على معاونته وانعقد إجماعها على مؤازرته كفيلة بضمان النصر وهزيمة آل الرشيد فى كل مكان

ولو ان عبد العزيز أباح لشيوخ القبائل ما كان يستباح فى مثل تلك الظروف لهبت إلى جانبه ، فأن النهب والسلب والقتل لم يكن عملا إداً فى حروب الصحراء غير أن فتانا كان جديداً على الميدان بمبادئه كما كان جديداً بأيمانه الذى هتف به أن يمضى ولو من غير رجال أو عتاد ، إلا تلك الحفنة المغامرة من الأهل والصحاب

وليست المخاطرة فى رأيى أن « إنسان الجزيرة » أسقط من حسابه القوى البشرية فى القبائل العربية المختلفة التى أبت السير معه ، بل كانت المخاطرة أنه أعلن على رءوس الإشهاد أنه سيجاهد من أجل وطنه على غير الطريقة القديمة فى الجهاد ، وهى حرمان المجاهدين من أسلاب النصر ومنعهم من السلب والنهب ، فذلك إعلان ربما كان يؤثر فى الموقف فتثور ضده تلك القبائل ويقع بين نارين ، نار آل الرشيد فى الرياض ، ونار القبائل المتناثرة حولها هنا وهناك

لم يبق مع عبد العزيز إلا أربعون رجلاً ، وهم عدته الأولى التى نزح بها من الكويت ، جمعهم وشرح لهم الموقف ودقته ، وبين لهم وحشة الطريق وقسوة الجو المتقلب بين القيظ والبرد ، وأفصح لهم عن قلة زادهم ومؤنهم ، وأنذرهم بأنه لن يعد أحداً منهم إلا بالعرق والدم ، ولن يمنى أحداً منهم بأكثر من هذا ، وهم

يستمعون إليه مؤمنين به واثقين فيه ، فأن العرق الذى يتحدث عنه والدم الذى ينذر به إنما هو عرقهم ودمهم يبذلونه فى سبيل الأهل والأقارب فى الرياض ، وهم لها مادام ابن عمهم وسيدهم على رأسهم يأخذهم حيث يشاء ويوجههم حيثما يريد ، فعلى بركة الله خرجوا ، وفى سبيل مثل أعلى رفعوا علم الجهاد ، فأن عاشوا فنعمت وإن ماتوا احتسبهم الله بين الصالحين

أربعون من الفدائيين يهاجمون عشرة آلاف فى الرياض ! فكيف وضع عبدالعزيز خطة الغزو حتى تتحقق له تلك المغامرة التى لا تصدق فى الروايات والأساطير ؟

هبه احتل الرياض ، وهبه قد انتصر له أهلها جميعا بلا استثناء ، فيبقى الحصن محاصراً بعشرة آلاف مقاتل لا ينقصهم الزاد والعتاد ، وتبقى بعد ذلك المدينة مفتوحة لكرة من ابن الرشيد وجحافله يأتى بها من كل صقع وناد ، وتفشل المحاولة مرة ثانية ، وقد يفقد فيها ابن السعود رأسه ورءوس أصحابه وتذهب الأحلام والأمانى فى التراب ، ولا يقوم لآل سعود بعدها قائمة من عزوة أو جاه .

وماذا يكون أمر الوالد عبد الرحمن ، وهو قابع فى الكويت ينتظر أخبار الإبن الهمام ، إذا جاءته أنباء الهزيمة ونهاية الفتى الشجاع الذى ذهب إلى الرياض لينتحر على مرأى من مواطنيه الكرام وبسيف آل الرشيد الطغاة ؟

اجتمع عبد العزيز بالأربعين الميامين وتداول وإياهم فيما يصنعون لطرد المستعمر الغاصب من العاصمة توطئة لتحرير البلاد جميعاً من ذلة الاستعمار ، وأخذ رأى كل فرد على حدة ، وحبس عنهم الخطة الأصيلة الوجيزة القاطعة لتحقيق الهدف المنشود ، ولم يدع لأحد منهم موعد الهجوم الذى حدده وعينه وربط له يوماً وساعة ، حتى لا يسقط من أحدهم خبره هنا أو هناك فتفسد الخطة ويبوء الأمير الفطن بفشل مبين . . .

ووقف عبد العزيز بعد ذلك يتطلع إلى الأفق الذى لا تحجبه عن عينيه بيوت سامقة ولا عيون متفجرة ، ولا أرض مزهرة ، خاشع القلب ، صادق النية ، سليم الطوية رافعاً أكف الضراعة إلى ربه جلت قدرته وتناهت عظمته ، أن يهبه من لدنه قوة على احتمال المكروه إذا وقع ، وأن يحبس عنه الزهو إن تم نصره واندحر عدوه

مضى وصحبه يقطعون الصحراء صابرين على الجوع والعطش ، فقد اقتصدوا فى طعامهم ومائهم وشحوا على أنفسهم حتى يبلغوا وطرهم ، وما هى إلا أيام ولاحت فى الأفق « الرياض » يلفها الظلام الثقيل ، فأناخوا ركبهم على بعد ساعتين من أسوارها ، وتناولوا طعامهم وشربوا قهوتهم وأدوا فريضة الصلاة

ثم تخير عبد العزيز من بين الأربعين جماعة منهم كان على رأسهم شقيقه محمد وابن عمه عبد الله بن جلوى ، ثقة منه بأنهما قطعة من نفسه ، وأن شعورهما لا يقل عن شعوره ، فضلا عن شجاعتهما التى أثرت عنهما فى أحلك الظروف وأقسى الأحوال ، وأمر من بقى من الرجال أن ينتظروا حيث هم حتى إذا دعاهم لبوا نداءه فوراً ، وإذا لم يجئهم منه نبأ حملوا إلى والديه سوء المصير . . .

ومضى بركبه حتى إذا بلغ الأسوار تخير سبعة وترك الباقين مع شقيقه محمد ودخلوا المدينة متفرقين ، ولم يلفت دخولهم أحداً من العسس أو جنود الحصن الحصين ، وبغيتهم بيت عجلان مأمور الرشيد وواليه على الرياض ، ومن الخطة أن يقضى عليه عبد العزيز فى عقر داره ، ويصبح النهار فإذا السيد ابن عبد الرحمن وإذا الحصن ومن فيه طوع أمره ، وكفى المؤمنين القتال . . .

وكانت الليلة باردة شديدة الريح ، فقصد عبد العزيز والسبعة من الصحاب دار فلاح تحاذى دار عجلان ، ودق عليها برفق ثم عاد فأعنف الدقات ، حتى يوقظ أهل البيت فيأوى إليه ، ويستكمل خطته عندهم دون أن تكشف حاله عيون عجلان الساهرة فى كل مكان . فأجابت امرأة تسأل من الطارق فى هذه الساعة

الغريبة من الليل وفى هذا الجو من الصقيع والبرد الذى يفتت الأجسام ؟ فقال عبد العزيز إنه من رجال الأمير عجلان جاء يشترى أبقاراً من صاحب الدار ! وقال أصحاب الدار إنما تريد شراً فما هى ساعة يحلو فيها البيع والشراء ! ومنذ متى يبيع الناس ويشترون بعد أن انتصف الليل وكاد يبزغ النهار ؟

فأقسم عبد العزيز ما يريد شراً وإنما يريد لقاء صاحب البيت ، فإن أبى فأنه ليخشى عليه من عسف الأمير عجلان ولن تنفعه حينئذ تعلة أو اعتذار .

وبعد اللتى واللتيا أخذ صاحب الدار يفرك عينيه ، ويتدثر قبل فتح الباب فقد خشى البرد ولفحة الريح ، فأذا أدار المزلاج وانفتح الباب بدت على ذؤابة النور سيماء عبد العزيز ، فارتمى الرجل فى حضنه يوسعه تقبيلا ويعلن لمن فى البيت الخبر السار ، وانفلت أصحاب الأمير إلى داخل الدار ولحق بهم بقية الجماعة من الصحاب الأخيار .

ومن دار هذا الفلاح الكريم تسلق ابن السعود وزملاؤه حوائط دار عجلان ومضوا فى رفق وتؤدة ، وفى شجاعة وثقة يفتشون عن صاحب البيت عامل ابن الرشيد وأمير الرياض ، فقد كان بود الأمير أن يحسم الأمر فى داره حتى يجنب المسلمين سفك الدماء إذا جاء الصباح ، بيد أنه لم يجد فى حجرة نومه إلا زوجته وشقيقتها وقد بلغ بهما الرعب مبلغه ، غير أنه كأنسان أبى أن تمس المرأتان بسوء وحجزهما مع من حجز من خدم البيت ، بحيث لا يسمع لهم همس أو صوت ، وجمع محاربيه ليأكلوا وأعد لهم القهوة بنفسه ، وكل ذلك حتى يدخل الطمأنينة على قلوبهم ، ولا شك فى ارتياعهم ، فأن الموقف عصيب ، وغنيمتهم إلى هذه اللحظة بعض الخدم وامرأتان !

وفرغ الأبطال من طعامهم وغفوا قليلا إلا عبد العزيز فبقى ساهراً حتى سمع آذان الفجر فصلى بهم ودعا ربه أن ينصره ويعجل نصره ، واستمع الله له ، فما أن بدأت أشعة الشمس الباهتة تضىء الحصن حتى خرج منه عجلان قاصداً

بيته ،، فاعترضه عبد العزيز مواجهة وسيفه البتار فى يده ، غير أن عجلان أدار ظهره مولياً نحو الحصن وتعلق به ابن السعود فانفلت منه بقوة وكاد يختفى وتفشل المحاولة غير أن ابن جلوى عاجله برصاصة أردته قتيلا ، «وانتشر المحررون» بعد أن انضم إليهم إخوانهم الباقون خارج الاسوار ، يسالمون من يسالمهم ويقتلون من يعاديهم ، ويؤمنون من يؤمنهم ، ولم تمض ساعة من الزمان حتى كانت المدينة وحصونها قد أصبحت فى قبضة الامير الشاب الذى صلى لله شاكراً كرمه وعطفه ، فقد استجار به فأجاره ، ومضى المنادون يعلنون النبأ السار على المواطنين الأحرار .

وفى لحظات أعلنت الرياض ، رجالها ونساؤها ، شبابها وشيبها مبايعة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ، على السمع والطاعة ؛ وفى وسط مهرجان السعادة والسرور الذى شمل المواطنين ، وقف الأمير سيد الرياض يحض الناس على البر والتقوى ، ويطلب إليهم العفو عند المقدرة ، ويحذرهم من خلائق الغدر والخيانة والانتقام ، ويأمرهم ألا يردوا من جاءهم مسالماً مواتياً ، وألا يسيئوا إلى النساء ولو أقبلن بالشر ، فأن لهن حرمات يجب أن تصان ، وأعراضاً يجب ألا تستباح ، وقد أنذر أهله وأصحابه قبل غيرهم بأسوأ الجزاء إن لم يصغوا إلى أوامره ونواهيه

وكم جاهد ابن السعود فى تلك اللحظات التاريخية ليحول بين قومه وبين ما انتووه لآل الرشيد ومن عاونهم من المرقة الخائنين ، فقد كان المفروض أن يسيل دمهم أنهاراً أو بحاراً ؛ وكان المفروض أن ينتقم القوم لعزتهم التى سلبها العهد المنهار ، ويأخذوا بثارات قديمة ، وثارات العرب أقوى من أن يشفع فيها قريب أو جار ، وأقوى من أن تصرفها دعوة أمير أو فرحة انتصار

وكان أهل الرشيد وأعوانه فى بيوتهم ينتفضون من الخوف ويجزعون فرقا على أرواحهم وأموالهم وأولادهم ، حتى سمعوا بكلمات الحاكم الجديد الذى فطره

إليه على البر والخير ، وبرأه على العدل المعروف ، ورفع عن قلبه السخيمة والموجدة ، فلم يعرف ساعة النصر إلا ربه ، فأمر بحماية خلقه من شر خلقه ، واستطاع فى ساعات أن ينشر الأمن والطمأنينة فى قلوب الناس ، اللائذين به والخائفين منه ، فأقبل المنتسبون إلى الرشيد على أمير الرياض الجديد يعلنون ولاءهم ويبايعونه على السمع والطاعة !

يا لسخرية القدر ! جاءوا يعلنون ولاءهم والأمير الكريم يترضاهم بالكلمة الحلوة ويحفظ كراماتهم وأرزاقهم ، وينزلهم من نفسه منزلة الأهل والصحاب . . .

يا لسخرية القدر !... لو ان هجومه الخاطف قد فشل لمزقه اللائذون بساحته الآن شر ممزق ! وإنه ليعلم منهم هذا الطبع ، ويعرف عنهم هذه السياسة ، ولكنه « إنسان » يأبى أن يفقد إنسانيته مهما يعلم ويعرف من أمر خصومه ، وخاصة فى ساعة النصر ، وهو أول نصر خصه الله به ، فليصفح عن المسىء وليحسن إلى من أحسن إلى الله والناس ، تلك كانت طبيعته منذ فتح الرياض إلى أن دانت له الجزيرة الفيحاء .

الملك الإنسان

ونسى جندابن السعود مطر الربيع وقوت
العيال ، وثارت نفوسهم الأبية وحملوا حملة
شعواء على المتجبر المتكبر ، وانتصر الخبير
العالم بالسياسة فى أدق الساعات التى مرت
به فى ميدان النزال

لا يذكر تاريخ « إنسان الجزيرة » أنه كان معتدياً فى يوم من الأيام ، مع أنه حارب نحو ثلاثين عاماً فى أكثر من ميدان ، وذرع الجزيرة العربية غازياً فاتحاً مقيماً حد الله مؤكداً شريعته باسطاً سنة رسوله فى كل مكان ؛ ومع ذلك لم يعتد قط على قطر أو قبيل أو إمارة إلا دفاعاً عن النفس أو تأميناً لاستقلال وطنه من المغيرين أو الطامعين

لم ينازل سلطان نجد قوماً عادين حين فُرضت عليه حرب آل الرشيد ، بل نازل أهل القراع والنزال فى الجزيرة العربية كلها ، بل لعله لم يحارب قط جماعة فطرت على الحرب وكانت للوغى مثلما حارب رجال الرشيديين ، فقد كانت الحروب عندهم هواية ، وكانت المعارك علاجاً لحياتهم ، فما كانوا يحبون أن تمضى تلك الحياة رتيبة مستقرة ، ولا يطيقون الهدوء أو الاستقرار مهما يفىء عليهم الزمن بالفضل والخيرات

فرضت أطماع آل الرشيد الحرب مع ابن السعود ، وتهيأ لها السلطان وهو يعلم أنه سيمضى فى قراع مع قوم هدوا أعصاب الترك وأنصار الترك من أمراء وشيوخ ، فقد كان بأس آل الرشيد قوياً عنيفاً على العثمانيين ولهم فى الجزيرة ولايات وحمايات ، ولهم قبل ذلك سلطان روحى يغضب له إذا غضب عشرات الملايين من المسلمين

وعرف عبد العزيز أن من سيحاربهم من أمراء العرب الذين يضرب بجلدهم المثل ، وتروى فى شجاعتهم الحكايات ، وأن من يقصدهم بشر سيلقى حتفه ونهايته

وعرف ابن السعود أن أمراء آل الرشيد لا يحتلون مدينة أو قطراً بل إنهم موزعون فى معظم بقاع الجزيرة ، وتربطهم بالأمراء فى الشمال والجنوب روابط

حسنة ، إن لم تجعلهم فى ركابهم محاربين فستتركهم على الأقل بين النظارة الهاتفين والمصفقين

فى وسط تلك الحالة النفسية العجيبة ، بدأ السباق بين آل سعود وآل الرشيد وكان المراقبون السياسيون يقطعون بأن كفة آل الرشيد هى الكفة الراجحة ، فما عودهم أولئك إلا النصر على كل أمير أو شيخ أو سلطان يحاول أن ينزل من قدرهم أو يهون من شأنهم

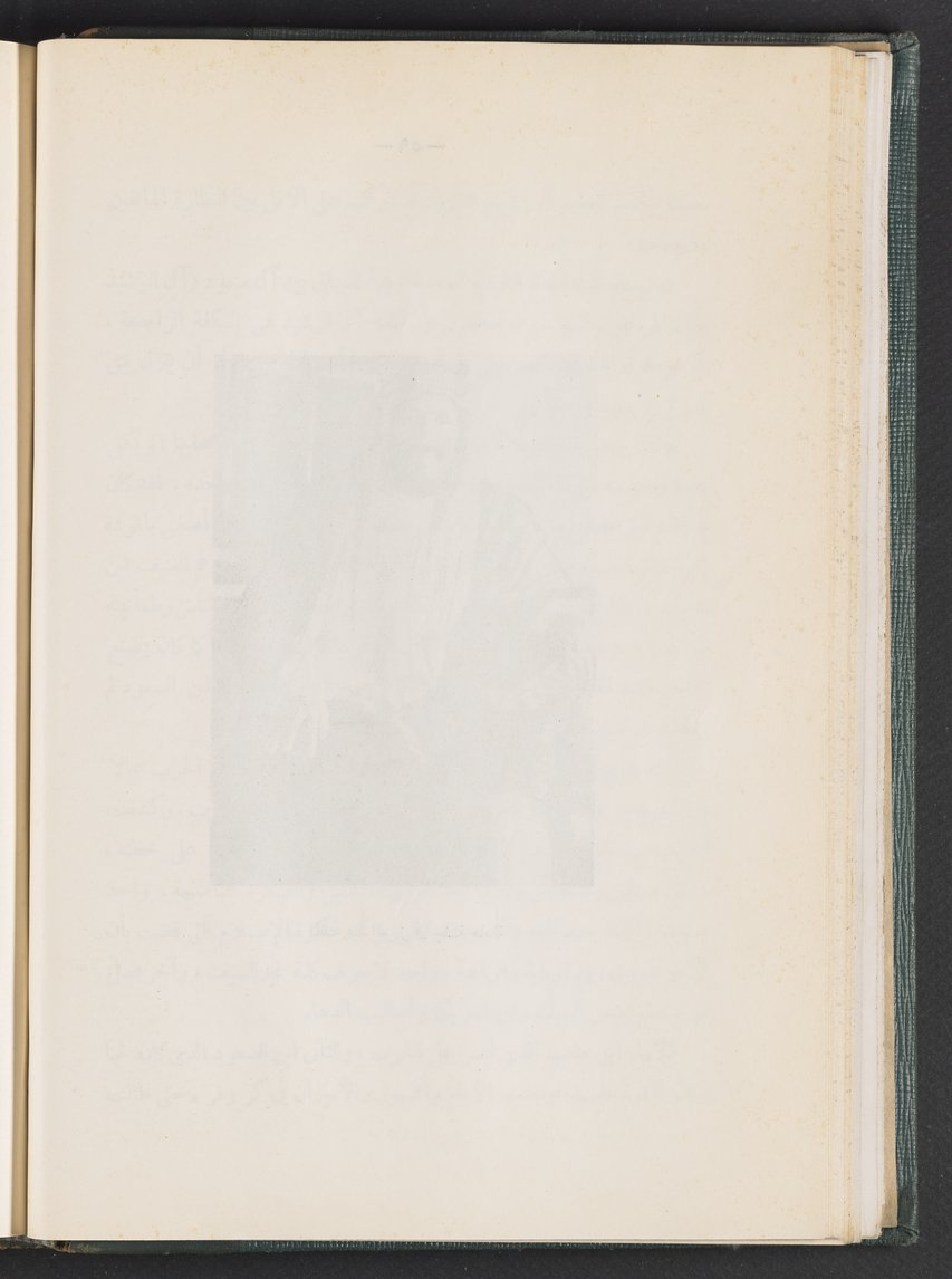
وكان يُرجى أن يعود الأمير الرشيدى إلى الحق ويخلى نجداً لأصحابها ، ويكفى نفسه وخصمه مئونة الكفاح المرير فى قضية خاسرة ، خاسرة له وحده ، فقد كان بأمكانه أن يحفظ لبيت الرشيد عزوته ومقامه فى السياسة العربية لو أصغى بالمودة إلى العظيم الجديد الذى ظهر فى الميدان ، غير أن آل الرشيد وأميرهم العنيف ابن متعب أبى إلا أن يشنها حرباً تأتى على الأخضر وتقضى على سلام الناس وطمأنينة البلاد ، إنه من عباد القـــوة ومن أصحاب الغطرسة والخيلاء ، تماماً كما كان يصنع تلامذة نتشه الذين لايرون الحياة إلا تعاليا وجبروتا ، بينما خصمه ابن السعود لم يصطنع فى سياسته إلا الحلم والبساطة وسماحة القلب والضمير

واصطرع القرينان ، وتقابل الخصمان مرات ومرات ، ومضت الحرب سجالا بين الفريقين وإن كانت كفة عبدالعزيز أرجح ، وتباشير النصر أقرب ، وكشفت الحرب عن نفسية كل من الزعيمين ، واحد لاراد لرأيه ولا معقب على خطته ، وآخر يستفتى ويستقصى وينزل عند الرأى الأصيل والفكرة الناضجة ، واحد مستبد لاكلمة بعد كلمته وآخر ديمقراطى يؤكد فكرة الإسلام التى قضت بأن الأمر شورى بين الرعية والراعية ، واحد لايعرف كلمة غير السيف ، وآخر يصل إلى مبتغاه بحسن السبك ولين العريكة وأساليب الدهاء

الأول ابن متعب الذى أصر على الحرب ، والثانى ابن السعود الذى كان لها وكان قادراً عليها ، ومضت الأيام والشهور والأميران فى كر وفر . حتى طالت



الملك عبد العزيز فى جلسة هادئة



الحرب حينا وجاء الربيع ونزلت الأمطار ، وأحس ابن السعود أن البـدو من جيشه قد حنت نفوسهم إلى مراعيهم لسقياها وزرعها وإنباتها ، وماكل ربيع تجود فيه السماء هـذا الجود نادر المثال ، وتهيأ جيش ابن السعود للانصراف حيث تناديه الأمطار ويناديه الأهل والولد الملتف حول الأرض ينتظر عودة العائل ليشرف على السقى والزرع والنبت

ولو تمت رغبة البدو لانهارت جبهة عبد العزيز ، وهو لم ينظم جيوشه قط بحد السيف ولابنشر الرعب فى النفوس ، بل صفها بالكلمة الحلوة وبالثقة فى شخصه والإيمان بطالعه ، أما خصمه فاسمه يثير الذعر فى كل قلب ،ولايجرؤبدوى فى جيوشه على الهرب أوالاعتراض على الحرب مهما تهطل الأمطار ومهما تدع الأرض أصحابها البعيدين عن الأهل والأمصار !

أيجازف ابن السعود فيهاجم عدوه ويتفرق جيشه بعدئذ إما منصوراً أو مقهوراً ؟ لم يرض دهناق السياسة بالمجازفة ، فأعلن إلى جنده أنه سيطلب الهدنة من خصمه إبّان الربيع ليسعد جيشه بالمطر ورى الأرض وكسب القوت الحلال ، وبعث بمندوب من عنده لابن الرشيد يدعوه إلى أن يرجع كل منهما إلى بلاده حتى يزرع جنودهما وينبتوا وينالوا من خيرات الله الشىء الكثير ، وعاد المندوب وجند ابن السعود يهلل ويكبر فما طاف بذهن واحد منهم أن يرفض العدو هذه الدعوة الكريمة لصالح العربان . . . ووقف العائد حزيناً حيران يعلن على جيش ابن السعود أن ابن الرشيد أبى العودة وأغلظ له القول ، وأنه لا يضمر لهم إلا « الحافر وصنع الكافر » وأنه مصر على أن يجعل منهم ومن رءوسهم نتاج هذا الربيع !

ونسى جند ابن السعود مطر الربيع وقوت العيال ، وثارت نفوسهم الأبية وحملوا حملة شعواء على المتجبر المتكبر وعملوا فى أقفية جنده الطعن والتقتيل ، وانتصر الخبير العالم بالسياسة فى أدق الساعات التى مرت به فى ميدان النزال . .

لقد ساس ابن سعود جنده ، واستطاع بدهائه أن ينقلهم من التبرم بالحرب إلى الحرص عليها والفناء فى سبيل القضاء على العدو ، ولم يذهب مذهب ابن متعب الذى ركب رأسه ، ولم يرع حاجة جيشه إلى ابتهال فرصة الأمطار ، فأصر على الحرب فى زهو وخيلاء دون أن يحسب لكرامة خصومه حساباً فجاءه الجواب عنيفاً قوياً أذهله وقضى على صلفه وجبروته .

وشتان بين الزعيمين فى السياسة ، فابن الرشيد أمير مغلق القلب والعقل ، قد يكون شجاعاً تتندر بشجاعته المدن والصحارى ، غير أن القرن العشرين قد ورث فى نظم الحكم ، السياسة والدهاء والأخذ والعطاء ، وهذا الإرث يقتضى من صاحبه شيئاً من الدراسة والفهم لأمور الحياة والأخذ عن المحدثين فى هذا الباب ، وذلك أمر خبره ابن السعود باستعداده الفطرى أولاً وبما وعاه حين كان فى الكويت يشاهد عن كثب سياسة الأجانب والعرب ، وبقدر ما عرف ابن السعود فى هذه النواحى كان ابن متعب يجهلها ولا يؤمن بغير السيف والغلظة والقسوه للخصم والصديق على السواء .

وشتان بين الزعيمين فى الحرب أيضاً ، فالحرب عند ابن السعود عمل قاس وطارىء ثقيل ، وعند ابن متعب متعة ولذة وحياة لاحياة بعدها ، وهى عند ابن السعود ضرورة مرسومة الحدود ، يؤمّن فيها من يؤمّنه ، ويعفو فيها عمن يطلب العفو ، وأجمل ساعات الحرب عنده حين يتمكن من حقن الدماء وحفظ كرامة الأعداء ، وهى عند ابن متعب صولة من جحيم وجولة من نار تتكسر فيها النصال على النصال ، ولا يفرغ منها إلا حين تسعد نفسه ببحر من الدماء ، أو تلتذ بقتل الصغار قبل الكبار وأخذ العاجزين بتشف ينفى عنه إنسانية الإنسان .

إن ابن متعب،ومعظم حكام آل الرشيد لا يعرفون فى الحرب رحمة،ولا يصغون فى النصر إلى مودة أو تعاليم من دين وأخلاق ، إنهم هدامون يحلون فى الحرب

كل شيء ، وهم ينفذون شريعة موسى حين تقول « تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون شواربهم وتحرقون تماثيلهم بالنار» وهم يؤكدون هذه الشريعة القاسية حتى ولو سلم العدو وأعلن السمع والطاعة « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فأن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير» ! (١)

على ضوء هذه الشريعة كانت سياسة آل الرشيد فى الحرب ، وكان الرعب الذى يصيب أعداءه يكلفه غالياً لأنهم يستميتون فى الدفاع والكفاح ، فهم — أى أعداؤه — يعلمون أن قضاءه فيهم إن سلموا ، أعنف من قسوة الوغى ، فيصبرون لذلك على الحرب وعلى الكر والفر مهما يسقط لهم من ضحايا . . .

وانظر قسوة ابن متعب الذى خلت نفسه من الرحمة وقدّ قلبه من حجر ، يشاهد أربعين طفلا وشيخا يقدمون على الرعى والسقى فى سهل يقع ضمن أرض ابن السعود ويخضع لسلطانه ، فلا يسبى الأطفال أو يرق فيترك الشيوخ وشأنهم ، بل يأخذهم بسيفه ، ملتذاً بقتلهم فرادى وجماعات حتى بقى شيخ وطفل ، فتمنى عليه الشيخ المتهدم واستعطفه وألح فى الرجاء والاستعطاف أن يترك صغيره ويعفيه من نطعه ويبقى عليه حتى يعينه على الحياة ويأخذ بيد الشيخ العاجز فى الطريق . . . فأبى الأمير رجاء الشيخ الفانى ، فتمنى الشيخ أن يمتله أولا حتى لا يرى صغيره ذبيح سيفه ويعفيه بذلك من حسرة تجل عن الوصف والبيان ، فأصر ابن متعب على أن يشهد الشيخ بعينيه رأس طفله الصغير تفصل بسيف الظالم الجبار ثم أطار النطع أيضاً رأس الشيخ الوقور وهو فى حالة من الذهول والهذيان !

وكانت هذه المذبحة التى خلت من الرحمة والانسانية أسوأ ماعرفته الجزيرة

---

١ — الإصحاح السابع

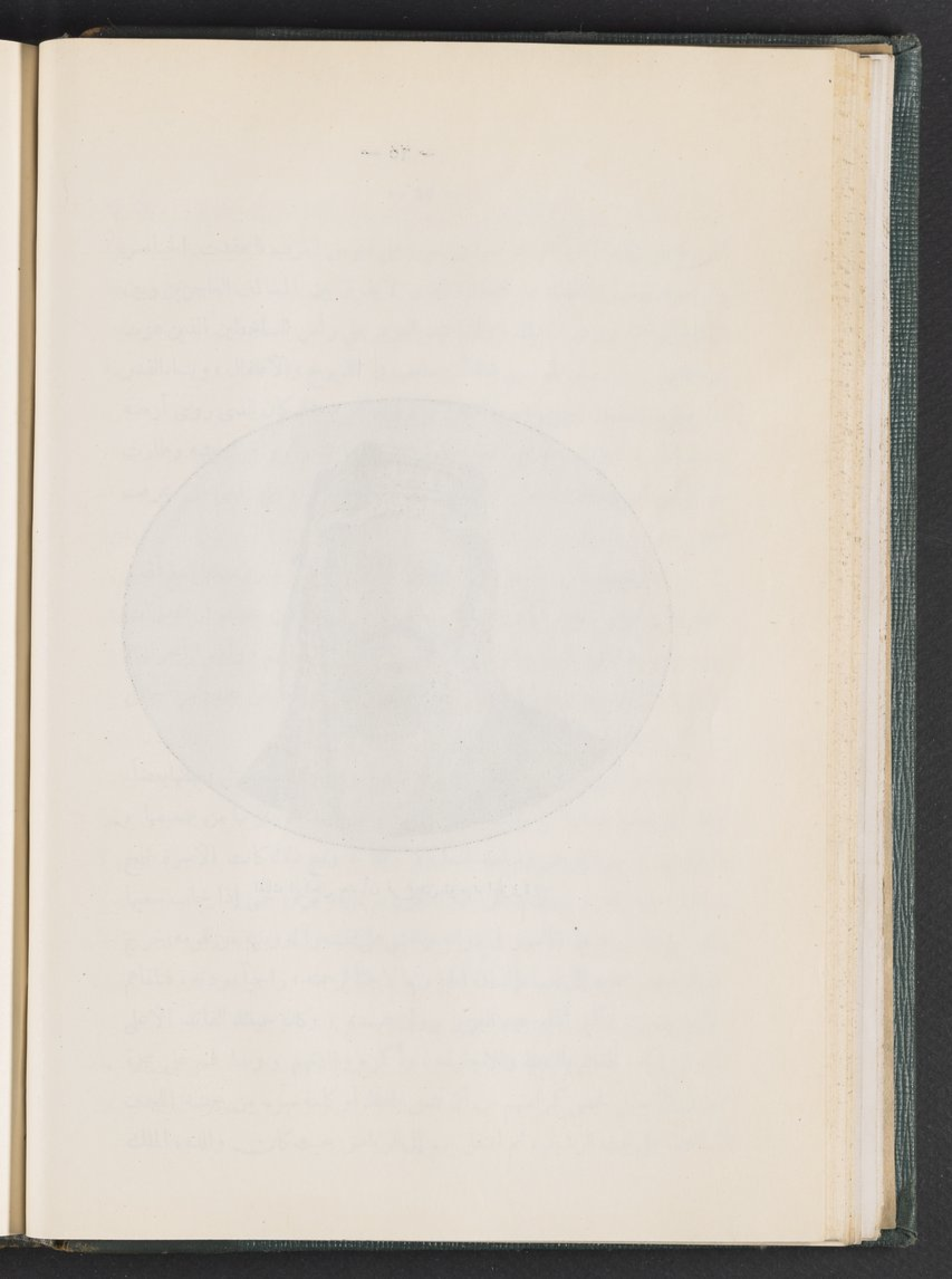
العربية عن إنسان ، وكان لها صدى سيء على نفوس العرب فانعقدت الخناصر وتوحدت الجهود للقضاء على الطاغية الذى لا يفرق بين المسالمين العاجزين وبين المكافحين المحاربين فى الميدان ، وكان عبد العزيز على رأس الساخطين الذين هزت عواطفهم وحزت فى نفوسهم فعلة ابن متعب فى الشيوخ والأطفال ، ويشاء القدر أن يلتقى « إنسان الجزيرة » بطاغية الجزيرة فى نفس المكان الذى روى أرضه بدماء الأبرياء دون رحمة أو شفقة ، فحمل عليه حملة شعواء وأفنى جيشه وطارت فيها رأس ابن متعب ، فتنفس العرب تنفس الشهداء للقضاء على أقسى من عرفت الجزيرة فى حرب أو سلام

ثم أنظر سياسة ابن السعود ، لا مع ثائر صغير أو خصم طارىء ، بل مع أقسى خصومه وأعدى أعداء آبائه وأجداده ، مع آل الرشيد الذين عصفوا بمقدرات بيت سعود ، وقتلوا منهم ، وشردوا خيرتهم ، وعبثوا بكراماتهم ، وأذلوا أحرارهم وأرقوا على عبد العزيز حياته ، واستنفدوا بالكفاح معه خير من عنده من جيش وأكثر ما عنده من مال .

بعد مقتل ابن متعب توزعت أسرة الرشيد أحزاباً وشيعاً ، يقتل بعضها بعضاً ، ويحارب بعضها بعضاً ، ويكيد صغيرها لكبيرها ، ويسخر قويها من ضعيفها ، وأصبحت الإمارة فوضى ولم تعد غنماً ولا ربحاً ، ومع ذلك كانت الأسرة تلح فى محاربة عبد العزيز ، وكانت هزائمها تتكرر مرة بعد مرة ، حتى إذا خاب سعيها وعجز أميرها عن ضبط الأمور فى دولته ، وخشى على نفسه وآله وبنيه من قومه ، خرج خنمية وبعض صحابه إلى باب « إنسان الجزيرة » لاجئاً لرحمته ، راجياً مودته ، فتلقاهم الأمير سعود أكبر أبناء عبد العزيز وولى عهده ، وكان حينئذ القائد الأعلى لجيوش أبيه ، تلقاهم بالتجلة والاحترام ، وأكرم وفادتهم ، وبدا لهم على سجية العربى الأصيل فحمى كرامتهم من أن تمس بلفظ أو كلمة سوء من جيشه اللجب الساخط على بيت الرشيد ، ثم انتقل بهم إلى الرياض حيث كان والده الملك



الملك الراحل بعد أن فرغ من توحيد الجزيرة



الإنسان » فى انتظارهم،فنزلوا سهلاً وقابلوا أهلاً ، وراحت قصة لقائهم واستقبالهم فى البيد والحضر تحكى أخلاق ابن السعود الرضية وسياسته الحكيمة فى معالجة خصومه إن طلبوا الأمان أو جنحوا إلى السلام

وبالرغم من هذا فأن الكفاح بين آل الرشيد وآل سعود لم يهدأ قط ، وقد استعرت الحرب بينهما فى أكثر من مكان ، وتألبت كثير من القبائل على السعوديين نتيجة الدسائس التى حاكها الرشيديون هنا وهناك ، غير أن كفة ابن السعود كانت راجحة أبداً حيث بلغ خصومه من الضعف والهوان مبلغاً جعل نزالهم له موضع التندر والسخرية بين العرب جميعا

وأخيراً استولى ابن السعود على حائل عاصمة آل الرشيد وقضى على ملكهم الذى أرق الجزيرة العربيـــة لعدة أجيال ، وأشاع فيها الاضطراب ، وقلب أوضاعها السياسية أكثر من مرة ، وأطلق لعبث العربان العنان ، فكان النهب والسلب قاعدة الحياة على مفارق الطرق ومفاوز الصحراوات ، فلما حال ابن السعود فى بلاده بين العرب ونهب السابلة والاعتداء على القوافل ، شن الرشيديون عليه الحرب التى طال أمرها ، فذهب يغزوهم فى عقر دارهم ، وحاصر بلدتهم حصاراً قوياً حتى انقطعت عنها القوافل التى اعتادت أن تصل إليها من الكويت والعراق ، وأصبحت البلدة فى مجاعة ، وخشى عقلاؤها مغبة الحصار الذى قد يفتك بمواطنيهم فى حرب لا رجاء منها ولا أمل فيها ، وسلمت حائل وركعت أسرة الرشيد التى دوخت ابن السعود وغيره من الأمراء والحكام

لقد جاءت الساعة التى ينتقم فيها الأمير السعودى لآبائه وأجداده ، ويقتص من الظلمة العتاة الذين خانوا مواليهم،وقضوا على ملك سعود وهم عماله ومواليه ..
لقد جاءت الساعة ليسقيهم آل سعود الكأس التى سقوها لأسرته ظلماً وعدوانا...
لقد جاءت الساعة التى ينتقم فيها الأمير السعودى لنساء أسرته ورجالها الذين شردهم أبناء الرشيد بين السجون والصحارى.. فلينتقم ، وليقتل شيوخهم وأطفالهم ويسبى

بناتهم ونساءهم ، ويصادر أموالهم وأرزاقهم ، ويملأ بهم سجون حائل ونجد ويغذ بهم السير فيلقيهم فى بطن الربع الخالى كما فعلوا به وبأخوته وأبيه الشيخ الوقور !

لا والله ، فأن « إنسان الجزيرة » أكبر من الانتقام وأعظم من هذا الصغار ، وإنه ليداوى جرح خصومه بالطريقة التى يعالج بها داء أنصاره وحوارييه ، لقد سقطت حائل وأهلها جياع فليأت لهم بالحنطة والسمن والعسل وكل ما تشتهيه الأمعاء من طعام

لقد سقطت حائل وأهلها عرايا حرمهم الحصار الطويل الكساء ، فليأت لهم بما يستر أجسامهم ، وليرفلوا من اليوم إن شاءوا فى الدمقس والحرير !

لقد سقطت حائل وليس فى خزانتها فلس واحد ، فليملأ هذه الخزانة بمال آل سعود ومال أهل نجد الشم الكرام ! وليعلن ابن السعود فى شوارع حائل وأزقتها الأمان الأمان لمن والاه ، ومن ذا لا يوالى هذا الأمير السمح الكريم ؟ « لقد كنا ليلة الحصار الأخيرة على آخر رمق نرى شبح المجاعة والموت فأمسينا ليلة التسليم الأولى وكلنا شبعانون مكسيون ، مطمئنون »(١)

إذن فالسمع والطاعة لهذا الأمير الذى آمنهم من خوف وأطعمهم من جوع وكساهم من عرى ، إنهم يسمعون ويطيعون ، ويرجون منه أن يولى عليهم واحداً من بيته أو واحداً من رجاله ، غير أن « إنسان الجزيرة » أعرف بطبائع البشر وخلائق الإنسان ، فما يجوز ودماء الشـــهداء من الطرفين لا تزال حارة ساخنة أن يولى عليهم واحداً من بيته أو رجاله ، فليكن حاكمهم منهم ، وليكن حاكما أميناً عادلا مخلصاً ، يجب أن يكون واليكم « . . . واحداً منكم ، ولست من رأيكم فقد كنا وإياكم أعداء مدة طويلة فلا يجوز أن نحكمكم الآن ... » (٢)

أيقف « إنسان الجزيرة » عند هذا المدى من رقة الشمائل ودقة الأحاسيس؟

---

١ — الريحاني . ملوك العرب (الطبعة الثانية) ج ٣ ص ٢٥٥ (من أقوال رشيدى)
٢ — نفس المصدر ونفس الصفحة (من كلمات الملك لآل الرشيد)

لاوالله ، فأنه إنسان كريم يضع كل امرئ فى مكانه ، فأن آل الرشيد عنده أكبر من أن يهانوا ، لقد كانوا صناديد حرب ، وسادة قوم ، ولهم فى تاريخ الجزيرة تاريخ ! ولا يليق بسيد أن يذل سيداً . . .

حقاً إنهم حاربوه وقاتلوه ، وبايعوه على السمع والطاعة المرة بعد المرة وخانوه بعد كل بيعة يشهد عليها الناس ويسمع بها كل إنسان ، وبالرغم من ذلك فقد رأى الأمير السياسى المحنك أن يقرب إليه أعداء الأمس ، ويضعهم من نفسه موضع الولد ، وينزلوا بيته ، ويقاسموه طعامه

وكم مرة خانوه مع جوده وكرمه وهو يمد لهم فى عطفه ، ويأبى أن يقيم عليهم حد الخائن ، ويجازيهم بما يستحقون ؟ وكان إذا ضاق بخياناتهم لم يعلق لهم المشانق أو يأمر بأطاحة رقابهم ، بل دعاهم فى جمع من أهل العلم والرأى وقال « إعلموا ياأهل الرشيد أنكم عندى مثل أولادى ، وأنتم فى الرياض تعيشون كما أعيش أنا وأولادى ، لا أزين ولا أشين ، ثيابكم مثل ثيابنا ، وأكلكم مثل أكلنا ، وخيلكم مثل خيلنا وأزين ... وليس فى القصر أو فى البلاد تحت يدى ما تبغونه ولا يجيئكم ... وهل عندكم من يشك فى ذلك » ؟

إنه يعاتب أعداءه ولا يحاكمهم ، إنه يحرجهم بأدب ورقة ولا يفسد قلوبهم بغلظة أو جفوة ، إنه يجمعهم فى علية القـــوم لينصح ويزجر أمراءهم الذين لا يفتأون يثيرون القلاقل والمتاعب من غير مبرر مفهوم ، وخاصة محمداً الذى أعطى أذنيه للنساء ! . . . » والله بالله إن الضرر الذى يصيبكم ياأهل الرشيد يحرك قلبى قبل لسانى إلى مساعدتكم . أنت يامحمد واحد من بيتى الآن . وكل ماعندى للدفاع عن بيتى — عن العيال والحريم — أقدمه إذا اقتضى الأمر فى الدفاع عنك . فى الدفاع عنكم كلكم ياأهل الرشيد » (١)

---

١ — الريحاني (الطبعة الثانية) — جـ ٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥

وهذا كلام لا يوجه إلى صديق أو زميل كافح مع عبدالعزيز ونافح عن رسالته ، بل يصدر من السعودى العظيم إلى قوم استنفدوا جزءاً كبيراً من جهده أثناء الحرب وشغلوا قلبه الطيب إبان السلم فأرادوا أن يشغلوه وهو ينظم دولته ، ويلفتوه عن واجباته العامة بمؤآمراتهم ودسائسهم ، وكان فى مقدوره أن يفرغ منهم جملة ويقضى عليهم فى لحظات ؛ غير أنه ود أن يكسب حتى القلوب النافرة والنفوس الثائرة فمضى على سجيته كريماً مواتياً على النحو الذى بسطناه من قبل

بهذا — لا بالسيف والمدفع — قضى ابن السعود على آل الرشيد فيما بعد ، فلو اتبع سياسة الهوى معهم ، وعالج أمورهم بالعنف والقوة ، لخلق له القدر واحداً يصنع فيه ما صنعه هو فيهم ، فأن الحسنى أحد من السيف فى معالجة الخصوم والأعداء ، وحسناً فعل « إنسان الجزيرة » فى خصومه وأعدائه ، وإنه لجميل منه أن يبنى بواحدة من أسرتهم فيوثق بعد اللسان الحلو والبيان الرقيق علائق الود والحب بزواج شرعى يجمع الخصيمين . فإذا هما بفضل ربك أليفان ، لا ينفرط لهما عقد ، وقد انعقدت الأواصر بالدم الحلال . .

العيش والملح

أبي أن يرد لمبـــارك طلباً ، فما
يليق به أن يقعد عمن استجار به يوما فأجاره
ودعاه فلبى نداءه ، وإنه لمن شرف النفس
وواجب النخوه والمــروءة أن يسقط من
حسابه أزمة المال والرجال ويقوم إلى عون
«والده» وصديقه ويحارب أعداءه بكل سلاح

لقد أفاد ابن السعود من أستاذه مبارك ، وعرف كيف يعالج أموره بالحنكة والسياسة ، ويبدع فى طرائق النظر للأشياء ، ويأخذ حياته أخذ العارف اللبق القدير ، ولم ينجح التلميذ النبيه فى الأخذ عن أستاذه فحسب ، بل فاق هذا الأستاذ وتجاوز قدره ، وكان سباقاً عليه فى كل رأى وفكرة ، فحجب نشاطه وبأسه وسطوته اسم أستاذه عن البيان والظهور ، ولم يكن ابن السعود متعمداً فى هذا ، بل كان مرجع ذلك إلى القدر الذى رفعه فوق هامات الولاة والملوك فى الجزيرة الأمر الذى أحفظهم عليه ، وشغل مباركاً بالذات ، فقد شب تلميذه عن الطوق ، وتجاوز الحدود وحطم القيود ، وعلا ذكره فى الشرق والغرب .

لم يرض مبارك عن هذا النصر المؤزر يلقاه (ولده) فى جميع الخطى دون أن يرجع إليه أو يستشيره كما عوده من قبل ولم يفطن عبد العزيز إلى ضيق (والده) بذلك ، بل لم يذكر قط إلا أفضال مبارك عليه وعلى أسرته ، ألم يأوهم وقت الشدة ؟ ألم يغنهم على المكروه ؟ ألم يمده بالمال والسلاح حتى بلغ أول النصر ؟ ألم يأخذ عنه فنون السياسة ودروس الكياسة ؟ فكيف يخشى سوءاً من الأمير وهذه أفضال «الوالد» الرفيق؟ لقد كان يحارب إلى جانب مبارك ومن أجل مبارك ، وينصره بكل ما لديه من قوة ، فما ينبغى أن يرفض لهذا الوالد مطلباً أو يقف دون تلبية ندائه مهما تكن الظروف والأحوال .

وقد دعاه يوماً إلى قتال قوم ليست بينهم وبين ابن السعود خصومة ولا مشاحنة ، وكان (ولده) فى ذلك الوقت يشقى بحرب مريرة بينه وبين

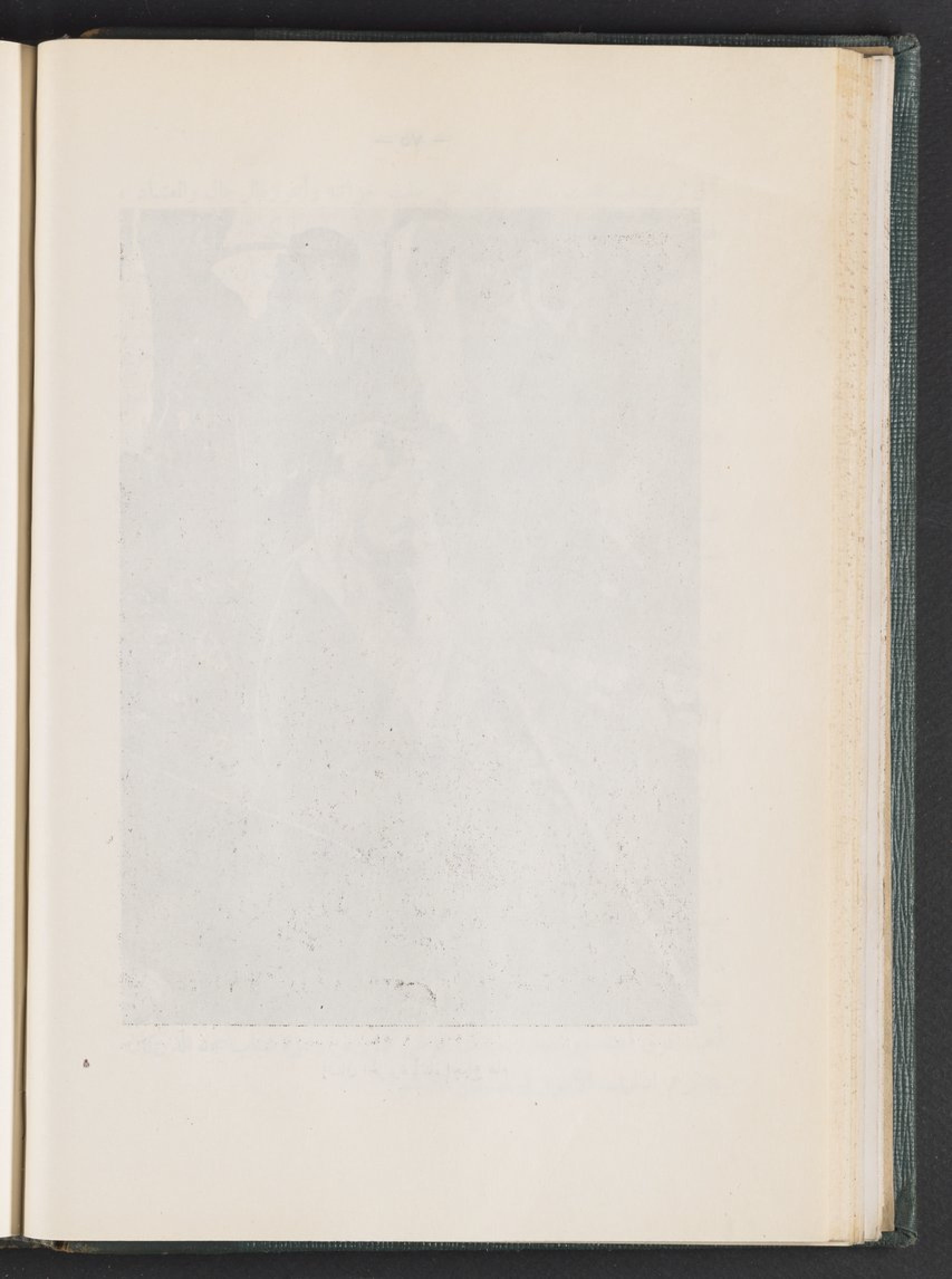
آل الرشيد استنفدت ماله ورجاله حتى خلت خزائنه وأعوزه الرجال والعتاد ، فضلا عن أنه جوبه بثورات فى كل مكان من أرجاء ملكه العريض ، وكان الوقت صيفاً والقيظ قاتلا ، وأشار عليه أهل الرأى فى نجد أن يرفض الرجاء أو يعتذر عنه ، غير أنه أبى أن يرد لمبارك طلبا ، فما يليق به أن يقعد عمن استجار به يوماً فأجاره ، ودعاه فلبى دعاءه ، وإنه لمن شرف النفس وواجب النخوة والمروءة أن يسقط من حسابه أزمة المال والرجال ويقوم إلى عون والده وصديقه ، ويحارب أعداءه بكل سلاح !

وخف ابن السعود إلى الصحراء فى حمارة القيظ لحرب قبائل غليظة القلب شديدة المراس ، ومضى فى قلب الصحراء يذرعها طولا وعرضاً ، وبدا فى لحظة أنه سيقضى على خصوم صديقه الأثير إلى قلبه ، غير أن سياسة مبارك فى تلك الحرب التى فرضها على ابن السعود كادت أن تقضى على سلطانه وتطوح بعرشه ، وتخفض هذا العلم الخفاق الذى بكر فى النضج والاستواء ، فقد جاء بالأمير العظيم إلى جهنم الصحراء ينازل مردة الصحراء فانتصر عليهم ، وكاد « التلميذ » أن يبلغ إربه غير أن « أستاذه » رب السياسة فى جزيرة العرب أملت عليه مصالحه أن يخرج من الحرب فجأة ويترك عبد العزيز يصطليها وحده ! . . .

لقد كان فى وسع الأمير عبد العزيز آل سعود حين انكشف له الخطاء ، وبانت له سياسة أمير الكويت أن يلتمس التوتر السائد بين الطرفين فرصة فيغزو بلاد « والده » غير أنه استحى أن يفعل ذلك مع (الوالد) الذى أكرمه وأعانه على أول النصر وبلوغ الأمل العريض ، ورد إليه كرامته ، وحفظ بيته يوماً من الأيام ، فعاد أدراجه إلى الرياض بعد أن أضاف إلى اقتصادياته أعباء فوق أعباء ، وسقط فى ميدان الوغى كثير من زهرة شباب نجد الذين كان يدخرهم لمدلهمات الأمور فى مستقبل الأيام



إنسان الجزيرة أثناء اجتماع هام



لم يكره عبد العزيز من مبارك هذا النهج ،فهو إنسان يعرف نواحى الضعف فى الإنسان ، ويقدر أن الغيرة من مجده هى وحدها التى دفعت الشيخ إلى هذه السياسة ، وقد اختلف معه مبارك مرة بعد مرة ، وهو لا يجرؤ — أدباً منه ووفاء لعهد قديم — أن يعقب على هذه الخلافات بكلمة عتاب ، وإنما عالج الأمر فأخذ بالحذر منه دون أن يسىء إليه فى إشارة أو عبارة

ويذكر ابن السعود فيما يذكر ، أنه أصبح يوماً فإذا الأتراك والإنجليز يتنافسون على وده ، وإذا الأتراك يسبقون بوفد لهذه الغاية فيلقاهم ويلقى معهم رسول (والده) مبارك ، وينتحى الرسول الكويتى بالأمير يحمل إليه رسالة سيده وفيها التحذير كل التحذير من الأتراك وخبثهم والإنجليز ومكرهم ، فيرفع عبد العزيز صوته فى محضر الوفد التركى بأنه لن يوقع معهم اتفاقا فهم « كذابون خداعون » فإذا انصرف رسول مبارك سعيداً مطمئن البال ، اجتمع عبد العزيز بالوفد التركى فى المساء ووقع معه الاتفاق ! !

وكشف مبارك الأمر وعلم بالاتفاق ، فعز عليه ألا يصغى ولده إلى نصحه، وأن يلقاه فى الصباح بوجه ، ويلقاه فى المساء بوجه آخر ، وما اعتاد فى ابن السعود وجهين ولا رأيين ، فكتب إليه معاتباً ، ورد الأمير اللبق على والده يعتذر بأن رسالته إليه أحرجته إحراجاً لا مزيد عليه ، وأنه حذره فيها من الأتراك والإنجليز دون أن ينصح له عن حل يتقى به الأتراك والإنجليز ! فقد كانت ظروفه السياسية تقتضى منه إما أن يذهب مع الأتراك أو يركن إلى الإنجليز « . . . إنى ابنك . . . ولكن كيف أستطيع أن أرضى والدى وهو يأمرنى بألا أتفق مع الإنجليز وألا أتفق مع الأتراك ؟ . . . » ورد مبارك قائلا « ياولدى : لا تصدق أكاذيب اللعين طالب وأؤكد ياولدى أنى أريد أن أتظاهر أمام الأتراك بالبعد عنك والجفاء لأدرك تلك الغاية التى أنشدها » !

وما ضر عبد العزيز لو أشعر مباركاً بأنه مصدقه ؟

فليختم هذه القصة ليريح قلب الوالد الطيب بهذه الكلمات « الحمد لله أن الأمور كانت على مايرام فليهنأ الوالد بعز ولده والسلام » (١) ؟ !

وللصبر حدود ، وما أكثر ماصبر بن السعود على مبارك وسياسته ! فأن والده عاد وألح أن ينجده فى حرب عنيفة شنها عليه خصوم أشداء ، وحاول ابن السعود فى هذه المرة أن يعتذر ، ورجا أن يعفيه (والده) من هذا البلاء ، غير أن مباركاً استنفره إلى نجدته، وألح عليه مذكراً إياه بما بينهما من صلات ووشائج ، وأكد له الخطر الداهم على ملكه وصيته ، والحرب الدائرة التى لاطاقة له بها وحده ، وأنه من ناحيته قد أعد لها كل مايملك من مال وولد ورجال ، وأنه يستنجد بولده وصديقه عبد العزيز ويسعى إليه ويطرق بابه ليجيره ويرد عنه عادية الزمان .

ورق قلب « إنسان الجزيرة » للدعوة الناعمة التى جاءته من مبارك ، وقرر رغم معارضة العقلاء من حوارييه ومستشاريه ، أن يهب لمساعدة الصديق الذى أعانه فى أول النصر

وبينما هو يحارب وإلى جانبه ولدا مبارك ، انضم أحدهما إلى صفوف الأعداء ومضى يحارب عبد العزيز فى عنف وشدة ، وأخذت أميرنا الدهشة أن يخون الإبن والده وحليف والده ، غير أن دهشته تحولت إلى سخط وضيق لم يؤثرا عنه فى عمره الطويل ، فقد وقع فى يده كتاب من مبارك لإبنه يقول فيه « أرسلتك مراقباً لا مقاتلا . . . إذا غلبهم ابن سعود فنحن معهم ياولدى ، وإذا هم غلبوه فلا تردهم عنه ولا تساعدهم عليه » ! ! . .

ولا أستغرب أنه يقع هذا فى حروب الصحراء إذ ذاك ، فأن مباركاً وغيره من أمراء الجزيرة لايسوسون أمورهم بوحى من ضمائرهم، فقد كانوا يقعون تحت

---

١ — احمد عبد الغفور عطار ج ١ ص ٢٢٢ طبعة ١٩٤٦

تأثير الدسائس الأجنبية التي كان من صالحها ألا تهدأ بلاد العرب عن القتال والنزال ، أو يتفق فيها أميران على أمر من الأمور ، فقد كان فى ذلك خطر شديد على الاستعمار الذى أنشب أظفاره فى كل أرجاء البلاد بشتى الطرق والأساليب .

ولا شك عندى — لو صح ماجاء فى هذا الكتاب — أن الأمير مباركاً وهو السياسى الداهية والفطن اللبيب ، وخير من أنجبتهم بلاد العرب فى فن المداورة والمناورة ،لم يركب هذا المركب إلا بضغط من المستعمرين الذين أفزعوه من تقدم ابن السعود ورفعة شأنه وعلو قدره .

وقصارى القول ، إن هذا الموقف الأخير بين الصديقين ترك أسوأ الأثر فى نفوس جند السعوديين وأمراء جيشهم ، وأثار حفيظتهم ، فانعقد إجماعهم على أن يمضى بهم سلطانهم إلى الكويت ، ويثيروها حرباً تقضى على مابين البلدين والأميرين من مودة وصفاء .

وبينما عبد العزيز يحاول معالجة الجند الثائرين بالحسنى ويترضاهم بالكلمة الحلوة ويذكرهم « بالعيش والملح » الذى ربط بينه وبين مبارك ، إذا بخبر يجيئه . فيحمد الله عليه ، خبر وفاة مبارك الصباح أمير الكويت وصديق المنفى و ستاذه فى فنون السياسة والكياسة !

لم يحمد الله تشفيا فى موته ، فكل أمرىء مآله إلى التراب ، لم يحمد الله لأن وفاة مبارك ستترك فراغاً كبيراً فيستطيع عبدالعزيز أن يملأ بالغزو هذاالفراغ . . .

لا ، فما لهذا حمد عبد العزيز ربه وشكره ، وإنما شكره وحمده لأنه كفاه مقاتلة صديق حبيب لن ينسى وده ولن يحجب على الأيام فضله، وإنه ليحزن عليه ويبعث بالرسل إلى الكويت معزيا ، بل يلتمس من فسحة الوقت فرجة فيذهب بنفسه إلى « سالم » يؤدى واجب العزاء ! . . .

يذهب الملك عبد العزيز آل سعود إلى « سالم » ليعزيه ، وسالم هذا كان سبب القطيعة بين « الوالد » الفقيد وبين « الإبن » آل سعود ، فقد انحاز سالم إلى

أعداء ابن السعود وإلى أعداء أبيه مبارك ، وخرج على الحليفين ، وانضم بقواته إلى خصمهما ، وكانت خيانة للأب وصديقه أو خيانة للصديق إن صحت الوثائق والأسانيد ، لا يكون جزاؤها إلا الحرب والعقاب الشديد ! بيْد أن عبد العزيز يرتفع إلى السماك فيأبى أن يلتمس من المصاب فرصة للثأر ، بل ينزل المصاب عليه ثقيلا فيخف إلى المشاركة والعزاء .

حقاً إنسان الجزيرة أنت عبد العزيز . .

بين الترك والإنجليز

ومضت السنون والأيام سراعاً ونجم
الأمير وطالعه في السماك. والإنجليز يشهدون
له ويشاهدون خطوه والدهشة تعقد ألسنتهم
والإعجاب به يسيطر على أفئدة ساستهم .

ما كاد عبد العزيز يستقر فى بلاده ، ويأمن شر الخصوم والأعداء ، حتى أقبل عليه البدو شاكين أهل الأحساء ، فقد أفسدهم الترك حتى أصبحت حياتهم الاجتماعية والدينية لغواً وخرافة ، ولم يعد للشريعة مكان بينهم ، بل كانت البدع تسيطر على أفكارهم ونزوات الشر تركب رءوسهم ، ومضى السطو على السابلة أو القافلة قاعدة الحياة ، وقتل الأبرياء مفخرة يتغنون بها ، وبلغ من اضطراب الأمن وانهيار الأخلاق أن السارق كان يبيع ماسرق علانية ، وقد يشتريه صاحبه مرة أخرى ولا يملك رده بحكم الفضيلة أو القانون !

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذ أهل الإحساء يغيرون على أطراف نجد ويتحدون الأمير الخطير فى عقر داره ، وذلك بتوجيه الأتراك لهم وتأثيرهم عليهم ، فقد كانت بين ابن السعود والعثمانيين إذ ذاك أزمة ثقة إن صح التعبير ، لعل مصدرها ماصنعه أولئك العثمانيون فى أجداده حين أسروهم وادعوا أنهم سينزلونهم منازل الإمارة فى القسطنطينية ثم قتلوهم تقتيلا غيلة وغدرا ، ولعل مصدرها هذه البدع التى جاء بها العثمانيون فى حكم الجزيرة ونزلوا بها من مقام الدين وهونوا من أمره فى حياة الجماعة العربية الإسلامية ، ولعل من أهم أسباب الخصومة فى ذلك الوقت ، ضيق الحكومة العثمانية بأمير نجد الذى أبى أن يعترف لهم بسلطان ، وتعاليهم عليه إذا تبودلت بينه وبينهم الرسائل والسفارات

ولم يفكر عبد العزيز فى مهاجمة قبائل العجمان حتى لا يثيرها حرباً ضروساً فقد كانت لهم بالأحساء مصالح ، بل أعلن أنه يقصد العثمانيين وحدهم ، ثم أعد لهم ستمائة فارس أنقضوا عليهم مستظلين بعسف النخيل وأوراق الأشجار ، متحركين تحت ظلالها حتى فوجئ الحراس بهم ، ففر الجند الترك إلى حصن

مدينة (الكوت) يحتمون به من هذا الهجوم الخاطف ، وبدأ الحصار شديداً عليهم ، وقبض رجاله أثناء الحصار على ضابط تركى عجوز كان قد ضل طريقه إلى الحصن وأنقذه ابن السعود من براثن جيشه وأكرمه وأحسن استقباله ثم بعث به وسيطاً لقومه فى الحصن لينبئهم برغبته فى حقن دماء المسلمين من ترك وعرب، وتسليم الحصن على أن يحتفظ كل جندى وضابط بسيفه وذخيرته ، وعلى أن يؤمن الأمير من فى الحصن على أموالهم وعيالهم ، ولبى المحاصرون عرض ابن السعود ، فكان عند كلمته ، وأخلى سبيلهم مع أموالهم ونسائهم وأولادهم ومعداتهم وأمتعتهم ، وودعهم معززين مكرمين حتى بلغوا البحر ليركبوه إلى بلادهم

يقف الأمير السعودى هذا الموقف الكريم رغم الرسائل النابية التى تلقاها من قبل من قائدهم العام ، ورغم التهديدات المتصلة بالقضاء عليه وثل عرشه ، ورغم ثقته بأنهم عائدون لامحالة إلى نقض العهد وبث المتاعب له حين تواتيهم الفرص ، بيد أنه لا يريد أن يثير حفيظتهم ، ومن حسن السبك أن يدارى خصومه وهو يعمل على بناء دولته الجديدة وليس له إلى ذلك الوقت نصير من عربى أو أجنبى يركن إليه وقت الشدة إذا أصر على التخلص من العثمانيين، فضلا عن أنهم — بالرغم مما صنعوه معه — أصحاب السلطان الشرعى فى معظم أنحاء الجزيرة ، أليسوا سادة الحرمين وولاتهم من الأشراف فى الحجاز ؟

لقد بذل بن السعود غاية الجهد ليحافظ على العلاقات الحسنة بينه وبين جيرانه فصالح شريف مكة وتقرب إليه بالمال والهدايا ، وهادن قبائل العجمان وغير قبائل العجمان من الجيران ، ليوطد أركان ملكه ويقيم حكومة قوية الدعائم راسخة البنيان ، وعالج فكرة الجيش النظامى ، وهو أهم حاجات الدولة الحديثة ، وجيشه بدو وعربان وليس فى مقدوره أن يشهر السيف ، ومعظم جيشه موزع لا يستقر على حال ، فبنى القرى ليزرع البدو ويفلحوا ويسكنوا ويصبح لهم وطن يذودون عنه بالمهج والأرواح ، وبذلك يجدهم حين تنزل به الملمات ، ويطمئن إلى

جهادهم حين يدعوهم إلى الجهاد ، فوراءهم بيت وأسرة وأرض تنتج خير الثمرات ؛ وهكذا ساس أموره بقدر المستطاع وسط العواصف والأنواء .

ورأى بثاقب فكره أن يحتاط للسياسة الإنجليزية ، فهى إلى ذلك العهد كانت تلعب الدور الرئيسى فى بلاد العرب ، وهو حريص أشد الحرص على أن يعالج أموره معها بدقة وحذر ، وقد حاول منذ أكد سلطانه فى الرياض سنة ١٩٠٤ أن يتفق مع الإنجليز أو يضمن حيادهم على الأقل إذا اضطره الأمر إلى مهاجمة ابن الرشيد أو غيره من الولاة والأمراء ، وهم يشيحون بوجوههم ، فقد كان ابن السعود حينذاك حديث عهد بالملك والسلطان ، وهم لا يقامرون على جواد لم يشهدوا له فى الحلبة أكثر من سباق ! ولا يريدون أن يعطوا كلمة له أو يوقعوا وثيقة معه لئلا يخسروا صداقتهم مع الأتراك ، « وطويل العمر » يخاصم الترك ويأبى أن يجعل لهم سلطاناً فى الرياض .

وحاول الأمير السعودى أن يثبت لهم كعربى أصيل فوزه فى أكثر من سباق ، فكانت له وقائع سار بذكرها الركبان ، وبين فيها أنه محارب وقوة يحسب لها ألف حساب ، واستطاع حقا أن يلفت نظر الإنجليز وهو يخرج من نصر إلى نصر ، بالسيف حيناً وبالسياسة فى أكثر الأحيان ، حتى اختلفوا فيما بينهم ، فنصح ممثلهم فى الكويت بكسب هذه القوة الجديدة فى حياة العرب والمسلمين ، وألح فى ذلك كما تحكى الوثائق والأسانيد ، بينما وقفت حكومة الهند دون تلك النصيحـــة وأشارت على دوانبج ستريت بالتريث والأناة ، فأن ابن السعود عندها مغامر مجازف لاتنتهى له أطماع ، ويحسن ألا ينال تأييد الامبراطورية بحال ، فما تمنح تأييدها إلا لمن كان جديراً بثقتها أو كان كفيلا بفرض هذا التأييد عن طريق السيف أو عن طريق عرش موطد الأركان .

ومضت السنون والأيام سراعاً ونجم الأمير وطالعه فى السماك ، والإنجليز يشهدون له ويشاهدون خطوه والدهشة تعقد ألسنتهم والإعجاب يسيطر على أفئدة

ساستهم ، فجاءوه من كل صوب ، يترضونه ويتقربون إليه ثم يعقدون معه فى مطالع الحرب العالمية الأولى معاهدة مهما يكن أمرها فيكفى أنها وقعت مع « أمير نجد والإحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافىء التابعة لهذه المقاطعات » ومعنى ذلك أن « إنسان الجزيرة » لم يعد فى نظر الإنجليز شاباً مغامرا يحكم الرياض وحدها بل أصبح أميراً خطيراً تعقد معه المعاهدات ويقف فى الصف إن لم يكن فى أوله مع سائر الأمراء من حكام الجزيرة العربية واسعة الأرجاء .

تلك كانت سياسته التى انتهجها وكان وراءها من غير شك خبىء وأى خبىء ! سياسة التأمين والترطيب للجيران وأصحاب الحظوة من الأجانب فى بلاد الأعراب ، هى من غير شك سياسة مرسومة اختطها « طويل العمر » لتأمين دولته أولا ، وثانياً لتحقيق مشروع كبير يهدف إلى توحيد البلاد العربية فى وحدة سياسية أو اقتصادية إن عاجلاً أو آجلا .

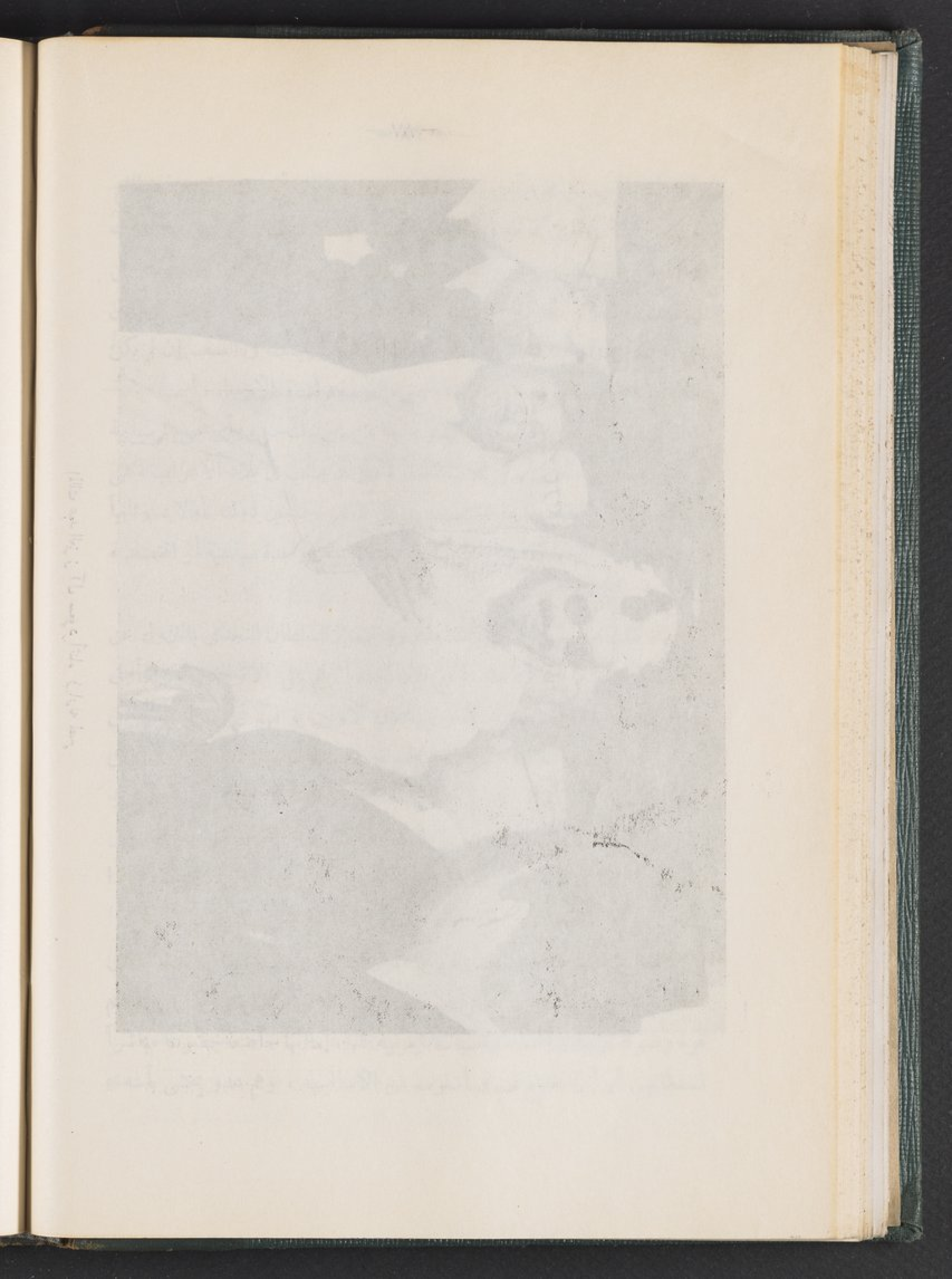
وقد نقد المعاصرون « تلك المعاهدة » واتهموا السلطان النجدى بالنزول عن سلطانه ، ثم عابوا عليه أنه عقدها مع الإنجليز وآثرهم على الأتراك ، وكان أولى به أن يلقى بنفسه فى أحضان الأخيرين دون الأولين ، فهم فى أسوأ الفروض مسلمون ، وأصحاب السلطة الشرعية بما لهم من حقوق الخلافة التى يجب أن يدين بها كل مسلم فى الأرض .

والصحيح أن السلطان النجدى لم ينزل خردلة عن سلطانه للإنجليز أو غير الأنجليز ، أما أنه آثر الانجليز دون الأتراك فالظروف وحدها هى التى فرضت هذا الوضع على عبد العزيز .

الإنجليز أصدقاء الكويت ولهم فى البحرين حق الحماية والتوجيه فضلاً عن مكانتهم الملحوظة فى سائر أرجاء الجنوب ولهم صداقة وصلة بأشراف مكة ، ولهم قوة وصولة قريبة فى الهند ، والسياسة العربية كلها ، إما أنها خاضعة خضوعاً مباشراً لسلطانهم ، أو أنها تخضع لهم فى أسلوب من الأساليب ، وهم عدو يخشى بأسه ،



الملك عبد العزيز آل سعود أثناء زيارته لمصر



وصديق كل مايرجى من صداقته وقفة الحياد إذا تأزمت الأمور، وحيادهم نعمة في ضمير من رسم لنفسه سياسة بعيدة الأهداف، وفكر في المستقبل البعيد.

أما الأتراك فكارهون لرسالة عبد العزيز، ورسالة عبد العزيز لها جانب ديني ساخط أعنف السخط على شعوذة الأتراك وتجارتهم بالدين، لذلك كان التحدي منهم ملحوظاً له في كل مناسبة من المناسبات. وكانت معاملتهم له لا تحمل أي معنى من معاني الاحترام والتقدير، فضلاً عن أنهم الأصدقاء الحميمون لعدوه اللدود بيت آل الرشيد، وهو البيت الذي له في مآسي السعوديين أوفى نصيب.

لم يكن لعبد العزيز أن يختار، فقد كان مرجع الخيار بين العدو والصديق لمقتضى الحال، ومقتضى الحال كما نرى يفرض عليه السعي إلى صداقة الإنجليز دون الأتراك، وقد أثبتت الأيام صدق حدسه وبعد نظره، إذ خانه الترك أكثر من مرة، وفشلت سياستهم في سياسة الجزيرة العربية كل الفشل، وانتهت أيامهم فيها بالعجز الحربي الذي شهدته الحرب العظمى الأولى، وأصبحت الامبراطورية العثمانية في ضمير الماضي، وقامت إمبراطورية ابن السعود على أنقاضها في شبه الجزيرة

لقد فرضت حنكة السياسي الماهر أن يصادق الإنجليز وهو يعلم مايضمرونه له من شر، إستمع إليه وهو يحدث أمين الريحاني عن موقفهم منه عقب الحرب العظمى الأولى(١)...

« يظن الناس أننا نقبض من الإنكليز مبالغ كبيرة من المال، والحقيقة، أنهم لم يدفعوا لنا إلا اليسير مما تستحقه الأعمال التي قمنا بها أثناء الحرب وبعدها، ونحن لا نخالف معهم قبل أن يخلفوا معنا، بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا في أنفسنا ومصالحنا.. الإنكليز مديونون لنا، ترى الصحيح يا أستاذ، تراهم يغزلون ويغزلون. تراهم يدسون الدسائس عليّ، ونصبوا من أعدائي ملوكا، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية والسياسية... »

---

١ — أمين الريحاني — ملوك العرب ج ٢ ص ٥٦، ٥٧ طبعة ١٩٢٥ بيروت

وقد حافظ الملك من ناحيته على عهده للإنجليز بمقتضى المعاهدة التى عابوا عليه توقيعها فى تلك الظروف التى سيجىء ذكرها فى مكان آخر، غير أنه تمسك بحقه حين جد الجد وأبى أن يفرط فى شىء منه، وقد قال لأمين الريحانى معقباً على حديثه معه «لا نسلم بذرة من حقوقنا، ولا نقول فى أعدائنا ما يقولون فينا ولا نطلب غير ما كان لآبائنا وأجدادنا قبلنا. ليعلم ذلك أصحابنا الإنكليز.».

وقد نفذ الملك العظيم مبادئه الثلاثة، فلم يفرط فى حق له، ولم يخن عهداً قطعه، ولم يطلق لسانه قط بكلمة سوء فى خصم أو عدو..

الوحدة العربية

. . . قد فاتكم أن الراعى مسئول عن
رعيته ، وقد فاتكم أن صاحب السيادة لا يستقيم
أمره إلا بالعدل والإحسان ، وقد فاتكم
أن العرب لا ينامون على الضيم ولا يبالون إذا
خسروا كل ما لديهم وسلمت كرامتهم

أغفل كتاب الفرنجة فكرة « طويل العمر » الملك عبد العزيز الخاصة بالوحدة العربية ، فظنوا أن هدفه كان توحيد ملكه بتحرير الحجاز وضمه إلى سائر الأمصار التى دانت لسلطانه . . . وذلك هو ماعنوه بالوحدة العربية !

وما كان أحد من المسلمين، والغربيين خاصة يعرف أن «إنسان الجزيرة» لم يفكر هذا التفكير المادى فى معنى الوحدة العربية، فهو لم ينشط قط لخصومة ،ولم يخلق قط مع جيرانه حالة من التوتر والكفاح،وذلك منذ كان أميراً على نجدوما كان يتطلع إلى أن يلقى القدر عليه توحيدالجزيرة العربية،وكان كل مايعنيه — منذ حرر الرياض — أن يحفظ لبلاده استقلالها ومنعتها، ويتمنى أن يعيش وجيرانه فى أمن ودعة .

فلما اعتدى عليه الأمراء المحيطون به ، وتعذر التفاهم معهم قضى على شوكتهم وامتدت رايته شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً وانتهى الأمر بتوحيد معظم أرجاء الجزيرة العربية على هذا النحو الذى يعرفه العالم عن تلك البلاد .

وقيل حينئذ إن بلاد العرب قدعادت إلى سابق مجدها أيام محمد عليه السلام وأيام خلفائه الراشدين ، أمة موحدة ، متفقة فى شئون الدين والدنيا ، وهذا وحده حدث فى التاريخ العربى قليل النظير ونادر الحدوث ، ولكنه ليس الوحدة العربية كما كان يرجوها ابن السعود

وقد فطن ابن السعود إلى الوحدة العربية قبل أن يفكر فيها أى عربى ، إذ أعلن رأيه فيها وأمله فى تحقيقها حين سأله والى البصرة التركى عن الوسيلة ، التى يعالج بها ماعليه ولاة العرب من الشقاق وخروج بعضهم على الدولة العثمانية، وكان ذلك منذ نحو خمس وأربعين سنة .

فماذا كان جواب الأمير الجليل على صاحبه السؤال ؟ كان جواباً جامعاً مانعاً

بسط فيه رأيه فى سياسة العثمانيين فى صراحة لاحدود لها ، ورسم أول الخطو فى سبيل الوحدة العربية ، فقال عن فساد الحكم العثمانى وسوء التدبير فى سياسة العرب « إنكم لم تحسنوا إلى العرب ، ولا عاملتموهم فى الأقل بالعدل . . . إنكم المسئولون عما فى العرب من شقاق ، فقد اكتفيتم بأن تحكموا وما تمكنتم حتى من ذلك . قد فاتكم أن الراعى مسؤول عن رعيته ، وقد فاتكم أن صاحب السيادة لا يستقيم أمره إلا بالعدل والإحسان ، وقد فاتكم أن العرب لا ينامون على الضيم ولا يبالون إذا خسروا كل مالديهم وسلمت كرامتهم . أردتم أن تحكموا العرب فتقضوا إربكم منهم فلم تتوفقوا إلى شىء من هذا أو ذاك. لم تنفعوهم ولا نفعتم أنفسكم».

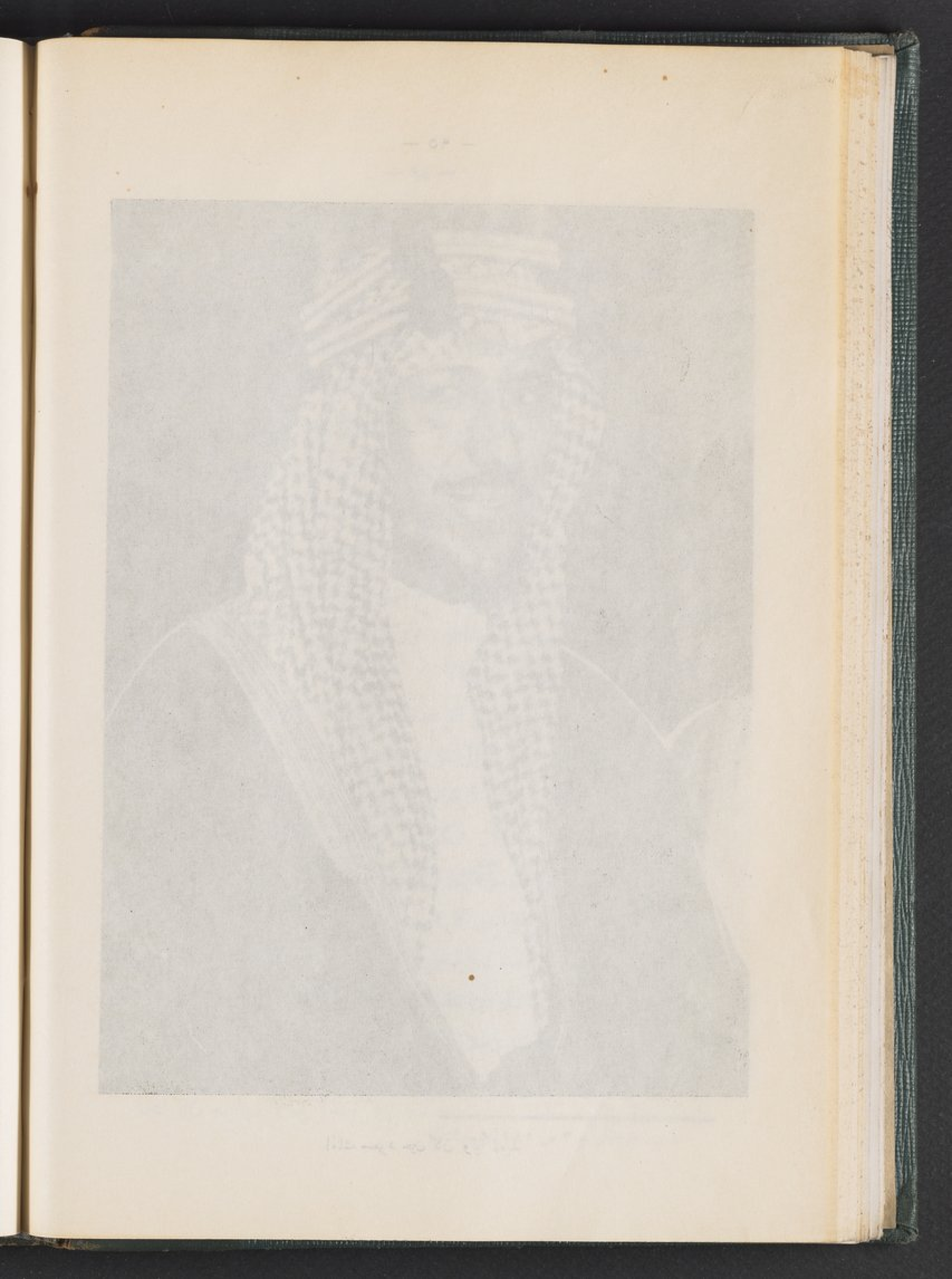
بهذه الصراحة خاطب عبد العزيز الوالى التركى دون مداراة أو مواراة ، وكشف له أن كرامة العرب لن تستباح مهما يستبد الحاكم بهم ، وأنهم لن يناموا على الضيم مهما يسرف فى اضطهادهم ، وفى ذلك تحذير للأتراك إذا فكروا يوماً فى الاعتداء على كرامته أو حرمته .

ثم يقول عن وسائل تحقيق الوحدة العربية « . . . إنى أرى أن تدعوا رؤساء العرب كلهم ، كبيرهم وصغيرهم إلى مؤتمر يعقد فى بلد لا سيادة ولا نفوذ فيه للحكومة العثمانية لتكون لهم حرية المذاكرة. والغرض من هذا المؤتمر التعارف والتآلف ، ثم تقرير أحد أمرين ، إما أن تكون البلاد العربية كتلة سياسية واحدة يرأسها حاكم واحد ، وإما أن تقسموها إلى ولايات ، فتحددون حدودها وتقيمون على رأس كل ولاية رجلا كفؤاً من كل الوجوه ، وتربطونها بعضها ببعض بما هو عام مشترك من المصالح والمؤسسات وينبغى أن تكون هذه الولايات مستقلة استقلالا إدارياً وتكونوا أنتم المشارفين عليها ، فإذا تم ذلك نعلى كل أمير عربى أو رئيس ولاية أن يتعهد بأن يعضد زملاءه ويكون وإياهم يداً واحدة على كل من تجاوز حدوده أو أخل بما هو متفق عليه بيننا وبينكم » (١).

١ — الريحاني ج ٣ ص ١٨٢ الطبعة الثانية



الملك سعود حين كان ولياً للعهد



ترى أيستطيع العرب اليوم وبعد خمسة وأربعين عاماً من هذا الرأى الصائب أن يحققوا الوحدة العربية فى إحدى الصورتين اللتين ذكرهما عبد العزيز ؟

لقد عرض فكرته والبلاد العربية جميعاً تخضع إما مباشرة أو بالواسطة لحكم القسطنطينية أو لحكم أجنبى دخيل كما كانت الحال فى جنوب الجزيرة وشمال إفريقية أو فى غير ذلك من الأمصار ، وحسب العرب اليوم أن بلادهم فى معظمها مستقل لا يقتحم عثمانى أو أجنبى مقدراتها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وهى فرصتهم التى عرضها ابن السعود ، وفى وسعهم اليوم تحقيقها لو شاءوا حقاً الوحدة وكانوا من الصادقين

ولقد عاش « إنسان الجزيرة » كل عمره يدعو إلى هذه الوحدة ، ويقول . . كيف استطاع الأمريكان أن يجعلوا من ثمان وأربعين أمة ، أمة واحدة ؟ أليس فى الولايات المتحدة ثمان وأربعون ولاية ؟ أليس فى تلك الولايات من عوامل الخلاف والفرقة كتباين الأصل وتنازع الأهداف أكثر مما فى بلاد العرب ؟ إذا كان هؤلاء قد استطاعوا بالرغم من الاختلاف بين ولاياتهم فى الذوق والمثل أن يقيموا من بينهم دولة واحدة ، وفيها ولاية مثل كاليفورنيا عدد سكانها قدر عدد سكان البلاد العربية جميعاً ، فأن من الغريب حقاً ألا يستطيع العرب تحقيق هذا بين بلادهم وعوامل الاتحاد عـــندنا أقوى ، فنحن جميعا عرب ولغتنا واحدة وديننا واحد وظروف الحياة تفرض علينا بأن تكون لنا أهداف واحدة ؟

وقد حاول عبد العزيز محاولة ثانية لوضع أساس تقوم عليه وحدة عربية بصورة ما ، إذ انتهز مناسبة وقـــوع الحرب العظمى الأولى ، فبعث إلى أمراء العرب ، الخصوم منهم والأصدقاء ، ناصحاً لهم بابتهال الفرصة ليوحدوا جهودهم جميعاً ويستردوا مكانة العرب التى كانت لهم فى صدر الإسلام حين انعقدت خناصرهم على رفعة البـــلاد العربية وإعلاء شأنها بين الأمم والشعوب ، وليتخلصوا من الاستعمار وذله ؛ ويرفعوا عن كواهلهم تدخل الأجنبى فى مقدراتهم السياسية

والاقتصادية ، وكتب فى ذلك للشريف حسين حاكم الحجاز وله جاه وعزوة فى بلاده ، وله نفوذ تجاوز حدوده إلى الشام والعراق ، ثم كتب لابن الرشيد والإمام يحى حاكم اليمن والشيخ مبارك حاكم الكويت ، ولم يفكر واحد من هؤلاء الأمراء حتى فى الرد عليه والإجابة على كتابه ولو بالرفض إلا ابن الرشيد فكان صريحاً وأعلن فى غير مداورة أنه قد حدد موقفه تجاه الحرب القائمة وأنه قد أخذ فيها جانب الأتراك .

وقد تبين عبد العزيز آل سعود من إهمال دعوته أنه يقف وسط العاصفة وحيداً لاسند له ولانصير ،وكان قد فكر كثيراً حيال الحرب المستعرة إذ ذاك ، وأخذ يقلب الأمر على كافة وجوهه توطئة لتحديد موقفه من التيارات المتباينة التى كانت تسيطر على جزيرة العرب وعلى سائر العالم المتحضر ، وكان لابد له من أن يدقق ويحقق فى الموقف من جميع نواحيه ، ويحسب لرجله قبل الخطو ألف حساب ، فأن الخطأ البسيط هنا لا يعنى حرباً صغيرة بينه وبين وال من ولاة العثمانيين فى الجزيرة العربية بل ربما يوقعه هذا الخطأ فى حرب مع الإنجليز أو أصدقائهم وهم أصحاب قوة وبأس فى كثير من نواحى البلاد .

لقد كان الإنجليز يسيطرون على الخليج الفارسى سيطرة تامة ولهم فيه شبكة من الجاسوسية وكثير من الأنصار وأصحاب المصالح،وكان الترك وعلاقته بهم فاترة أو شبه فاترة يحيطون به فى الشمال والغرب وأعوانهم منبثون فى القبائل وموزعون فى كل مكان ، ثم وجد أن الشريف حسيناً قد اتفق مع الإنجليز ، وحذا حذوه كثير من الأمراء وشيوخ القبائل ، بينما كان ابن الرشيد يمثل السياسة التركية ،ونال بذلك العون والتأييد من الأتراك ، مالا وفيراً وعتاداً كثيرا ، وتبين الرجل موقفه فأذا هو وحده لانصير له ولا معين ، وكل أمير من هؤلاء الأمراء يترقب الفرصة المناسبة لينقض عليه ، ومن يدرى؟فقد ينعقد إجماعهم على حربه إذا واتتهم الفرصة فيقع بذلك بين المطرقة والسندان ، فلم يجد بداً من توقيع اتفاق مع الحكومة

الإنجليزية مهما يكن الأمر فيه فقد كان بالنسبة إليه صمام الأمان ، لأن هذا الاتفاق حماه من العــدوان وأعطاه فرصة من الهدوء والاستقرار ، والذين يعيبون الاتفاق يسقطون من حسابهم الظروف التى أحاطت بصاحبه وفرضت عليه توقيعه حتى يمر بالأزمة التى بدت له فى مطالع الحرب العالميه الأولى ، وقد نسخ هذا الاتفاق حين فرغ من الحرب ، وفرغ من مشاكل الجزيرة ونشر علمه على أكثر ربوعها من الجنوب إلى أقصى الشمال ، وحقق جانباً من معانى الوحدة التى كان ينشدها .

ولم ييأس عبد العزيز من قيام الوحدة العربية فى صورة من الصور ، وقد تحدث فى هذا الشأن بعد الحرب العظمى الأولى إلى الكاتب الأديب أمين الريحانى (١) ولخص الريحانى هذا الحديث فى عدة بنود وعرض التلخيص على الملك فأقره عليه ، ومن هذه البنود ترى معى كيف حاول الملك تحقيق الفكرة غير طامع فى شىء إلا اتفاق الكلمة بين العرب على لون من الاتحاد والتضامن

قال الريحانى يشرح وجهة نظر الملك عبد العزيز . . .

١ — هو يبغى الوحدة العربية ويساعد من سعى بأخلاص فى تحقيقها . فيحضر اجتماعاً يعقد لهذه الغاية ، ويقبل الزعامة والبيعة ملكا على البلاد العربية كلها لاعتقاده أنه أهل لها ويستطيع تعزيزها

٢ — وإذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف أوحلف عربى بين أمراء العرب لتعزيز شؤونهم معنوياً وسياسياً ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة فهو ينضم إليه

٣ — وإذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها

---

١ — ملوك العرب ص ٩٥ ج ٢ طبعة بيروت ١٩٢٥

٤ — وفى كل حال هو رجل سلم فى بلاده لا يبغى الاعتداء على أحد ولكنه يأبى أن يعتدى أحد عليه

وإذن فابن السعود لم يقصر فى حق الوحدة العربية ، وإنما كان المقصرون من منافسيه وخصومه ، لأنهم لم يحاولوا قط أن يبحثوا فكرة الوحدة العربية ، أو حتى يسمعوا للأمير السعودى وهو يدعوهم إليها ، فكان لا بد له من أن ينتظر حتى تتحرر الجزيرة العربية نفسها من هذا الانقسام الشنيع الذى وزع كلمتها وجعلها فرقاً متناحرة ودويلات متنابذة .

ولولا الاستعمار الذى كان يسيطر سيطرة تامة على مقدرات معظم تلك الدويلات لكان توحيد الجزيرة قد تم منذ بعيد، ولكان شأن الوحدة العربية بين سائر أرجاء بلاد العرب غير هذا الشأن، فأن هذه الوحدة التى تترنح الآن بين العروة الوثقى والخيبة المتعثرة تعانى من الاستعمار نفس ماعانته الجزيرة العربية قبل تحقيق أهداف عبدالعزيز

وإذا كانت الوحدة الايطالية أو الوحدة الألمانية لم تتم إحداهما أو كلتاهما إلا بالسيف ، فأن أمر الوحدة العربية أيسر من أن يكلف العرب هذا اللون من الجهاد ، فهم أكثر نضجاً ووعياً من الألمان والإيطاليين الذين عرفهم القرن التاسع عشر ، والأمركة أمر الاستعمار والمستعمرين ، فقد قامت هذه الوحدة فى العصور الوسطى أيام صلاح الدين وقامت فى العصر الحديث أيام محمد على حين تحرر العرب من سلطان الأجنبى الدخيل والمستعمر الخبيث ، فأذا تمكن العرب من التحرر تمكنوا من تحقيق أمنيتهم بتوحيد بلادهم فى أى شكل من الأشكال ، وتحقيق فكرة الملك السعودى التى نادى بها منذ الحرب العظمى الأولى .

صراع الإمام

إني مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها بل
لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد
الله . إني مسافر إلى حرم الله لابسط أحكام
الشريعة وتأييدها ، فلن يكون بعد اليوم
سلطان إلا للشرع . . .

انتهت الحرب العظمى الأولى وعبد العزيز آل سعود مسيطر على نجد وسائر الإمارات التى ألحت فى خصامه نحو عشرين عاماً ، فانتصر عليها ووحد صفوفها تحت رايته الخفاقة من الجنوب حيث الربع الخالى ، إلى الشمال حيث الأشراف وعلى رأسهم الحسين ملك الحجاز واسع الأطماع .

وقصة ابن السعود والملك حسين هى أمتع ماعرفته الجزيرة العربية من قصص الخلاف بين الملوك والأمراء ، فقدكان التنافس بينهما قديماً ، ويرجع إلى ماقبل الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وفى هذا الخلاف كتبت الكتب ، ونشرت الروايات ، وازدحمت بالتفاصيل والحكايات مما لانعنيه فى بحثنا ولا نرى فيه فائدة لهذا الكتاب .

إنما يعنينا ونحن نؤرخ لإنسانية « عبدالعزيز آل سعود » فى الحرب والسلام ، ونحكى أساليبه فى معالجة الشئون السياسية أن نطرح فى إيجاز قضية العاهلين التى انتهت باحتلال الحجاز وضمه إلى سلطان عبد العزيز ، وتوحدت بذلك جزيرة العرب بطريقة لم توحد بها منذ فجر الإسلام ، وفى ذلك لعب ابن السعود بالقلوب والأفئدة ، واكتسب إعجاب العرب والمسلمين والأجانب على السواء .

ومن هذه القضية تبدو خلائق الرجل وسجاياه فى ذروتها ، فقدكان كريماً كرماً يشبه من قريب كرمه مع مبارك أمير الكويت ، وإن لم يكن للحسين عليه يد أومعروف .

وقد كان عبدالعزيز كريماً مع الحسين وكل من لاذ به من أنصار ، وفى مقدمتهم الإنجليز حماة الشريف إبان الحرب العالمية الأولى ، وقدكان فى وسع سلطان نجد أن يفسد على الحسين وأنصاره كل مارسموه من خطط خلال تلك الأزمة

العاملة لو أنه صالح ابن الرشيد أو انحاز إلى الأتراك ، غير أن « انسان الجزيرة » رجل شريف لا يريد أن يكون نهازاً للفرص ويأبى إلا أن يكون بانياً للوحدة العربية ، ولو قدم ذلك الأمر الحسين عليه ، وصوره للنـــاس زعيماً جديراً بالإكبار ...

وتبدو هذه الحقائق فى عدة مناسبات ، منها أن اجتماع الكويت الذى تم فى نوفمبر ١٩١٦ وحضره ابن السعود ، إنفض بعد أن أعلن سلطان نجد على رءوس الإشهاد « أن واجب كل عربى أن يساعد الشريف حسيناً ويتعاون معه فى محاربة الأتراك » ، ومعنى ذلك تحرير جزيرتهم حتى تصبح جزيرة العرب للعرب وحدهم وليس للأتراك فيها نصيب .

وقد كان ابن السعود مخلصاً فى نواياه ، ولم يؤيد سلطان الشريف بالكلمات فى المجالس والمؤتمرات ، بل أتبع القول بالفعل ، فصمد لابن الرشيد وشغله عن محاربة الحسين ، ولو لم يقف هذا الموقف لاستطاع ابن الرشيد حليف الأتراك محاربة حسين والقضاء على سلطانه فى الحجاز .

ثم إن « إنسان الجزيرة » لم يشغل ابن الرشيد فحسب بل إنه شجع أهل القصيم بالانخراط فى جيش الشريف ، ومعنى ذلك أن المبدأ وحده كان شغله الشاغل ، فلو انه غير مخلص لما دعا إلى تقوية جيش شريف مكة بأهل القصيم . وقد يكون ذلك على حساب قوته وما أحوجه هو إلى القوة وسط هذه التيارات !

وفضلا عن ذلك فأن كل الإمدادات التركية التى كانت ترسل إلى ابن الرشيد كان يصادرها الملك السعودى بالقوة ويحول بذلك دون وصولها إلى أصحابها حتى لا تستخدم ضد الإنجليز وصديقهم الشريف حسين .

ويذكر التاريخ أن الحسين خاصم الأتراك إبان الحرب العالمية الأولى واستطاع أن يكسب من وراء هذا الخصام ، ثم ظن أن فى مقدوره أن يعالج أخطر أمراء الجزيرة بالهدايا والمال ! فما أن تلقى عبد العزيز هدية الحسين إبان



حضرة صاحب الجلالة الملك سعود

تلك الحرب حتى بعث يستوضحه الأسباب التى دعته إلى ذلك ، غير أنه ضمّن كتابه معانى أخرى أكبر من الهدية وأخطر من السؤال . .

إنه يريد السلام ، ولو قدم فى سبيله دم الأسرة قرباناً للغاية الكريمة التى كان يسعى إليها ، أعنى الاتفاق مع أمير الحجاز ، ولتحقيق ذلك كتب إليه يقول « ياحضرة والدى . إننا وإياك فى هذه الحرب ، وثمرتها لنا ولك ، فقد مشت عرباننا وعشائرنا عملا بأوامرنا إلى مساعدتكم ، ولكنى أبغى أكثر من ذلك ، وإنى مستعد أن أرسل إليك أحد إخوتى أو أولادى ليحارب مع أولادكم وفى ذلك الفوز الأكبر إن شاء الله . قد يكون حدث بيننا وبينكم سوء تفاهم فى الماضى ، فلابد إذن من التفاهم والتأمينات ، وذلك بأن تحدد الحدود بيننا وبينكم فتزول الشكوك وتتضاعف من أهل نجد النجدات »

لقد كان كتاب عبد العزيز صورة من نفسه النزاعه إلى السلام ، المفطورة على أدب الحديث والمقال ، غير أن هذا الكتاب الرقيق اعتبر فى بلاط الحسين قحة من سلطان نجد ، وعلقت عليه جريدة (القبلة) صحيفة الحكومة تعليقاً غير كريم ، ورأت فيه تجاوزاً من ابن السعود وهو يخاطب سيد البلاد ، وأيد هذا الرأى خطاب الحسين إليه وفيه يقول « إما أنك سكران وإما أنك مجنون ، أفلا تعلم لأى أمر قمنا وأى غرض نبغى ؟ » ! . . .

ويتلقى « إنسان الجزيرة » سباب « والده الجديد » بالصفح والغفران ، ويكظم غيظ معاونيه ويهدىء من غضبهم ، فما آن الأوان بعد ليعرف الحسين مقام أمير نجد ، ولا حانت ساعة الفصل والحساب !

وظن الحسين مرة أخرى أن ابن السعود فى غفلة عن نواياه ، وأنه قادر على اللعب بعواطفه عند اللزوم ، وإنه كما يراه ثملا أو مجنوناً ، يستطيع أن يراه أيضاً قديساً أو عاقلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ! وقد أطمعه البال الطويل والصدر الرحيب فى إنسان الجزيرة ، فكلف الحسين أبناءه أن ينافسوا أباهم فى الزلفى إلى

أمير نجد ، ويكتبوا له الكتب الرقيقة بعد احتلالهم للمدينة وطرد الأتراك منها،
ولكن ابن السعود كان يعلم بنوايا الحسين وأولاده ، وأنهم عازمون على قص
أطراف ملكه ، ووقع فى يده — تأكيداً لحدسه — أكثر من دليل وبرهان ،
فكتب إلى الإنجليز كفلاء الحسين وحماته ثلاث مرات ، ليردعوا صديقهم
ويقفوه عند حده

ولما لم يجد ابن السعود أثراً لرسائله عند أصدقاء الحسين ، بعث إلى ولده
عبد الله يقول « . . . نعم وإن عاقبة البغى وخيمة » ولم يعجب المكتوب الأمير
عبدالله فرد عليه رداً قاسياً ، فيه من ألوان التحدى الشىء الكثير ، وفيه اتهامات
ما انزل الله بها من سلطان . . .

ولم يقف ابن السعود مكتوف اليدين أمام التحدى الظاهر فى الأقوال
والأفعال ، فأخذ يرسل الكتب والعيون لرؤساء القبائل معلناً لهم أنه إنما يريد
إعلاء كلمة الحق والدين ، والبعد بكتاب الله وسنة رسوله عن البدع والشعوذة
والأساطير ، والتجارة باسم الإسلام ، ثم أخذ يفسح صدره لشيوخ القبائل
الحجازية ويلقاهم بالتجلة والتكريم

وغضب الحسين وأولاده ، وساءهم هذا الود الجديد الذى نشأ بين ابن سعود
وقبائل الحجاز ، فلجأ أكثر من مرة إلى الإنجليز يستعديهم على أمير نجد ،
والأمير السعودى يرجوهم الوساطة بينه وبين الحسين لينهى الخلاف على المسائل
المعلقة بين الطرفين . . .

ولما بدا لهم — أى الإنجليز — أن البغى من ملك الحجاز وليس البغى من
سلطان نجد ، كتبوا إلى الأول كتاباً يذوب رقة ، ويفيض بالإكبار والإجلال ،
ثم ختموه برجاء أن يصل بوده ذلك الأمير النجدى الكريم ! . .

وكان رد الحسين على تمنى الإنجليز ورجائهم ، منع حجاج نجد من الطواف
بالكعبة وأداء المناسك وحرمانهم من القيام بواجبهم نحو ركن من أركان الدين ،

فإذا أغلظ له الإنجليز وألحوا عليه بأن يسمح للسعوديين بأداء واجباتهم الدينية اشترط لذلك شروطاً سخيفة كأن يحدد عددهم وأن يجيئوا عن طريق البحر كغيرهم من سائر أقطار المسلمين !

وحاولت انجلترا تصفية الموقف بين الأمراء المختلفين فى مؤتمر تحضره العراق وسوريا وشرق الأردن وملك الحجاز وسلطان نجد ، غير أن المؤتمر فشل ، إذ قاطعه الحجاز ولم يحضر مندوبه قط بالرغم من حماسة الإنجليز لتصفية الموقف بين العاهلين المختلفين ، وأحدهما — أى ابن سعود — محاط بخصومه فى الحجاز والعراق وشرق الأردن

وكسب ابن السعود من موقف الحجاز ، إذ فضح موقف الحسين أغراضه ونواياه ، وتريث عبد العزيز فى امتشاق الحسام حتى يؤمن الإنجليز كفلاء الحسين أن صديقهم يتدلل ويفسد عليهم السياسة العربية بموقفه العنيد من مشاكلها الكثار وهنا تبدو أصالة الرأى فى التريث والانتظار فقد آمن الإنجليز آخر الأمر أن الحسين لن ينهى خلافاته من غير حرب ، وأنه لا يريد السلام حتى يحقق أطماعه فى كل مكان . .

وهكذا كانت السياسة الهاشمية قصيرة النظر ، ومن شأنها أن تمسد على صاحبها كل السبل وتفقده جميع الأراضى التى يقف عليها ، وخاصة أن مشاكل الحسين لم تقتصر على الجزيرة العربية ، فقد خلق له الأعداء فى كل قطر ، مما رتب له نهاية ما كانت تدور فى الحسبان

خسر الحسين مصر ، وخاصمها فى عنف وقسوة ، فرد المحمل ، وكان المحمل — إلى ذاك الحين — إرثاً يشبه العقيدة فى نفوس المصريين ، وهاجت الصحف المصرية وأصبح الملك حسين مضغة فى صفحاتها ، ولا ننسى أثر الصحف المصرية واسعة الانتشار فى بلاد المسلمين

وثارت الهند لحوادث النهب والسلب التى حدثت إبان موسم الحج ، واعتبرت

ملك الحجاز مسئولا عنها بطريقة أو أخرى ، فهو إما أنه عاجز عن أن يضبط الأمن فى بلاده ، وإما أنه قد تعاهد مع قطاع الطرق على هذا الفساد !

أما نجد فلم يكن بد من قيام الحرب بينها وبين الحجاز ، ودارت الوسائط بين الملك والسلطان ، وشرط ابن السعود لوقف الحرب خروج أسرة الحسين من الحجاز ، ثم أعلن وهو فى طريقه إلى مكة فى كتب إلى ملوك العرب والمسلمين حرصه على البيت الحرام ، وقال فيما قال « أما بعد فقد استقبلت الطريق إلى مكة غير باغ ولا آثم ، فليتفضل الأخ العظيم بأرسال من يمثله فى مؤتمر مكة حبا بنشر السلام بين أمم الإسلام »

تلك كانت سياسة ناجحة من « إنسان الجزيرة » فقد طمأن العالم الإسلامى إلى سلامة الحرم الشريف ، وكان خصومه قد أذاعوا أنه سيهدم القباب وبذلك يمحو الوثنية عند البيت الحرام ، وقد كذب ابن السعود هذا الزعم مرة أخرى بندائه إلى علمائه وأهل الرأى فى بلاده حيث قال « إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها بل لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد الله . إنى مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها ، فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا للشرع ويجب أن تطأطىء جميع الرءوس له . إن الحجاز سيكون مفتوحاً لكل من يريد فعل الخير من الأفراد والجماعات »

وإذن فقد اطمأن العالم الإسلامى لرسالة الحاكم الجديد ، وفرح المصريون ، فغداً يفتح لهم الحجاز على مصراعيه ، وسعد الهنود ، فعند بيت الله الحرام أمير قادر على ضبط الأمن وإقامة الحد على اللصوص وقطاع الطريق

وهكذا تم سلطان ابن السعود على الحجاز ، وتوحدت الجزيرة العربية تحت علم واحد ، وبدأت فيها دولة للدين فيها نصيب كبير

دهقان السياسة

... آزر أهل الديمقراطية بوحي من بصيرته
التي أكدت له نصرهم القريب، وهو حين يقف
إلى جانبهم فأنما يرجو من وقفته خيراً للعروبة
والإسلام، وفي سبيل العروبة والإسلام ركب
الشيخ الوقور البحر لأول مرة

يختلف موقف الملك عبد العزيز فى الحرب العالمية الأخيرة كل الاختلاف عن موقفه فى الحرب العظمى الأولى، فهو اليوم يحكم إمبراطورية واسعة الأرجاء يظلها الأمن والرخاء، ويدين له فيها نحو عشرة ملايين بالسمع والطاعة والولاء، ويتمتع بسمعة عالمية عالية، وله فى قلوب المسلمين مكانة ملحوظة وحظ مرموق، فهو من حيث قدره عند الناس ملك مرهوب الجانب له وزنه واعتباره فى مثل هذه المدلهمات التى تدهم العالم بين آن وآخر ويطويه فى سعير من الحرب يتلظى بنارها الغالب والمغلوب على السواء.

فى هذه الحرب الأخيرة لم يشغله الفكر أو تستبد به الحيرة، وهو مطلق الحرية فى شئون الجزيرة، لا يخشى عصبة من أمراء أو ثورة من قبائل أو انتقاضاً من الأهل والأقارب، ولو حدث شيء من هذا لقضى عليه فى ساعات، إذ أن عرش الملك قد توطد، وعنده فى الرياض والعواصم الكبرى فى دولته حكومة وسلطان، وجيش نظامى ذو بأس شديد، وإزاء هذه الطمأنينة عقلها الملك وتوكل ووقف فى وضوح وجلاء إلى جانب الديمقراطيات.

وأنه لشيء طبعى أن يقف الملك إلى جانب الديمقراطيات، ويعلن تأييده لها، فأن حكومته نفسها ترث أشرف أنواع الديمقراطيات، ديمقراطية الإسلام، والأمر فى حكومته شورى، تشاور الناس فى دنياهم بالمعروف، فكيف لا ينصر ملك المملكة العربية السعودية الدول الديمقراطية وهى تكافح فى سبيل الحرية وإعلاء كلمة الجماعة وإنقاذ البشرية من الاستعباد؟

وفضلاً عن ذلك فأن «طويل العمر» مرتبط بمعاهدة مع انجلترا وهو صديق قديم لها، وقد حافظت على وده وراعت حرمته زهاء ثلاثين عاماً، ومرت هذه

الصداقة فى أكثر من امتحان ، وربما كان لهذه الصداقة فضل فى تأسيس ملكه لا عن طريق التأييد المادى أو الأدبى ، بل عن طريق الحياد الذى وقفته فى مختلف الأزمات وكفته بذلك على الأقل دسائسها ويالها من دسائس حين لا يعجبها حال من الأحوال !

وقف إلى جانب الجبهة الغربية ، ولم تغيره كوارثها وأحداثها ، وقد أصر على انتهاج تلك السياسة حتى بعد أن سقطت دويلاتها واحدة بعد أخرى تحت وطأة جحافل الألمان ، ووقفت انجلترا وحدها فى الميدان ، وقد أعجب هذا الموقف الأمريكان الذين اعتبروه دليلا على رجولية العظيم الذى أعطى كلمة الشرف وحافظ عليها فى أحلك الساعات والأيام ، وقد أخذ يرحب بزائريه من أمريكان وانجليز خلال تلك الحرب ، ومضى يشجعهم فى محنتهم وكفاحهم وأكرم وفادتهم حتى أعجبت مروءته الحكومتين ، فمضتا تكتبان رسائل الرضا والتقدير وتبعثان الهدايا عنوان الإكبار والإجلال .

وقد يتساءل البعض ، أما كان فى وسع أمير المسلمين أن يحايد ولا ينضم إلى جبهة لم تنصف العرب فى قضية فلسطين ، ولم تف بوعد لكثير من البلاد العربية ، وفى مقدمتها قضية مصر التى لا تزال ترزح تحت الاستعمار البريطانى ؟

وجواب الواقع الملموس خير جواب على السائل الحيران . فأن ابن السعود لم يشأ كسباً مادياً فى أرض أو مال حين انتحى جانب الحلفاء ، فهو قد وحد الجزيرة العربية وليست له مطامع هنا أو هناك ، وهو عنده المال مما أفاء الله عليه من خيرات ، فى مقدمتها زيت الظهران ، والمعادن النفيسة فى أرض الحجاز ، وإنما انتحى الرجل جانب الإنجليز والأمريكان ، لأنه ، أولا ، كملك شريف ، مرتبط بمعاهدة مع الأولى واجبة التنفيذ والأداء ، وثانياً ، لأن فكرة حلفائه فى الحرب أكرم عند الله والناس لو جردوا من الهوى والأغراض ، وأهم من هذه الأسباب جميعا أنه آزر أهل الديمقراطية بوحى من بصيرته التى أكدت له نصرهم

القريب ، وهو حين يقف إلى جانبهم فإنما يرجو من وقفته خيراً للعروبة والإسلام وفى سبيل العروبة والإسلام ركب الشيخ الوقور البحر لأول مرة وقطع ثلاثة آلاف من الأميال ليلتقى بتشرشل وروزفلت ويدور الحديث عن فلسطين الجريحة وسائر المشاكل العربية التى نافح عنها فى تلك المؤتمرات والتى فاوض فيها باسم المسلمين لينتزع لهم الوعود بحقوقهم المسلوبة فى كثير من الأرجاء .

أما أن الإنجيز أو غير الإنجليز قد نكثوا بالعهد ولم يوفوا بالوعد ، فذلك لا يسأل عنه « إنسان الجزيرة » إنما يسأل فيه الناكثون للعهد والميثاق الذين لم يحفظوا كلمة الشرف ، وهى الكلمة التى اطمأن لها ساكن الجنان ، وما كان يظن أن كلمات الشرف لا وزن لها عند غيره من الرؤساء حتى فى مؤتمرات الأحرار كما كانوا يزعمون لها من صفات !

لقد جاهد الملك عبد العزيز آل سعود ما أمكنه الجهاد ليكسب للعرب وسط هذا الصراع الدولى حرياتهم واستقلالهم ، ولا يجب أن ننسى أنه خرج من بلاده لأول مرة فى حياته ، من أجل هذا الغرض الكبير حيث دارت بينه وبين روزفلت وتشرشل مناقشات ومحاورات ، ولم تكن صحته تحتمل بحال ركوب البحر ، وتحتمل هذا الانتقال المضنى فى تلك السن التى يجب على صاحبها أن يركن فيها إلى الهدوء ويستقر مهما تكن الأحوال

وفى سبيل قضايا العرب صالح من صالح من الأمراء والملوك ، وفتح صدره لهم ، وأمدهم بالمال والعتاد ، ولم يترك فرصة لتأكيد مودته بشتى الطرق إلا وأعلنها ، ليؤمن ، بالاتحاد والتضامن معهم ، سلامة الشرق العربى ، وكان فى مقدوره أن ينطوى على جزيرته ، ويكتفى بمشاكل بلاده ومتاعبها ، فلا يضيق إلى أعباء الحكم أعباء أخرى بالمشاركة فى المحيط العربى مشاركة الأصيل .

وفى سبيل قضايا العرب ، مرت على العلاقات السعودية الأمريكية الانجليزية فترات دقيقة تحرج فيها الموقف بين عاهل الجزيرة وبين الحكومتين المذكورتين ،

وكادت الأمور تصل فيها إلى التعقد والارتباك

ولولا وقفة ابن السعود فى قضية فلسطين لهانت تلك النهضة على الإنجليز والأمريكان ، فقد راعوا مصالحهم فى بلاد عبدالعزيز ، وخشوا مغبة خصومته ، ولزموا موقفاً وإن لم يسر إنسان الجزيرة إلا أنه أقل سوءاً مما كان يمكن أن يكون عليه لو أنه تهاون فى الدفاع عن قضية العرب فى تلك البقعة الشريفة من بلادهم

ولا ينبغى أن ننسى سفاراته التى بعث بها إلى لندن وواشنطن ونيويورك وليك سا كسيس للدفاع عن قضايا مصر وغير مصر من البلاد العربية ، والإسلامية ، وقد وضح ذلك فى مواقف ممثليه فى المنظمات الدولية التى كانت تعضد من غير قيد أو حد كل قضية عربية ، ولو كان فى هذا التعضيد خطر على قضية الزيت فى الظهران . . .

وغاية القصد فى سيرة « إنسان الجزيرة » وهو يبنى ملكه بالحرب والسياسة أنه لم يترك فرصة إلا أقتنصها لتحقيق الأمن والسلام فى بلاده أولا ، والسعى لخدمة العرب والمسلمين فى كافة أقطار الأرض ثانياً ، وقد نجح فى الأولى نجاحاً منقطع النظير ، وأدى فى الثانية واجبه الأداء الحسن وهو الواجب المفروض على كل مؤمن بدينه وتعاليمه ، وآية ذلك أنه ذهب إلى وجه ربه صديقاً لكل أمة عربية وحبيباً إلى نفوس جميع المسلمين

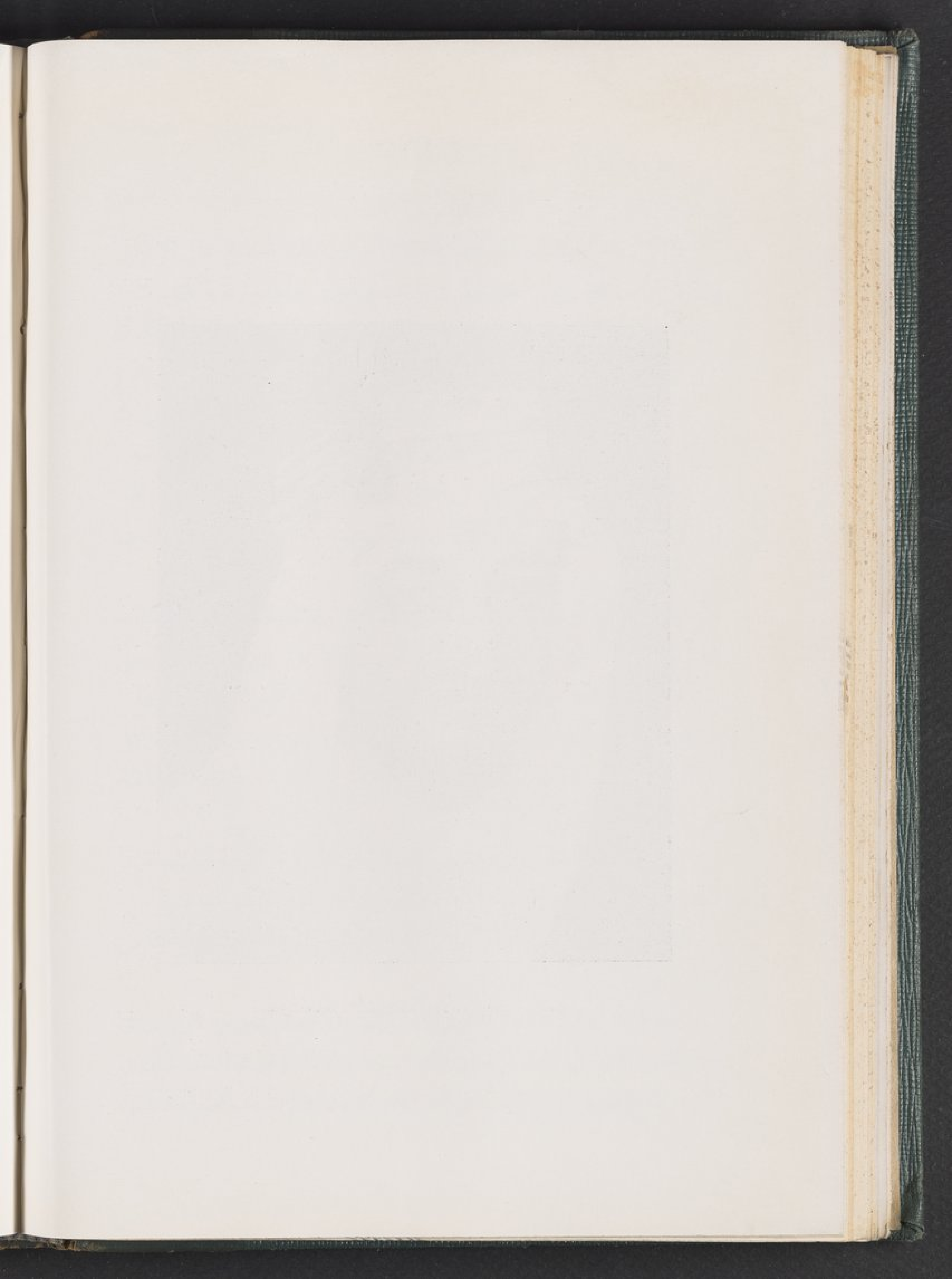
إذا لم يكن ابن سعـــود دهناق السياسة فى الجزيرة العربية خلال القرن العشرين ، فمن ذا يكون دهناقها بعد وفاة مبارك صديقه وحليفه منذ قديم ؟

إنه وحده ابن السعود الذى ملك ناصية السياسة العربية وجند لها نخبة من شباب العرب ، من أبنائه وحواريه

وآية ذلك أن ابن السعود أعاد تراث الآباء والأجداد بتحرير الرياض فى مطلع القرن العشرين ، وكان الإنجليز والفرنسيون والألمان وغيرهم أصحاب شأن فى كثير من بقاع الجزيرة ومع ذلك ساس أموره بحنكة ودربة فلم يصطدم قط بأحد منهم ،



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ولي العهد



وعبر ظروفاً غاية فى الحرج ، وتأزمت الأمور بينه وبين بعضهم ، ومع ذلك سلمت بلاده من كفاح أى منهم طوال حكمه العريض ، بينما أقــرانه فى أرجاء الجزيرة وقعوا فى مشاكل لاحد لها نتيجة سوء الرأى والتدبير ، وحدث بينهم وبين أولئك من المتاعب ما قوض عروشهم أو قضى على آمالهم العراض فى العز والسلطان

نجح ابن السعود فى تلافى المتاعب والصدام بهذه المعسكرات ، فانتصر آخر الأمر بالسياسة وحسن السبك على الإنجليز ، فقضى على وسائلهم ، وهدم الأصنام التى أقاموها ملوكا وسلاطين دون أن يتورط معهم فى حرب سافرة ودون أن يعقد الأمور بينه وبينهم ، أو يضطرهم إلى نصرة أصنامهم بالمال والسلاح

بل لعله بلغ الذروة فى أساليب الدهاة من الساسة المحترفين ، حين استطاع أن يجتاز الحرب العظمى . فلم يحارب كما حارب حسين شريف مكة الأتراك أو كما حارب ابن الرشيد فى صفوف الأتراك ضد الإنجليز ، أو كما حارب غيرهما هنا وهناك ، واكتفوا بنار الحرب ، وتأثرت بلادهم بشرورها ، فكاد يكون وحده العاهل العربى الذى مضت الحرب العظمى الأولى ولم يخسر فيها شيئاً من الناحيتين الأدبية والمادية ، بل كسب فيها كسباً غير قليل

والكسب عندى ينحصر فى عدة مظاهر ، أولها أن بلاده خرجت سليمة وبلغت ساحل الأمان دون أن تتكلف أى شىء ، وثانيها أن الحرب قضت على خصميه العنيدين ، ابن الرشيد ثم الأتراك ، وكلاهما كان عدواً له شديد المراس لو قدر لهما النصر حينذاك ، وآخر مظاهر الكسب أن الغرور الذى سيطر على الأشراف جنبهم كثيراً من التوفيق ، فخاصموا معظم البلاد الإسلامية ، واضطر أصدقاؤهم الإنجليز إلى أن يقفوا على الحياد ، ولا يتورطوا فى نصرة الملك حسين وهو يخاصم المصريين والهنود والنجديين وسائر بلاد الإسلام !

ولاشك أن مابذله الملك حسين فى الحرب العظمى الأولى من كفاح ترك آثاره فى قوى جيشه ومعداته ، فلم يقو على حرب يشنها عليه عبد العزيز آل سعود ،

وهو صاحب جيش شديد المراس لم تصهره الحرب العالمية ولم تكلفه شيئاً من البذل والفداء ، وهو قادر على هزيمة الملك حسين حين يطلب منه البذل والفداء !

لم تأت هذه السياسة عفو الخاطر ولا جاءت بنت ساعتها ، وإنما هى خطة موضوعة رسمها « إنسان الجزيرة » لتحرير الجزيرة من خصوم الداخل والخارج على السواء ، فإذا نظرنا إليها بعد هذه التفاصيل ، فرأينا يقطع بأن المترجم له كان فى الحق دهناقا فى السياسة ، وسياسياً من كبار ساسة الجيل

دين ودولة

الإسلام فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم
ساهم فى القضاء على الإمبراطورية الرومانية
بما انطوى عليه من إلحاد، والوهابية فى عهد
عبد العزيز شاركت فى القضاء على الامبراطورية
العثمانية لممارستها شئون الدين فى شيء يشبه
الإلحاد !

هل الوهابية دين أو مذهب أو عقيدة أو رسالة ؟

الوهابية مذهب من الدين ، بل هي خلاصة موجزة لأبين تعاليم الإسلام ، إنها نهضة دينية تراءت لمحمد بن عبد الوهاب حين وجد المسلمين في الجزيرة قد جانبوا كثيراً من حقائق الإسلام ، متأثراً في ذلك بابن تيمية الذى هتف بالرجوع إلى الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح ، ومحاربة البدع والمنكرات كالتمسح بالقبور والصلاة عندها وطلب الحاجة منها والتبرك بالأشجار والأحجار لتدفع شراً أو تجلب خيراً.

والوهابية شيء من هذا الذى دعا إليه ابن تيمية ، فقد اعتبرت التوسل بغير الله شركاً ولو كان المتوسل به محمداً صلى الله عليه وسلم ! وإن لم تنكر مقام النبي عند ربه وشفاعته يوم القيامة حين تنصب الموازين ، والوهابية لم ترفض زيارة القبور إن كانت للموعظة غير أنها تأباها إذا دعى فيها لميت أو أقيمت لها قبة أو شيد بجانبها مسجد ، أو سافر إليها الناس في شيء يشبه الحج والعمرة ، والذبح عندها كفر والاستغاثة بها إلحاد ، وتجصيصها والكتابة عليها شرك بالله ، وكذلك تنكر الوهابية البدع التي أدخلت على الإسلام كالتفاف الناس حول قارىء السيرة أو الإضافات على الآذان الشرعي ، أو خروج النساء وراء الجنائز ، أو إقامة الموالد والأذكار ، والرقص والمزمار ، والمحمل وما إليه ، أو لبس الرجال الذهب والحرير وشرابهم للدخان . . .

هذا بعض ما تدعو إليه الوهابية . . . وما أظن مسلماً سليم العقيدة يختلف مع الوهابيين في تأييد ما جاء به مذهبهم ، بل ما ذكر به إمامهم محمد بن عبد الوهاب ، فليس فيما قاله جديد في الدين حين كان الدين صافياً لم تعلق به السفاسف والأدران ،

وإن من العجب أن تـقـل القبور وترابها زلفى إلى الله ، وليس بين الله والمؤمن حجاب !

وإنا لنشهد فى شتى بلاد المسلمين وأمصارهم ألواناً من الوثنية البغيضة تعيد إلى الأذهان عهد الدجل والسحر والشعوذة ، وذلك كله باسم الإسلام ، والإسلام منه براء ، وإن أحياء بأسرها بل مدناً بأكملها تعيش فى كنف قبر حوله حيطان ، وفى بعض مدن المسلمين أكثر من حى يعيش عيالا على قبر أنثى كريمة المحتد أو قبر رجل عميق الأصول وبعض مدن المسلمين الكبرى ، شهرتها فى العالمين قبر صالح اختلف فى شأنه العلماء والمؤرخون !

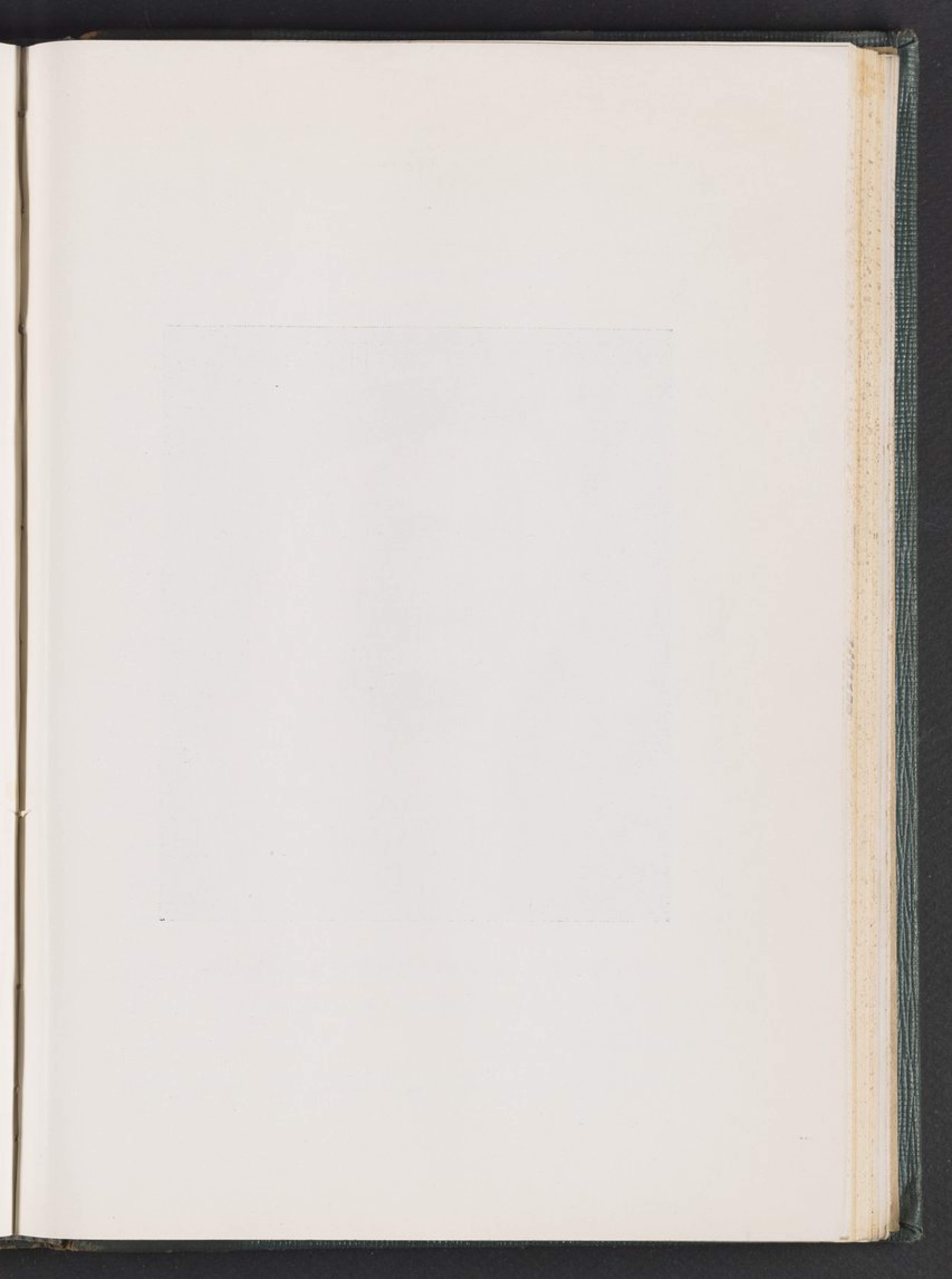
وإذن فمحمد بن عبد الوهاب والسعوديون أنصاره لم يأتوا بدعاً فى الإسلام حين صمموا على أن يبرأ الدين من مفاسد المشعوذين وتجار السياسة وعباد الجاه والمال ، فقد أفسدت الدول الشرقية الحديثة معالم الإسلام الصحيحة لترتزق وتعيش وتقيم الملك على دعائم من البدع والأوهام ، ولو لم تقم هذه البدع والأوهام فى عقول العامة صغار الأحلام لما استطاع العثمانيون أن يحكموا العالم العربى باسم الخلافة ، ولم تكن الخلافة قط صحيحة إلا فى بلادها يوم كانت تقشفاً وعدلا لا سلطاناً من المظاهر والغرور

وكم حورب السعوديون فى ذمتهم ودينهم ، وهذه هى مقاصدهم من الدين ! وقد كانوا — فى رأيي — يورثنا الإسلام والمسلمين ، فقد عانوا ما عاناه أنصار لوثر فى سابق الأيام ، ذلك المصلح الذى ما كف خصومه أبداً عن تسويء سمعته والتهوين من مذهبه بأحط الوسائل وأخس الأساليب ، وكان ذلك شأن السعوديين من خصومهم العديدين ، فقد ناهضوهم واعتبروهم كالإيرانيين ، صابئين عن الدين ، فى إسلامهم دَغَل ، وفى عقيدتهم وهن ، ومثل هؤلاء لا يُجزون فى معاملة جزاء المسلمين الصادقين !

ماذا قالوا عنهم من أكاذيب ؟ قالوا إنهم يكرهون النبى صلوات الله عليه وسلامه



حضرة صاحب السمو الملكى الأمير محمد بن عبد العزيز مستشار الرأى



ومعنى هذا لمن به عقل ، معناه بالتالى كراهية الخلفاء الراشدين والأئمة الصالحين من علماء المسلمين ، وفى ذلك أيضاً معنى الكراهية لسائر الرسل وكتبهم المنزلة ، وليس بعد ذلك كفر ، وليس بعد ذلك زيغ وإلحاد !

وإذا كرهوا النبى (صلعم) فهم كارهون لقبره وللقاصدين إليه من أعماق الأرض ، وإذا كرهوا قبر النبى كرهوا كل ماهو على شاكلته ، وسوف يهدمون كعبة إبراهيم عليه السلام ، بل زعموا حين احتل السعوديون الحجاز أنهم قد هدموها فعلا وخلا الحرم الشريف من قصاده العديدين ! . . .

وإزاء هذه الحملة المغرضة التى شنها خصوم السعوديين وعلى رأسهم الملك حسين ، شن أنصار الوهابية هجوماً مضاداً ، فادعى المتطرفون فيهم أنهم وحدهم المسلمون ! وأسرفوا من ناحيتهم فى تكفير كل من يحيد عن آراء الوهابية ولا يأخذ بمنطوق الشريعة ويتجاوز عن مذهب ابن حنبل فى طرائق النظر إلى دينه ودنياه ، وسفهوا الأشراف ، وقالوا إنهم سبة فى حق البيت الكريم وفى وجه الإسلام والمسلمين ، لأنهم أنكروا تعاليم الدين الصحيحة وارتكبوا من الآثام ما لا يرضاها الله ولا نبيه العظيم ، وأنهم غير جديرين بشرف الانتساب إلى سيد المرسلين

ولولا « طويل العمر » وسماحة خلقه ووزنه للأمور الوزن الصحيح ، لصبأ الناس جميعاً فى نظر « الإخوان » السعوديين ولم يبق على الأرض مسلم إلا هم ، وغيرهم فى نظرهم — من المرقة الكافرين ! فقد كان « إنسان الجزيرة » عاملا ملطفاً لحماسة « الإخوان » وقد رطب بوجوده من جفوتهم لأبناء دينهم ، وساسهم بالحلم حتى هدأت نفوسهم واحتملت أوجه النظر الكثيرة فى شئون الدين ، وكان عدله وإحسانه واستقامته واتساع أفقه من الأسباب التى وطدت أركان الدولة الجديدة وجعلت أقسى الناس على الوهابية من أقوى دعاتها ، وأكثر الناس مناهضة لها من أشدهم إعجاباً بها وإقبالا عليها وتمكيناً لها ، فهى مذهب الفكر والاختلاف

فى الرأى والاجتهاد فى سبيل الأحسن ، وقد خطب الملك عبدالعزيز آل سعود مرة فقال إنما يعنيه فى شئون الدين أن يتفق المسلمون فى قواعده الأصلية « أما الأمور الشرعية فاختلاف الأئمة فيها رحمة »(١)

إن إنسان الجزيرة جاء ليعيد للإسلام عزته الأولى ، ويهدم الخرافات التى رحب بها من سبقه فى حكم تلك البلاد ، فقد أيدوا البدع لبعيدوا على زوائها ويحكموا بمقتضاها ، وكان فى مقدمة هؤلاء إمبراطورية العثمانيين التى جعلت الدين مظاهر وتقاليد ، ونسبت إليه كثيراً من البدع التى تهدف إلى التمكين للحاكم واعتباره ظل الله فى أرضه ومعطى الخير لمن يشاء وجه ربه الكريم !

وقد كانت الإمبراطورية العثمانية تشبه فى كثير من الجوانب الإمبراطورية الرومانية ، فحكمت كل منهما الملايين ساخرة من أحلام الناس بهذا الفيضان الغريب من البدع والأوهام ، تضفيه على الدين لتخفى حقيقته التى يبهر نورها المؤمنين ويزلزل عروش الظالمين

استغلت الإمبراطورية الرومانية ما أدخلت فى الدين المسيحى من أكاذيب ، واستعدت رجال الكنيسة على كل حر يخاصم الأباطرة المستبدين بصكوك الحرمان والغفران ، وما إلى ذلك من أساليب لا يرضاها دين الكاثوليك ، فقام المذهب البروتستانتى يحارب هذا الدجل ، ويسخر بفتاوى القسس والبابوات ، ويبصر الناس بحقيقة دينهم وما أصابه على يد السلطان المستبد من فساد

وهكذا كان شأن الإمبرطورية العثمانية التى حكمت الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر حكماً مباشراً أو حكمتها عن طريق عمالها ووسطائها من أمراء وملوك وشيوخ ، وقد استغلت رجال الدين فى القسطنطينية والقاهرة فأمدوها بالفتاوى الباطلة وأيدوا البدع والأوهام ليجعلوا من كل مجدد أو حر يسعى لرفعة عقيدته السمحاء أو يطلب الحياة الحرة لوطنه ، مارقاً على الدين وخارجاً على

---

١ — الريحاني ص ٣٣٩ ج ٣ الريحاني الطبعة الثانية

الخليفة ظل الله فى أرضه ، وكل ذلك ليحاط النظام التركى الاستبدادى بسياج من المنعة والقوة ، فلا يستطيع الأحرار الصالحون القضاء على سوءات الحكم أو تقويض أركان الدولة التى استشرى فسادها فى كل مكان

لهذا قام السعوديون ثائرين على هذه الأوضاع ، تماماً كما فعل البروتستانت فى قديم الزمان ، ومن التجاوب الملحوظ بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، أن الإسلام فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم ساهم فى القضاء على الإمبراطورية الرومانية ، بما تنطوى عليه من إلحاد ، وأن الوهابية فى عهد آل سعود شاركت فى القضاء على الإمبراطورية العثمانية لممارستها شئون الدين فى شىء يشبه الإلحاد !

وخلاصة القول فى مذهب الوهابية الذى تعيش فى أضوائه دولة السعوديين إنه مذهب العمل الذى يحترم الحقائق ولا يرضى الترهات ! وينفض عن العقيدة الإسلامية كل ما عاق بها من غبار ، فيخاصم فى عنف وشدة من يلوذ بالأضرحة والقباب ، ويرى فيها قوة تدفع شراً أو تجلب خيراً ، وعندها المثوبة والجزاء ، وينهى المؤمنين عن قراءة الأوراد وترتيل العزائم إذا كان الغرض تحقيق مصلحة دنيوية أو انتظار برمنها ، أو لم تكن خالصه لوجه الله دون غيره كما يمنع اتخاذ الرقى والتمائم وتعظيم الأولياء والأحبار باعتبارها وسائل ترفع الكرب وتأتى بالفائدة ، فكل ذلك فى مذهب الوهابية شرك بالله وكفران بقدرته جلت قدرته وتناهت عن الشك والريبة ، فأن أحداً لن يبلغ مناه إلا بالجهاد فى سبيل ذلك ، معتمداً على الله وحده الذى لا ينبغى أن يُعتمد على سواه

ومذهب الوهابيين مذهب الاجتهاد ؛ الاجتهاد الذى لا يجىء إلا بعد نظر عميق فيما أشار به كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام والاعتبار بما صنعه الخلفاء والعلماء من فقهاء المسلمين

فأذا جاء الاجتهاد بعد ذلك ، فذلك حق كل مسلم ، لأن الإسلام الصحيح يحترم العقل ويعتبره قوة دافعة لا جمود فيها ، ويحترم الرأى إذا لم ينقضه

القرآن أو السنة بقول صريح

والوهابية مذهب القوة التى تعتمد على الثقة بالنفس والإيمان بالعقيدة ، والثقة فى الخواتيم الطيبة والجهاد فى سبيل الحق ، والقوة عندها فى العلم والحرية والثروة والسلاح والسمعة الكريمة بين الأمم والشعوب ؛ وقد أبرز مذهب القوة فى الوهابية مكامن العظمة فى العرب فانتصر السعوديون فى كل موقعة خاضوها بقوة العقيدة والثقة بالنفس

ومذهب الوهابية ، على غير مايعتقد الناس ، مذهب متحرك ومتطور ، وليس مذهب الرجعية والرجعيين ، لأنه يقبل كل ما فى حضارات الأمم والشعوب من مظاهرها المادية مالم يتعارض شىء فيها مع خلق أو دين ، وآية ذلك أن ماحصلت عليه البلاد السعودية من جديد درضيه المذهب بعد البحث والدرس ودون تعنت أو تزمت.

والوهابية مذهب التسوية بين الناس ، فلا يرفع أحداً من غير حق ، ولا ينزل أبداً بأنسان ، ويعامل الفقير كالغنى ، ويأخذ من الغنى للفقير ، ولا يرضى أن يعتدى قوى على ضعيف ، فكل الناس عنده أقوياء ، وهم سواسية فى حياتهم ، وسواسية إن حضرتهم الوفاة .

ولا يعرف الناس أن الإصلاحات التى جاء بها مذهب الوهابية فى العصر الحديث هى أول ماعرفته بلاد الإسلام من إصلاح ، فقد دعا المذهب الوهابى إلى رفعة أمم الإسلام ورسم لذلك قواعد وأصولا ، لم تعرفها مصر كبرى الدول الإسلامية إلا بعد أن انتشرت دعوة الوهابيين بستين سنة ، ولم تعرفها خلافة العثمانيين قط فانهارت بعد قليل .

ولعل المذهب الوهابى أقوى مذهب عرفته الأمم الإسلامية منذ انتهى المسلمون إلى مذاهبهم القديمة ، فقد انتشر فى كل مكان من الأرض ، فأنت تجده فى الجزيرة العربية ، وتجده فى السودان والهند والعراق وفى الصين وأندونسيا وفى الباكستان ، ولو لم يكن مذهباً رضياً سليماً قوياً لما انتشر هذا الانتشار الواسع النطاق .

القصاص بين العدل والشورى

ولايمنعك قضاء قضيته بالأمس ، وراجعت
فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، أن تراجع
الحق ، فأن الحق قديم لايبطل ، ومراجعة
الحق خير من التمادى فى الباطل

من عجب أن يعيب الفرنجة وبعض المسلمين الذين خف دينهم سياسة ابن السعود التى تنفذ تعاليم الإسلام فى صرامة لا تقبل ضراعـــة ولا شفاعة، فتقبل الدية وتحلها بدل القصاص والعقاب، وتحز رقبة القاتل وتقطع يد السارق

وابن السعود فى تطبيق قواعد الدين الإسلامى يطبق فى الواقع ما اتفقت عليه جميع الشرائع السماوية، فالقصاص حين يطبق لا يكون إلا تنفيذاً لتعاليم موسى وماجاء به محمد عليهما السلام، فموسى قال فيه « إذا أحدث إنسان فى قريبه عيباً، يفعل به مثله. كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن »

وجاء فى القرآن الكريم « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » كما جاء فى قوله تعالى « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »

والدية فى الإسلام مقبولة ومرجعنا فيها السنة، ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم « فى كل إصبع عشر من الأبل وفى كل سن خمس من الإبل » ؟

أما إقامة الحد بقطع رقبة القاتل، فما نظن الحضارة الحديثة والقوانين الوضعية تختلف مع «إنسان الجزيرة» فى وجوب تنفيذ ذلك الحد، قد تختلف معه فى الطريقة كاستعمال الكرسى الكهربائى أو الشنق بالحبال أو الرمى بالرصاص، ولكنها تتفق معه كل الاتفاق فى أن القاتل يجب أن يقتل، لأن شرائع الدنيا تنادى بذلك منذ عهد حامورابى إلى رسالة محمد عليه السلام

أما قطع يد السارق فيعتقد الفرنجة أن حدها عمل غير إنسانى، وأن السرقة مهما يكن امرها فأنها لا تستوجب هذا العنف وتلك القسوة، وأن هذا العمل يضر بسمعة الإسلام ولا ينزله مكانته الرفيعة بين الحضارات العالمية

وقد نسى الفرنجة أن الإسلام دين تكامل ، وأنه قبل أن يقيم حد السرقة ويقطع يد السارق ، هيأ له وسائل العيش إن عجز عن العمل ، ففرض الزكاة على كل قادر وأمر بجمع أموالها فى بيت المال ،ليلجأ إليه كل عاجز أو محتاج ، فينال من أموال المسلمين مايسد رمقه ويحميه من شر السرقة وما هو أشنع من السرقة فى بعض الأحيان ، فأذا كفلت الدولة إعانة العاجزين والمساكين ، وجب عليهم ألا يمدوا أياديهم لمال الآخرين بالغصب والقوة وإلا أقيم عليهم الحد مثلاً وعبرة

فى ضوء هذا الدين المتكامل نهج «إنسان الجزيرة» فى إقامة الحد على السارق ، وحسبه أن اليد لا تقطع إلا إذا حق قطعها ، وأوجبتها مبررات ومبررات ، فقد يسرق الإنسان مرة ومرة ، « فيفرش » أو « يبسط » ، كما يقول عامة سكان الجزيرة عمن يحكم عليه بالجلد ، أو يسجن لمدة معينة ، وقد يعفى عنه فى بعض الأحيان ، فلكل سرقة ظروفها وملابساتها ، ألم يقف عمر تنفيذ حد السرقة أيام المجاعة ؟

إن « الشيوخ »(١) يخضع فى قضائه بعد تعاليم الدين لإجماع المجتهدين من الفقهاء ثم للقياس ثم للاستحسان إذا كان وجه الحق فى مسألة أقوى من وجه ، وهو لا يتحرج من هذا مادام الإسلام يدعو للاجتهاد ، وهو القائل بأن اختلاف الأئمة رحمة ! ولم يأت الإمام ابن السعود بجديد فى تطبيق نصوص الدين ، وحسبه أنه طبق ذلك فى أضيق الحدود وبطريقة ترضى الإسلام وتقيم لعواطف الإنسان ألف حساب ، لقد طبق التشريع وراعى فيه مصالح الناس وطريقة أخذهم للحياة وتطورهم الاجتماعى الملحوظ ، ولقد رأى أن الشريعة شيء والتشريع شيء آخر ، والتشريع يتأثر بالبيئة والمزاج ، وقد تجده فى أمة يختلف كثيراً أو قليلاً عنه فى أمة أخرى ، والتشريع أبداً موضع اجتهاد بينما الشريعة ثابتة ولا يختلف فيها اثنان

---

١ — يقولون عن الملك « الشيوخ » إكباراً واحتراماً

إن ابن السعود يعود فى قضائه وسياسته العامة إلى أحكام القرآن ، أى إلى نصوص الدين ، فأذا أشكل عليه رأى من الآراء ولم يتبينه فى آيات الكتاب الحكيم رجع إلى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأن أشكل عليه الرأى أيضاً ، اجتهد ، ولا يتحرج عقله الكبير من الاجتهاد ، فالاجتهاد عنده مذكرة تفسيرية لما جاء فى القرآن والسنة كما يقول أهل الفقه الحديث . . وماذا يضيره وقد أيد محمد (صلعم) الاجتهاد واعتبر فيه الفطنة والذكاء ، فقد أرسل صلوات الله عليه وسلامه ، معاذ بن جبل فى مهمة دقيقة تحتاج إلى فهم وإدراك ، وقبل أن يمضى معاذ لقضاء هذه المهمة سأله الرسول « يامعاذ بم تقضى إذا لم تجد الحكم الذى تريده فى كتاب الله ؟ » فقال معاذ « أقضى بسنة رسوله » فقال محمد « فأن لم تجده فى سنة رسوله . ؟ » ويجيب الرجل فى ثقة واطمئنان « إذن أجتهد رأيى ، لا آلو » ! وسر النبى من جواب رسوله ، واطمأن إلى مابعثه فيه من شئون

وإذا كان الملك عبد العزيز يرى فى أحكام الدين هذه السماحة التى أعلن عنها سيد المرسلين وطبقها خلفاؤه الراشدون ، فأنه قد مضى على تلك السنن فى كل أساليب حكمه ، وفى مقدمتها مشاورة المسلمين فى كل أمر ، ونزوله عند كلمة الحق وإن جاءت على خلاف رأيه .

وقد كان الملك ينزل عند هذه الكلمة فى سياسة ملكه وتنظيم دولته ، ويعود إليها إن أخطأ فى أمر أو قضاء ، وهو لا يرى فى ذلك عيباً أو نقصاً ، ناهجاً نهج عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حين قال لأحد ولاته « ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس وراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك ، أن تراجع الحق ، فأن الحق قديم لا يبطل ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

وخشية هذا الحق كانت تسيطر على عواطف رجل الدولة العظيم ، لذلك كان يستشير أهل الرأى فى كل كبيرة وصغيرة ، وينزل عند مشورتهم غير متعنت أو مكابر ، وكان لا يخطو خطوة من غير مشاورة ، حتى إنه [illegible] الإخوان

عقد مؤتمراً فى الرياض لهذا الغرض ولم يبت فى أمر الغزو إلا حين أقره المؤتمرون على ذلك ، وعندما قرر فتح مكة نزل عند رأى العلماء القائل بأن يدخلها جنوده محرمين ، وألا يدخلوها إلا إذا ثبت لديهم بالدليل القاطع أنها مدينة مفتوحة وأن أهلها راضون عن لقائهم واستقبالهم ، وكان فى مفاوضاته السياسية يكتب لمفاوضيه بالرأى الأخير ، وهو رأى الجماعة فيقول « . . . عقدت مجلساً من المسلمين وشاورتهم فى الأمر » .

وإذا كانت هذه الحسنة من أبرز خلائق الإمام عبد العزيز ، وأعنى بها مشاورته لأهل الرأى فى أمور البلاد والعباد ، فأن له حسنة أخرى لا ينبغى أن نغفل جلالها وقدرها فى شئون حكومته ، فقد كان يسمع لاعتراض رعاياه ، ويفتح صدره لأفكارهم وطلباتهم ، ويحتمل تبكيتهم وتقريعهم دون أن يغضب أو يرى فى ذلك امتهاناً لسلطانه .

وإنك لتجد البدوى حافياً يعبر أبهاء قصر الملك ، حتى يبلغ صدر القاعة التى يحكم منها ويقضى بين الناس فيها ، وعنها تصدر الأوامر والقوانين ، يقتحمها هذا البدوى صائحاً بالملك ، ياعبد العزيز . . . لى حاجة عندك ، ثم يراجعه مرة ومرة ويداوره ويناقشه ، وقد يتجاوز الحدود فى لفظ أو تعبير ، ويذهل المحيطون بالملك كيف يأذن لهذا البدوى بأن يخاطب صاحب الأمر بهذا الأسلوب أو تلك اللهجة ، أليست دولتهم دولة متحضرة ، ولنظام الحكم قواعد وتقاليد ؟ فكيف ينتهز الناس سماحة الملك فيتخطون القواعد والأصول ؟

إن الحكومة دين ودولة ، بيد أن ابن السعود لا يريد لحكومته — مهما تتحضر — أن تخالف الشرع والدين أو تجانب السنن الذى مضت عليه حكومات الخلفاء الراشدين ، أو تشذ عما كان يتبعه سيدنا محمد فى سياسة الناس وحكمهم .
وقد ابتسم الملك العظيم لغضبة أركان الحكومة ورجال السراى من جفوة البدوى وخشونة ألفاظه وقال إن لنا فى الرسول قدوة « لقد غضب إعرابى من النبى حين

خيل إليه أنه لم يوزع عليه حقه بالعدل ، فجذب الرسول من بعض ثوبه فى عنف وشدة ، وقال يامحمد زدنى ، فليس هذا المال مالك ولا مال أبيك ، فغضب عمر رضى الله عنه من تجاوز الإعرابى حده ، واستل سيفه ليضرب عنقه ، فحال النبى صلى الله عليه وسلم دون ذلك وقال فى دعة لصاحبه . . . دعه ياعمر إن لصاحب الحق مقالا « ! .

ولم يتسع صدر عبد العزيز لعامة الناس فحسب ، ولم يغفر لهم تهجمهم عليه ملتمساً العذر لهم من بداوتهم التى لا تعرف تقاليد الملكية عند المتحضرين ، بل إنه قبل هذا من أمراء مكة وموظفيها ، فقد كان فى مكة ، وكان فى مقدوره أن يهاجم الملك علياً فى جدة وينهى حرب الحجاز فى لحظات ، غير أنه لأسباب سياسية عليا تمهل فى اتخاذ هذا القرار ، وضايق موقفه هذا أنصاره فقال له أحدهم أثناء الاجتماع « ياعبد العزيز : إنى أقول كلمة الحق وإن كانت تغيظك ، كنا نتحدث فيما بيننا ونقول : قد بدل عبد العزيز الشجاعة بالجبانة ، وكنا قبل قدومه ، نتمنى قدومه ، أما اليوم فصرنا نقول ليته ظل فى بلده بعيداً عنا . . . » ولم يغضب عبد العزيز قط من هذه الصراحة ، بل كانت تعجبه مهما انطوت على العبارات النابية ، فقد كان الرجل الصريح عنده أكرم ألف مرة من مراء يزجيه المديح والثناء ، وقد كان يخاف المدح خشية أن يلفته عن واجباته الدينية أو يؤثر فى توجيهاته السياسية .

ومما يؤثر عن « إنسان الجزيرة » أن فطرته السليمة كانت ترحب بالنقد ، وكان كلما ضاق حواريوه ببدوى يعارض الملك فى رأى أو يقتحم مجلسه بفكرة أو يبدى اعتراضاً أو يعيب عليه عملا ، يرطب هو من الجو ويحكى لهم رأى الخليفة عمر من مثل هذه المواقف ، فيذكر أنه رضى الله عنه كان يقول « رحم الله أمرءاً أهدى إلينا عيوبنا » ثم يستطرد الملك قائلا إن عمراً أعجبه يوماً زجر امرأة له وسره ماجاء على لسانها من حكمة ، فقال « كل الناس أفقه منك ياعمر » !

لقد كان الملك بالنسبة لرعاياه والداً يطبق تعاليم الإسلام الصحيحة فى سماحة وعطف ورقة ، وكانت حكومته ، تأبى أن يمضى ولاتها فى العنف والشدة بلا مبرر ، ولا تحب أن تكون قاعدة الحياة لرعاياها رعباً وفرقاً ، وقد وضع « إنسان الجزيرة » أصول هذه الحكومة الجديدة ، وأوصى بالصبر والشفقة ، فعفا وصفح مرة ومرة وقد حجب سوطه سيفه ، وقد كان سوطه يختفى إذا استطاع أن يقوّم المجرم بكلماته ، وقد عزل يوماً حاكماً حبيباً إلى قلبه وقال له فى محضر من جلة الناس « إننا لم نعزلك من منصبك لنقص فى دينك أو شبهة فى أمانتك ، ولكننا نجنبناك لشدتك ونحن نريد اللين مع الناس » (١)

ومن ملامح الحكم المثالية أن دولة عبد العزيز لم تنشأ إلا على الشورى والعدل ومضى نظام الحكم فيها على هذا القرار ، لم يشذ عنه الملك قط ، وما كان له أن يشذ عنه وتعاليم ديننا تقول بأن الأمر بينكم شورى والعدل أساس الملك ، وإذا قام نظام الحكم على العدل والشورى ، فلن يتربص بمثل هذا النظام أحد ، لأنه نظام لا استبداد فيه ، قام على البيعة السليمة الصادرة من قلوب مؤمنة بصاحب هذا النظام ، وشتان بين هذا الحكم وبين نظم النازية والفاشية التى عقد لها بعض الفرنجة مقارنة مع حكم ابن السعود ، فتلك النظم قضت على أهل الرأى وشردت الأحرار فى غير تحرج من خلق أو دين ، بينما قرب ابن السعود خصومه ، أو من كانوا أنصار العهد القديم ، وثبتهم فى وظائفهم ولم يعتد على أحد منهم فى عياله أو ماله .

وقد رأينا موسولينى مثلا قد استمد سلطانه من طوائف معينة ونقابات خلقها خلقاً ، بينما تلقى ابن السعود البيعة من جميع الناس حتى من الأجراء فى الحرم الشريف !

وأنشأ النظام النازى صناعات ضخمة على حساب حريات الناس وكراماتهم ووجودهم الأدبى والمادى على السواء ، وعكس ذلك تماماً حدث فى دولة « إنسان

---

١ — حافظ وهبه — جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٠٤ طبعة ١٩٣٥



حضرة صاحب السمو الملكي الامير فهد بن عبدالعزيز وزير المعارف

الجزيرة ، فقد حرر نظامه النـاس من الخوف والعدوان ، وحررهم من الجهل والاستغلال حتى قامت فى بلاده نهضة وصناعات ، وقامت معها طبقات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ولم يقف الأمر عند تشجيع الملك ورعايته للنهضة العمرانية والصناعية ، بل إنه ساعد القائمين عليها بالمال حين أعوزهم المال فضلاً عن تشجيعه الأدبى فى شتى الظروف والمناسبات .

ولم يصنع « الشيوخ » فى نهضته ودولته مثلما صنع أتاتورك ، فأن الأخير قضى على الدين ليقيم الدنيا ، بينما احتفظ عبد العزيز بالدين وأيده وأعلى كلمته وجعله قاعدة النظام فى مملـكته ثم احتفظ بأجمل مافى الدنيا من خيرات ، حقاكان لدى أتاتورك برلمان وحكومة مسئولة ، المفروض فيها أنها جاءت من صميم الشعب ، غير أن مظهر الحـكم عنده ديمقراطى وهو فى روحه عسكرى ، بينما قام نظام الحـكم السعودى سواء فى نجد أو فى الحجاز على نظام الشورى الذى عرفه الإسلام فى أعظم أيام الإسلام .

هذه المقارنة السخيفة بين نظام الحـكم عند ابن السعود ونظام الحـكم الفاشى ينفيها شىء واحد ، وهو أن ابن السعود لم يظلم قط ، لا هو ولا أحد من عماله ، وقد كان يرى فى الفاشية والنازية نوعاً من الإلحاد حتى إنه لم يتردد لحظة فى الانضمام إلى الحلفاء حين قامت الحرب الـكبرى الأخيرة ، فضلا عن أن ابن السعود لا يعرف إلا الحق ولا يصيح إلا للحق بينما المستبدون من أمثال هتلر وموسولينى ومن دار فى فلـكهم لا تزعجهم إلا كلمة الحق ، ومن أزعجته كلمة الحق ارتكب موبقات الدنيا وأفسد نظام الحكم ولو جاءت من ورائه خيرات الأرض قاطبة ، وآية ذلك أن هتلر تولى الحكم وفى بلاده أعظم علماء الدنيا ، وهوى نظامه وجميع هؤلاء العلماء خارج بلاده أو فى سجونها أو راحوا ضحية الغدر والخيانة ، لأنهم قالوا للمستبد يوماً كلمة الحق أما ابن السعود فوحد مملـكته وفيها علماء فقربهم وقرب غيرهم من الناشئة المجدة المجتهدة ، فأذا دولته اليوم تنافس دول الشرق العربى فى كثرة أهل العلم

والأدب والفقه والدين: إذا راعينا أنها دولة حديثة عهد بالحياة

الحق والعدل سمة حكم ابن السعود وطابع دولته الحديثة

إنما العدل والحق وحدهما هما اللذان وحدا هذه البلاد، حيث أوجدا الأمن في نفوس الناس وخلق الأمن هذا النظام موطد الأركان قوى البنيان.

عدل ابن السعود وعمال ابن السعود، أظهر ماعرفت به دولة الجزيرة الحديثة. إسمع إلى الناس يقصوا عليك الأسى يغشى ابن جلوى خيرة عماله وأعظمهم وأقربهم إلى قلبه ونفسه حين أحس هذا العامل الكبير أنه ظلم، ظلم من غير قصد فأمر بقطع يد سارق أثبتت الأيام براءته، قطعت يده لأنه استضاف فى بستان يقوم عليه واحداً من البدو، فاذا أصبح النهار افتقد البدوى كيساً من الذهب كان فى جيبه، وأقر البستانى أن أحداً لم يدخل عليهما، واعترف أنه بات والضيف وحدهما حتى طلع النهار، وإذن فكل القرائن والدلائل تشير إلى السارق وتشير إلى قطع يده، والسارق هنا حارس البستان واليد المقطوعة يده، وأقيم الحد على الرجل، وهام بعد ذلك على وجهه بين البيد والحضر فقد كان مظلوماً وإن أجمعت الظروف على جريمته!

وبعد سنوات جف حوض البستان من الماء ووجدوا فيه كيساً به ذهب فنقلوه إلى عامل ابن السعود، فتذكر السارق والمسروق، وبحث عن صاحب الذهب فلقيه، وتذكر الرجل أنه كيسه وأنه لابد أن يكون قد سقط منه ليلة الحادثة وهو يستعين بماء الحوض على الوضوء، وأخذ الأمير يبحث عن السارق المظلوم، وأمضى لياليه مؤرقاً حزيناً لأنه ظلم إنساناً، فلما جاءوا بالرجل منحه عشرة أضعاف الكيس الذى وجدوه فى الحوض، ورجاه أن يغفر له غلطته ويسامحه عند الله، فأبى الرجل أن يقبل رجاء الوالى الحزين، ففزع الحاكم إلى الملك يرجوه أن يتوسط عند الحارس المظلوم ليغفر له غلطته ويسامحه عند الله! وقيل إن الملك زاده من فضله ورفع الجزاء الممنوح له حتى رضى الرجل أن

يصفو قلبه ويمنح الحاكم الجليل عفوه وغفرانه !

قس هذا على القوانين الوضعية المعمول بها فى بعض الدول الراقية ، فأنك ستجد فى بينها دولا يبين لأصحاب الأمر فيها خطأ الحكم وظلم الحاكم ، فيبتسمون للشاكى ساخرين أو يشيحون عنه ساخطين ، بل إن من القوانين الوضعية المعمول بها فى بعض الدول الإسلامية العريقة فى إسلامها مايأخذ بالشبهة ويطمئن إلى قالة السوء بلا وثيقة أو برهان ، فأذا تبين للمسئولين وجه الحق فى الموضوع أبوا أن ينصتوا إلى العدالة وينصفوا المظلوم من الظالم ، ناسين أن دينهم يقول ادرءوا الحدود بالشبهات ، وأن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

ثم انظر قولة ابن السعود حين جاءه نبأ ناقة متعبة فأمر بأعفائها من العمل والسعى لراحتها ، انظر إليه يقول لمن حوله « العدل عندنا يبدأ بالإبل ، ومن لاينصف بعيره لا ينصف الناس » ثم انظر خشية الناس من عدل « إنسان الجزيرة » فقد أبى حطاب أن يبيع رجال الملك حطبه إلا بسعر عينه ، والملك فى حاجة إليه ، وعجب غريب كيف لا يجرءون على أخذ الحطب ولو بالقوة والملك فى بطن الصحراء ينتفض من قرها ، فقال رجاله « مانستطيع شيئاً من ذلك لأن طويل العمر لايرضى الشراء إلا بالحق وإلا استعمل عدله معنا . . . » !

وقد استعمل ابن السعود عدله ، لامع خدمه وحاشيته ، بل استعمله مع فلذة كبده ، فقد دهم أحد أولاده بسيارته غلاماً فى زحمة الطريق فقتله ، فأمر باعتقال الأمير وتقديمه للمحاكمة وقضت المحكمة ببراءة الأمير حيث شهد جميع شهود الحادث بأن الخطأ من الغلام ، ولم تكن للأمير حيلة فى تفادى ماوقع ، وتوسط الكبراء عند الملك ليطلق سراح ابنه ، فأبى وقال إنى لا أصدق على الحكم إلا إذا دفع الأمير الدية أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان ابنى عزيزاً على فأن الغلام القتيل عزيز على والديه أيضا ! . . .

إن « إنسان الجزيرة » يتأثر القدوة الطيبة والمثال الحسن فى الرسول عليه السلام ،

ألم يرفض التماس الطالبين إعفاء فاطمة المخزومية من العقاب بقوله « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ؟

هذه هى ديمقراطية الإسلام التى تجعل التسوية قاعدة لسياسة الشعب، لا فرق بين كبير أو صغير ، فالكل سواء أمام القانون ، والكل يؤدى التزاماته والكل ينال حقوقه ، ولن تشفع لأحد صلة من حسب أو نسب أو جاه أو مال ، وعلى الناس تقام الحدود إذا سرقوا أو قتلوا أو شربوا الخمر أو زنوا ، جلت أقدارهم أو هانت ، كانوا من صلب محمد عليه السلام أو كانوا من صلب أكاسرة أو أباطرة

ثم انظر إلى الأمير ابن جلوى يجمع أطفال الحى ويسأل الشاكى عمن أساء إليه منهم، فيتبين الشاكى أنه ابن الأمير فيعتذر عن الشكوى ويرجو سحبها ، فيأمره الأمير الجليل بأن يقتص من ولده بنفس الأسلوب الذى أسيء به إليه ، فيأبى الرجل ويأبى تنفيذ الأمر مرة ومرتين، فيقوم ابن جلوى ويضاعف الجزاء لولده وسط الناس ، حتى يعتبروا ، وحتى يستقبل وجه ربه يوماً وهو مطمئن إلى أنه أقام حد الله حتى على فلذة كبده ، ثم يلتفت ابن جلوى ويقول للناس « إذا كنا لا نبدأ بأنفسنا فكيف نعدل فى غيرنا » ؟ !

إن هذا الأمير ينفذ تعاليم ابن عمه « إنسان الجزيرة » الذى قال فى بلاغ رسمى « لا كبير عندى إلا الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا ضعيف عندى إلا الظالم حتى آخذ الحق منه ، وليس عندى فى إقامة حدود الله هوادة ولا أقبل فيها شفاعة »

لا تأخذ حكومة ابن السعود بالوشايات والشائعات والسعايات ، ولا يصدر حكم على مذنب إلا إذا قام الدليل كل الدليل على جرمه ، وحتى فى أيام الحروب والثورات لم يقم الحد على الثائرين والمفسدين إلا فى حدود ما قضى به الله وسنة رسوله، ولم يلتمس قط فرصة الثورة ليطبق ما يراه من قوانين حسب هواه أو هوى



حضرة صاحب السمو الملكي الامير مشعل بن عبدالعزيز وزير الدفاع والطيران

رجال حكومته مهما يكن واثقاً من عدلهم وتحرجهم فى الحق.

إن هذا التزمت فى إقامة العدل من أخص ميزات الحكومة السعودية، وإن السعوديين خير من يمثل فكرة العدالة فى العالم الإسلامى جميعاً ، وقد ورثوها عن محمد بن عبدالوهاب الذى أبى أن يقيم الحد على زانية إلا بعد لأى، فقد جاءته معترفة بجريمتها ، فقال لها لعلك قد غصبت أو أنك فقدت عقلك ، فأكدت جرمها وطلبت إليه أن يقيم عليها الحد ، فصرفها ووعدها بلقاء آخر ليسأل ويطمئن إلى سلامة عقلها ، فتأكد أنها راشدة عاقلة فلما عادت أقام عليها الحد !

وهكذا تساس أمور المملكة السعودية . لا يمكن أن يؤخذ إنسان بجريرة إلا بعد تحقيق وتدقيق لا تعرفه إلا حكومات العالم المتحضر ، ولا يقضى قاض فى مسألة إلا بعد أن يناقش رأيه وضميره مرات ومرات

إن إنسان الجزيرة يرعى دولته فى إطار الدين ، ولا يخطو فى عمل من الأعمال إلا على ضوء هذا الدين ، فهو مؤمن إيماناً عميقاً بأن الإسلام ، وعى شئون الدين والدنيا جميعاً ، ولا يجب أن يستبد برأى فى دينه أو دنياه « إن الدين — كما يقول فى خطاب لرعاياه — نصيحة ، وأنا منكم وأنتم منى . وهذه عقيدتنا فى الكتب التى بين أيديكم ، فأن كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه ، وسلونا عما يشكل عليكم فيها ، والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء فى كتب الحديث والسنة . . . »(١)

إذا أشكل على الرعايا والمواطنين رأى من الآراء ، فلهم أن يسألوا « طويل العمر » أو عماله أو قضاته ، وإذا لم يعجبهم رأيه أو رأى عماله وقضاته فلا حرج ولا ضيق . فهناك حكم ، بين الراعى والرعية ، وهو ما جاء فى كتاب الله وفى كتب الحديث والسنة ، وليس الرأى للإمام ابن حنبل — وعنه أخذ مذهب الوهابية الذى

---

١ — الريحاني ج ٣ ص ٣٣٩ الطبعة الثانية

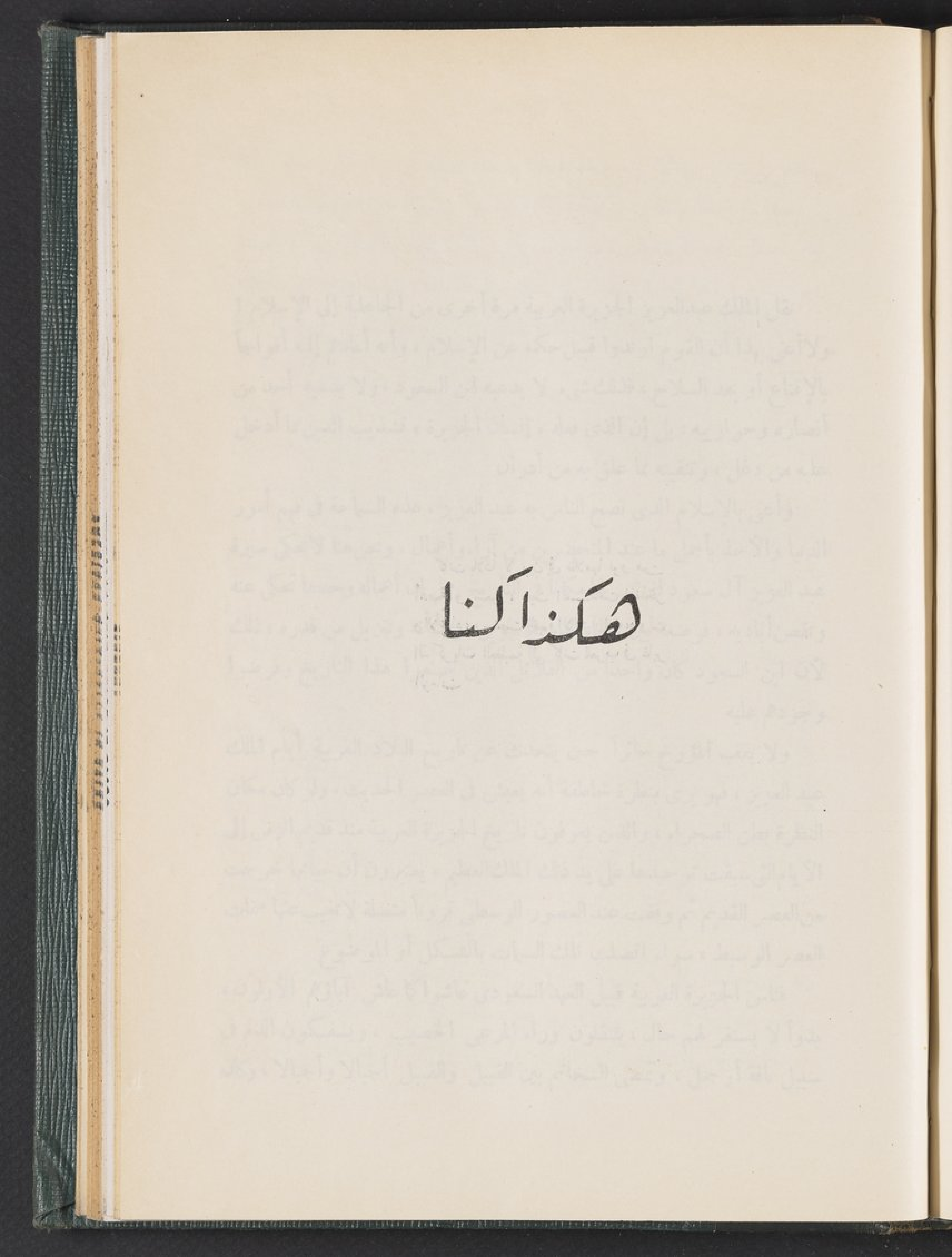
يمثله الحاكم الجديد فى بلاد العرب — بل الرأى كما قال لكتاب الله وسنة رسوله، فالمسلمون سواء لديه، ليس هناك فرق بين شافعى أو حنفى، فأنهم جميعاً فى الإسلام مسلمون، وإنه لينذر كل مسلم يعتدى على مسلم لاختلاف معه فى المذهب الدينى بأوخم العواقب وأقسى العقوبات

وقد خشى الملك أن يفسد عليه بعض الرعايا المرائين دينه بالملق والدهان، ولم يرتح للمدرسة القديمة من الحجازيين التى تكيل المدح والثناء لولى الأمر من غير حساب، وراعه أن يبدأ حكمه فى الحجاز بعد أن بويع به هذا البدء السيء الذى قد يفتنه فى دينه ودنياه، فخطب من أزجوا له الثناء وحلقوا بالمدح فى الفضاء وقال «أسمع خطباءكم يقولون: هذا إمام عادل. هذا كذا وكذا... فاعلموا أن ما من رجل، مهما بلغ من المنازل العالية، يستطيع أن يكون له أثر وأن يقوم بعمل جيد إذا كان لا يخشى الله، وإنى أحذركم من اتباع الشهوات التى فيها خراب الدين والدنيا، وأحثكم على الصراحة والصدق فى القول، وعلى ترك الرياء والملق فى الحديث. لم يفسد الممالك إلا الملوك وأحفادهم، والعلماء المتملقون وأعوانهم. ومتى اتفق الأمراء والعلماء ليتستر كل منهم على صاحبه، فيمنح الأمير المنح والأمراء يدلسون، ضاعت حقوق الناس، وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى» إلى أن يقول «وإنى أحمد الله الذى جمع الشمل وأمن الأوطان. ولكم علىّ عهد الله وميثاقه أن أنصح لكم كما أنصح لنفسى وأولادى» (١)

الدين فى الدنيا... فقد أصبح عبد العزيز ملكاً على الحجاز، فما أن بويع حتى وقف بين الناس وخطبائهم ينصحهم بألا يداهنوا ويصرفهم بالحسنى عن الملق والرياء، ويبصرهم بأن دينهم خير من دنياهم، ويستعيذ بالله من التدليس وتضييع الحقوق، ويعطيهم عهد الله وميثاقه أن يكون حفياً بهم عطوفاً عليهم، قريباً إليهم كما يصنع مع نفسه وأولاده

إنه يريد تاريخاً جديداً للحرمين، فكيف صنع هذا التاريخ؟

١ — الريحانى ج ٣ ص ٣٩٠ الطبعة الثانية



هكذا آلنا

كانت بلاداً لا يبين فى ظلامها نور من
أدب أو شعر ، حيث انعـــدمت المفاخر
والأمجاد، وسقطت القيم والاعتبارات،وولت
الذكريات العظيمة التى كانت للعرب فى غابر
الزمان

نقل الملك عبدالعزيز الجزيرة العربية مرة أخرى من الجاهلية إلى الإسلام !
ولا أعنى بهذا أن القوم ارتدوا قبيل حكمه عن الإسلام ، وأنه أعادهم إليه أفواجاً بالإقناع أو بحد السلاح ، فذلك شيء لا يدعيه ابن السعود ، ولا يدعيه أحد من أنصاره وحوارييه ، بل إن الذى فعله « إنسان الجزيرة » تشذيب الدين مما أدخل عليه من دغل ، وتنقيته مما علق به من أدران .

وأعنى بالإسلام الذى نصح الناس به عبد العزيز ، هذه السماحة فى فهم أمور الدنيا والأخذ بأجمل ما عند المتحضرين من آراء وأعمال ، ونحن هنا لا نحكى سيرة عبد العزيز آل سعود لنرتب لها مكاناً فى التاريخ ، بل إن أعماله وحدها تحكى عنه وتقص أياديه ، فوضعه بين عظماء التاريخ تهوين من شأنه وتنزيل من قدره ، ذلك لأن ابن السعود كان واحداً من القلائل الذين صنعوا هذا التاريخ وفرضوا وجودهم عليه .

ولا يقف المؤرخ حائراً حين يتحدث عن تاريخ البلاد العربية أيام الملك عبد العزيز ، فهو يرى بنظرة خاطفة أنه يعيش فى العصر الحديث ، ولو كان مكان النظرة بطن الصحراء ، والذين يعرفون تاريخ الجزيرة العربية منذ قديم الزمن إلى الأيام التى سبقت توحيدها على يد ذلك الملك العظيم ، يعتبرون أن حياتها خرجت من العصر القديم ثم وقفت عند العصور الوسطى قروناً متصلة لا تغيب عنها سمات العصر الوسيط ، سواء اتصلت تلك السمات بالشكل أو الموضوع .

فناس الجزيرة العربية قبيل العهد السعودى عاشوا كما عاش آباؤهم الأولون ، بدواً لا يستقر لهم حال ، يتنقلون وراء المرعى الخصيب ، ويسفكون الدم فى سبيل ناقة أو جمل ، وتمضى السخائم بين القبيل والقبيل أجيالا وأجيالا ، وكان

الثأر قاعدة الحياة ، وشُغلت أيامهم بالسفاسف من الأمور ؛ وتولى بعضهم صناعة السلب والنهب حتى إن الحكومة التركية بنت فى قلب الصحراء الدساكر لضبط الأمن والنظام ، ولم تتمكن برغم ما بذلت من الحيلولة دون السطو على عباد الله والفتك بالسابلة ، فقد كان قطاع الطريق يسيطرون على المفاوز ويفرضون الضرائب على كل عابر سبيل ، ووزع قطاع الطرق مناطق نفوذهم فكان العابرون لا يفرغون من دفع ضريبة لفئة منهم حتى تستقبلهم فئة أخرى وتزيد عليهم فى الضرائب والمكوس ! وكان التاجر يدفع تلك المكوس كل خمسة أو عشرة أميال وكان بعض التجار يقطعون فى الرحلة ثمانمائة ميل ! فانظر كيف كانت تخضع اقتصاديات البلاد للغصب والإرهاب ؟ . .

وعاشت معظم الصحراء دويلات صغيرة يخاصم بعضها بعضا ، ويكيد بعضها لبعض ، وأتاحوا بذلك فرصة ذهبية لتدخل الأجانب من إنجليز وأتراك وألمان وروس وفرنسيين وإيطاليين ، وكانت كل دويلة من تلك الدويلات العربية لها قلاعها ولها أبوابها وأسوارها ، تماماً كما كانت الحال فى العصور الوسطى عند الغربيين ، وكانت كل دويلة لها طابعها ونظام حكمها وطريقة قضائها ، وفى قلب هذه الأسوار والقلاع ارتكبت المخازى باسم الأخلاق والدين .

وكان الناس يعتقدون أن البلاد العربية لن تخرج من النظام الإقطاعى ولا من تلك الفوضى يوماً من الأيام ، وأن الفروق بين خلائق القبائل وطبائع الأمراء أقوى من أن يختصرها سيف ومدفع ، ولا يمكن بحال أن تقرب بينها المحن والخطوب مهما يُبذل من جهود ومحاولات ، وقد بذلت فعلا الجهود والمحاولات وباءت جميعاً بالفشل على مر الأيام .

وكانت القبائل ينظر بعضها إلى بعض كما ينظر الهنود الحمر إلى المستعمرين من الأمريكان ! وكانت الدويلة على الخليج الفارسى أو على البحر الأحمر تقيم علائق الود ووشائج المحبة مع انجلترا أو تركيا أو روسيا ، وتأبى ذلك على جارتها العربية



حضرة صاحب السمو الملكى الأمير الشاعر عبدالله الفيصل وزير الداخلية والصحة

الأصيلة التى تربط بينها روابط الدين واللغة والجنس ، وكان يجب أن تربط بينها أيضا المثل والأهداف .

ومما يذكر أن الجزيرة العربية قبيل الحكم السعودى كانت شديدة الملامح بالهند فى ذلك الزمان ، دويلات وإمارات ما أنزل الله بها من سلطان ، تخضع للألاعيب الاستعمارية خضوعاً منقطع النظير .

وقد استغل الاستعمار الأجنبى الجزيرة العربية وأمراءها استغلالا يدل على سذاجة حكامها ، من شيوخ وأمراء فنفث الخلافات بينهـا بأساليبه المتباينة حتى استطاع أن يجعل بعضها يتهم البعض الآخر بالكفر والإلحاد ، وهى جميعاً تدين برسالة محمد عليه السلام !

واستغل الاستعمار الأجنبى طبيعة الأعراب ، فأثار نخوتهم وشغل أفكارهم بالغزو والفتح ، حتى لم يقم قط سلام يوماً واحداً فى جميع أرجاء شبه الجزيرة ، وكيف يقوم سلام بين قوم يتنازعون ويتنابذون لا من أجل هدف كريم بل من أجل تحقيق سيطرة أجنبية انتشر سلطانها وتعددت مصادره من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ؟

ومما يذكر أيضاً أن القوم — قبل توحيد الجزيرة على يد عبد العزيز آل سعود — لم ينسوا رسالتهم الدينية فحسب بل نسوا صيتهم البعيد ، وإشراقهم فى التاريخ كمصدر عظيم ونبع فياض للشعر والأدب ، فمرت الأجيال يزاحم بعضها بعضاً دون أن تكشف عن أديب أو شاعر ، وبذلك فقدت بلاد الآداب والفنون أجمل ما أثر عنها من هذا الترف العقلى الذى اشتهرت به بعد ظهور الإسلام بل اشتهرت به فى الجاهلية ، حين كانت الفطرة سليمة والذوق أصيلا ودقة البيان شيئاً يفوق التصور والخيال .

وكيف تريد أن يزدهر أدب أو شعر ، أو يظهر كاتب بليغ أو شاعر فحل والعواطف البشرية قد هانت فأصبحت عراكاً على الصغائر ، وازدحاماً على

النفايات ، وجرياً وراء أحط النوازع والرغبات ؟

إن الشعر والأدب والعلم والفن والفقه والدين لاتقوم لها قائمة إلا فى أعطاف المفاخر والأمجاد ، ولم تكن البلاد إلا فى أشد أيامها ظلاماً ، وبلاد تلك حالها لا يبين فى ظلامها نور من أدب أو وشعر أو غير ذلك من الفنون الرفيعة حيث انعدمت المفاخر والأمجاد ، وسقطت القيم والاعتبارات ، وولت الذكريات العظيمة التى كانت للعرب فى غابر الزمان .

لم يكن عند العرب قبيل ظهور عبد العزيز فلسفة أو عقائد يختلفون عليها ويشغلون بها عقولهم وقلوبهم وسط تلك الفوضى التى ضربت أطنابها فى أرجاء الجزيرة ، بل سادت الشعوذة الحاكم والمحكوم على السواء . وكانت البلاد فى حاجة إلى مصلح جديد لا يوظف لسانه فقط ، بل يستعمل سيفه عند اللزوم ، وقد كان هذا المصلح « إنسان الجزيرة ، عبدالعزيز آل سعود . . .

لقد كانت الجزيرة قبيل حكمه فرقاً وأحزاباً فوحدها ، وكانت لقمة سائغة فى أفواه المستعمرين فحال دون ازدرادها ، وكانت تطبق قواعد الدين دون وعى أو فهم وفى شىء يشبه الإلحاد ، فردها إلى حقيقته وطهارته وأعلى سلطانه على سلطان الأمراء والشيوخ والملوك ، وكان الأمن مفقوداً فأشاعه فى كل مكان

وكانت الخرافات عماد الحياة الاجتماعية فى الجزيرة قبل توحيدها ، وكانت طرائق النظر إلى الحياة عامة تستلهم عصر الجاهلية الأولى ، وكل جديد من حضارة اعتبر من عمل الشياطين ، فالساعة نقرات شيطان والراديو والتليفون واللاسلكى لسانه ، والسيارة والطائرة والدراجة أدواته ، وكراهيتها ومكافحتها عمل من أعمال الجهاد فى سبيل الإسلام !!

أرأيت كيف كنا فى جزيرة العرب قبل خمسين عاماً ؟ فلنمض مع سيرة الملك ، لنرى بعد قليل كيف أصبحنا أمة تعرف دينها ودنياها ، ولا تحيد أبداً عن واجباتها الإسلامية ، ولا تفتقد أبداً كل طريف مفيد فى حياتها المدنية . . .

مقارنات بين حكام الجيل

. . . وهتلر رجل قاس لاتعرف الرحمة
قلبه ، قاس حتى على الجنس الآرى . . . .
بينما ابن السعود مفطور على المودة والعطف
فقد عزل حاكماً أثيراً لدى قلبه ولا غبار
عليه فى دينه وذمته ، عزله لأنـــه اشتهر
بالقسوة بين رعاياه !

فى مثل هذه الفوضى التى كانت تعيش فيها الجزيرة العربية استطاع عبدالعزيز آل سعود أن يحقق المعجزة فيوحد بين أرجائها الشاسعة وأهدافها المتباينة ، ويقيم فيها حكومة متحضرة ودولة مستنيرة ، ويبز جميع معاصريه البارزين ، وكان أوج نجاحه يمشى مع نجاح أقرانه ، أتاتورك وموسولينى وهتلر ، والفرق بينه وبينهم واضح عميق ، فهو خالق لكل شيء جديد ، ومبتكر لقواعد الملك ومقوماته ، وإمكانياته لتحقيق ذلك ضئيلة بشكل ملحوظ

أما أنداده الثلاثة ، فحكموا شعوباً موحدة ذات أهداف وتقاليد ، وأخذ كل منهم يقلد أخاه فى أسلوب الحكم وطرائق النظر إلى الحياة ، وهم جميعاً مقلدون لمن سبقهم فى أجيال التاريخ ، فكان موسولينى يقلد قياصرة الرومان ، وكان هتلر يتأثر بسمارك فى كثير من الأفكار والآراء ، وكان أتاتورك نسيج وحده وإن كان أقام ملكه فى أضيق الحدود ، وعلى حساب إمبراطورية حضر تصفيتها وشيع بسياسته تاريخها التليد ، وأجمل ما فى هذه المقارنة أن الملك عبد العزيز توطد عرشه وعاش ببعد النظر وحسن التوجيه ، وغيره من معاصريه فقدوا مابنوه نتيجة سوء التقدير ، ونتيجة الاستبداد السياسى العتيق الذى سيطر على عقولهم وورطهم فى أفعال لاتمت إلى الإنسانية بصلة ، وتاريخ هتلر وموسولينى فى هذا الباب خير مثال على تأييد ماذهبنا إليه من أقوال .

لاشك أن ابن السعود يختلف كل الاختلاف مع هتلر وموسولينى فى الطرق التى اتبعها كل منهم فى تكوين إمبراطوريته وإقامة نظم الحكم فيها ، وقد يتفق ملكنا فى توحيد الجزيرة مع ماتزينى وغاريبالدى فى توحيد إيطاليا ، ويتفق قليلاً مع بسمارك فى إقامة الدولة الألمانية الحديثة ، وكل دارس للتاريخ الحديث يستطيع

أن يتبين وجه الاتفاق فى هذا المعنى ووجه الخلاف السطحى أو العميق بين الثلاثة فى توحيد تلك البلاد

وأنت ترى أن الزعيمين الأوروبيين من أهل الدنيا ، بل لعلهما حاربا الدين فى سبيل الدنيا ، وعبد العزيز صاحب مذهب دينى وله فيه رسالة ،قبل أن يكون ملكاً أو سلطانا .

وألمانيا الهتلرية تعنى سيادة الشعوب ، وسيادة الشعوب عندها مرجعها الجنس ، الجنس الارى المصفى ، صاحب العقل والفكر والضمير ، وكل الأجناس عنده لا عقل لها ولا فكر ولا ضمير ، وابن السعود يرى الدنيا كلها خيراً ومحبة ، والناس جميعاً سواسية ، تلبية لأوامر دينه التى تنهى عن الاستعباد والاستبداد والتعالى والكبرياء

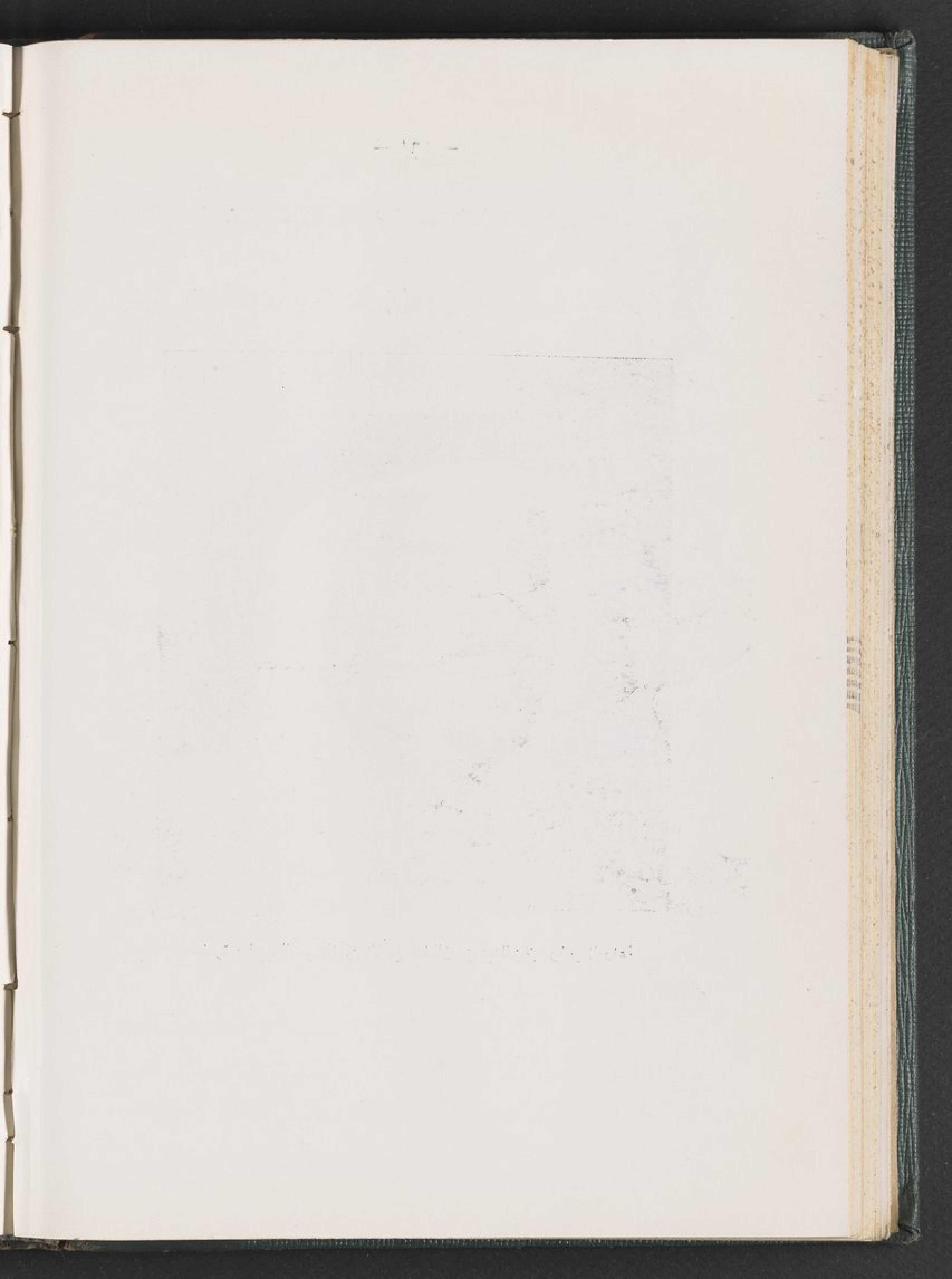
وهتلر رجل قاس لا تعرف الرحمة قلبه ، قاس حتى على الجنس الآرى إن نسى الجنس الآرى تعليماً من تعاليم سيده الجديد ، وهو القائل « يجب أن نكون قساة وأن يطمئن ضميرنا إلى القسوة » بينما ابن السعود مفطور على المودة والعطف ، فقد عزل حاكما أثيراً لدى قلبه ولا غبار عليه فى دينه وذمته ، عزله لأنه اشتهر بالقسوة بين رعاياه !

فالمقارنة إذن بين الحكام الثلاثة فى الرسالة التى أخذ بها كل منهم نفسه ، فيها شىء من المغالطة ، وهى المغالطة التى حشا بها الفرنجة كتبهم ومقالاتهم ، كلما عرضوا لمبادىء الملك عبد العزيز ، ومن عجب أن تفوتهم تلك الحقائق فى الفروق بينه وبين أعلام الجيل من حكام أوروبا ، وهى فروق أساسية فى معالجة الأمور السياسية وسائر شئون البلاد

وانظر بعد ذلك إلى عقلية الملك الجبارة التى هضمت كل جديد هضمها التعاليم الدين الصحيحة ، وإنك بالمقارنة والملاحظة ، تراه أسبق من الأوروبيين أنفسهم أصحاب هذا الجديد ، ولسنا فى هذا الرأى مبالغين ؛ وحسبنا أن نذكر أن الإنجليز ،



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز وزير الزراعة



بل زعماء الإنجليز وساستهم الكبار ثاروا ثورة عنيفة حين استعملت القطر الحديدية، وحاربوها بالقوة وأعدوا فى برلمانهم قوانين وتشريعات تقف هذا الجديد الخبيث الذى جاء يزعج أغنامهم وأوزهم ؟ ! ! وعلى هذا الغرار اعتبر الأتراك منذ قرنين المطبعة عملاً شائناً ووسيلة دنيئة جاءت بها بربرية الغربيين، واجتمع مفتيهم ورجال الدين منهم ، وقرروا أن المطبعة رجس من عمل الشيطان ! وضج رجال الدين فى مصر حين عرف الحاكى (الفونوغراف) طريقه إلى المجتمعات والمنازل ، وحاربت أوروبا كلها مغازل الصوف حين اخترعت ، واعتبرت هذا الاختراع عملا يزلزل كيان المجتمع ويفسد طبائع الناس !

فماذا صنع ابن السعود فى تحضير الصحراء ؟ هناك ألف دليل ودليل على أنه كان أفهم للأمور وحاجات الحياة من الأوروبيين والأتراك والمصريين ، ويكفى أن نعلم أول ما نعلم أنه لم يحارب قط واحداً من رعاياه تطلع للعلم والإدراك، ولم يمنع حتى أولئك الذين أقبلوا على دراسة حضارة الإغريق والرومان ، لعل الوطن يستفيد من الدرس والتمحيص، ولعل فى هذا خيراً للحكومة والمحكومين . . .

ولقد توسع « طويل العمر » فى هذه البعوث العلمية ، ووفر لها المال الكثير وشجع كل مجتهد على أن يطلب العلم ولو فى الصين ! وأن يأخذ الحكمة « من أى وعاء خرجت » ، وجعل التعليم فى بلاده حقاً مباحاً لكل مواطن ، على اعتبار أنه فريضة واجبة من الحكومة نحو رعاياها ومن رعاياها نحو أنفسهم ، وقامت الدولة عنهم فى التكاليف والنفقات . . .

وكان ذلك كله تنفيذاً لتعاليم الإسلام الصحيحة فى هذا الميدان من الحضارة التى أُثرت أول ما أثرت عن الإسلام والمسلمين فى أزهى أيام الإسلام والمسلمين

لم يكن ابن السعود متعصباً قط ، وكان المفروض فى وهابيته كما فهمها بعض المسلمين والأجانب ذلك الفهم الخاطىء ، أن يكون زعيم المتعصبين ، ومع ذلك

فأن سماحته ووعيه فى فهم شئون الدنيا محا الأفكار الشائنة عن الوهابية وكفلها وأعان عنها أحسن الإعلان

لم يفعل قط ما فعله البابوات ، فأمر بقط لسان صاحب فكرة أو داع إلى رأى جديد كما صنع حماة الدين المسيحى الأقدمون ، وليس فيه تعصب قدامى زعماء أوروبا لأوطانهم وأديانهم وأجناسهم ، بل إن تعصبهم لا يزال قائماً وقوياً إلى اليوم ، وهو موجود فى أرقى أمم الأرض التى تزن المواطن بلونه ، وقد تزنه بجنسه وتعمل على اجتثاث أصوله إذا اختلف معها فى اللون والدين

وإنك لتعبر الجزيرة العربية — فيما خلا الحرمين — فتجد الأمريكان والإيطاليين والألمان والفرنسيين وغيرهم من سائر الأمم والملل يقيمون بين ظهرانى العرب فى المدن والصحراء ، وينافسون فى كل عمل منتج بأشراف الحكومة أو بتوجيه أصحاب الأعمال السعوديين ، وإنك لتجد كل مظاهر الحياة الأوروبية الرفيعة فى كل بيت على غرار لم يعرف قط قبل توحيد الجزيرة تحت علم الإمام ابن سعود ، وإنك لتجد أيضاً السعوديين فى القاهرة وبيروت وباريس ولندن ونيويورك وفى كل مكان من المعمورة يتلقون العلم أو يسعون للرزق الحلال ، ويتسقطون أخبار الجديد الذى يفيد بلادهم من النواحى الاجتماعية والأدبية والاقتصادية شأنهم شأن أى جماعة متحضرة غاية التحضر ، وكان ذلك الأمر عملاً إذاً فى سابق الأيام ؛ ومعنى هذا أن المسيحيين يعيشون جنباً إلى جنب مع حملة مشعل الدين الإسلامى ، وكذلك يعيش السعوديون إلى جانب المسيحيين فى بلادهم ، وهذا لا يتأتى فى دولة غير متحضرة ، أو قل كان ذلك نادراً قبل عهد «إنسان الجزيرة» عبد العزيز آل سعود

الانقلاب الأكبر

. . . ولم يحفظ لنفسه شيئاً حتى مات ،
فلفوه فى «مشلحه» فلم يكن الملك يقتنى لنفسه
حريراً ولا دمقساً ، ولم يساهم فى شركة
أو مصنع ، ولعله مات أفقر من عامة رعاياه . . .

الانقلاب الأكبر فى نظرى هو ذلك الذى صنعه ابن السعود فى « تمدين » الصحراء ، فهو يعلم أن العرب بطبعهم لا يرضون حياة رتيبة لا كر فيها ولا فر ، وأن فخرهم فى هذه الحياة قائم على الشجاعة ، ومن الشجاعة ألا تترك ثارك أو تتنازل عن حقك ولو أدى الأمر إلى امتشاق الحسام وسفك الدماء ، وقد روعه فى صدر حكمه أن بعض رعاياه لا يعرف قواعد الدين الأصلية من صلاة وزكاة وحج وغير ذلك ، أو أنهم يعلمون من أمرها الشىء القليل ، أو أنهم يعلمونها ولا يقومون على أدائها ، فاستعان بالدعاة الموجهين الذين أخذوا يبصرون القبائل بثواب الآخرة والدنيا إذا قاموا بواجباتهم الدينية وأدوها الأداء الحسن ، وابتعدوا عن القتل والنهب والاعتداء على الخصم لأهون الأسباب ، واستطاعت حملته أن تبلغ غايتها فى كثير من الجهات .

ثم استعان بالمال والدعاة مرة أخرى على « توطين » العرب الرحل فى بيوت يلجأون اليها فى حمارة القيظ أو قر الشتاء ، ثم مسح الأرض ووزعها وأقام المساجد حتى وجد العرب قرى صغيرة تختلف فيها حياتهم عن ذى قبل ، ووجدوا فيها طراوة العيش ، فأكلوا وشربوا وناموا وظنوا أن إقامة الصلاة وأداء سائر الواجبات الدينية هى غاية ماترجوه منهم الحكومة الجديدة ، فمضوا فى حياة رتيبة وكرهوا العمل واستمرءوا الكسل ، وظنوا مرة أخرى أن تلك الحياة هى غاية الغايات !

ولم يفكر « طويل العمر » قط فى أن توطين الرحل يعنى البطالة بين رعاياه فأطلق دعاته مرة ثالثة وعلى رأسهم جلة من العلماء يذيعون فى الناس أن العمل من أجل الرزق والسعى وراء لقمة العيش ، والجد فى سبيل متاع الدنيا من أوجب

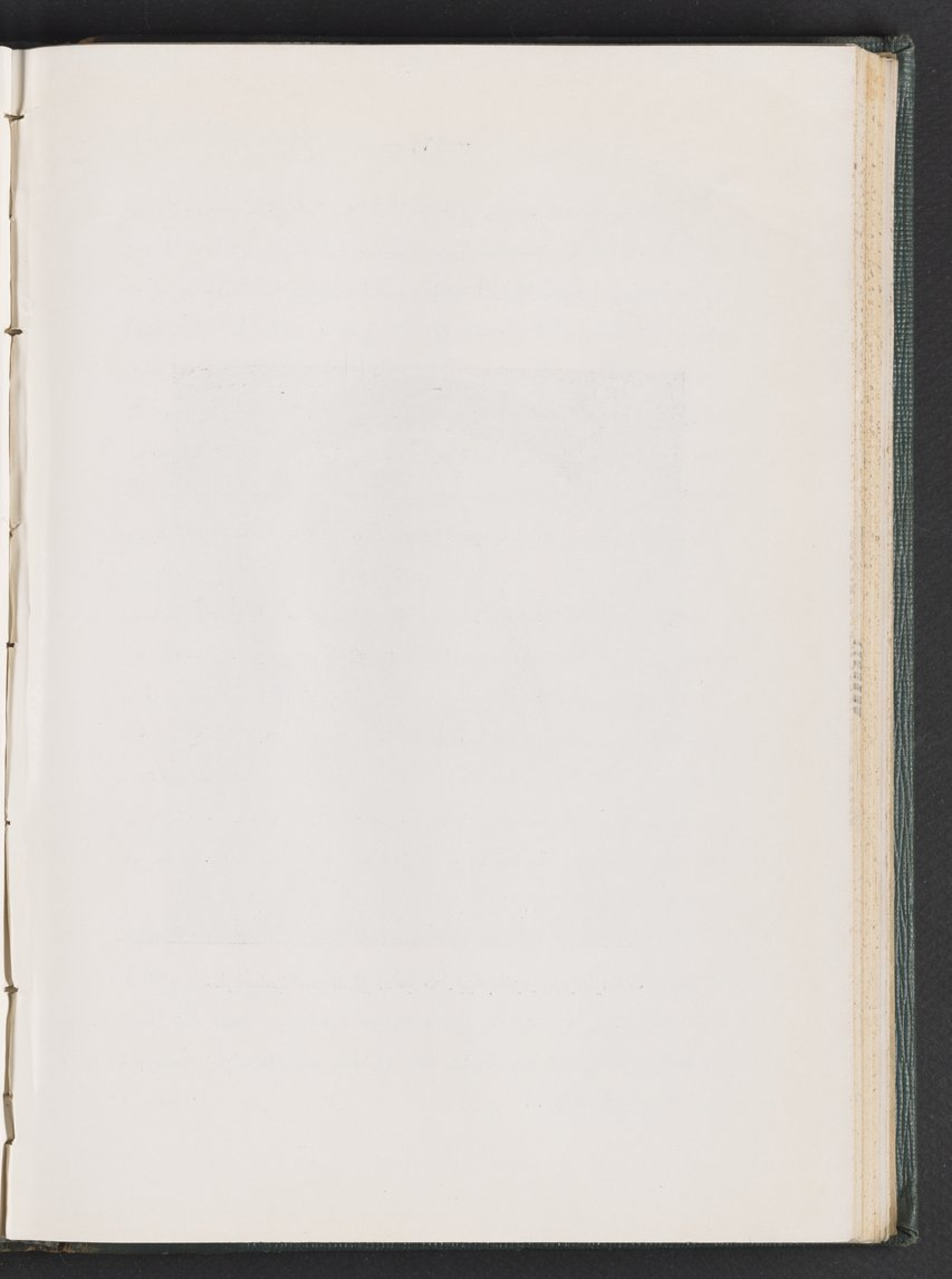
واجباتهم نحو دينهم ووطنهم وأنفسهم ، وأن الله لا يحب الكسالى المتراخين ولا يرضى عن التهاون فى أداء الواجبات الدنيوية ، ويكره ديناً بلا عمل كما يكره العمل بلا دين وأخذوا يضربون لهم الأمثلة فى الأنبياء وسيدنا محمد بالذات ، هذا الذى سعى مرات ومرات أشد السعى وأعنفه ليحصل على قوت يومه من عرق الجبين ، ثم قصوا عليهم عشرات القصص التى توضح لهم الكفاح الذى كافحه الخلفاء الراشدون من أجل إدامهم وقوت عيالهم حتى يبرءوا من تهمة الكسل ويرضوا الله والدين ، وذكر العلماء والدعاة لبدو الصحراء فيما ذكروا أن عمراً رضى الله عنه كان يُسقط من نظره الرجل الذى لا حرفة له مهما يكن صالحاً ومتديناً ، وكان يقول « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . . . »

وأثمرت حملة الملك خير الثمر فتحضرت الصحراء سريعاً وقامت القرى والمدن الصغيرة فى أرجائها المتسعة ، وأصبح الناس بين زارع وتاجر وصانع وغير ذلك من الحرف وأصبح منهم أيضاً الطلاب والمدرسون ، واتصل هذا التحضير للصحراء بقيام شىء عظيم ، قيام النظام وطاعة السلطان ، سلطان الحق لا سلطان الملوك والولاة كما يظن بعض المؤرخين ، وقضى على كثير من غرائز السوء ومصادر الفتن ، واستطاعت الدولة أن تجند جيشها وتعرف تعداد سكانها وأخذت تنشر بينهم العلم وتقيم لهم المشافى وغير ذلك من أسباب الحضارة التى أخذت البلاد العربية منها بأوفى نصيب .

وإذا أردنا التفصيل فيما صنعه ابن السعود فماذا نقول ؟ نقول إن كفيل الوهابية التى قالوا عنها يوماً إن صدرها أضيق من ثقب الإبرة ، قد أباح لوطنه ومواطنيه حياة مدنية لا تقل عن حياة الغربيين ، هذا إذا فهمنا من الحياة أنها الحياة الرفيعة الرشيدة التى تفيد من خيرات الله دون أن يبطر أصحابها أو يتجاوزوا حدود الدين والأخلاق .



حضرة صاحب السمو الملكى الأمير طلال بن عبدالعزيز وزير المواصلات



لاضرر إذن من أن تنافس السيارة الجمل سفينة الصحراء ! وما ضر الإسلام أن يستعيض عن الجمل بالسيارة إذا كان فى ذلك خير للمسلمين ؟ وماضر الإسلام أن يكون فى كل بيت راديو يستمع فيه النساء والرجال إلى القرآن والأحاديث الطيبة وأخبار الدنيا من علم ودين ؟ وما ضر البدوى لو انتقل من الظهران إلى جده فى ست ساعات وقدكان يقطع المسافة من قبل فى شهور ؟ ألأن الطائرة وفرت عليه الجهد والكفاح فى مفاوز الصحراء ومتاهاتها وقربته من مصالحه وحلت له مشاكله ، يراها شيئاً بغيضاً إلى الدين ؟ لا يقول بهذا إلا كافر بقدرة الذى يخلق مالا تعلمون !

ويشاء القدر أن يكرم « إنسان الجزيرة » ويعطى أيامه الخير والبركة ، ويجعل من بلاده التى أكرمها سبحانه وتعالى ببيته العتيق وأنزله بواد غير ذى زرع بلاداً من أغنى بلاد الله ، فوهبها الزيت يتفجر من أرضها ليكفيها مؤونة السؤال ويحميها من ذله ، فلم تعد منذ ظهر النبع تلو النبع فى حاجة إلى رسوم ومكوس كان من قبله يفرضها على حجاج بيت الله الحرام ، بل سخا فمنح هو العرب فى بلاده وخارج بلاده ما أثر عنه من كف ندية وسماحة فى الكرم فبسط يده كل البسط لجماعات العرب والمسلمين

ولا ينبغى أن نقلل من أهمية هذه العيون التى فجرها الله سبحانه هبة منه ورضى عن عبده « إنسان الجزيرة » فقد أعانه الزيت على أداء التزاماته نحو دنياه ودينه وأثر عنها نشاط فى الصناعة والتجارة ماكان يمكن أن يتكامل للصحراء من غير ذهبها الأسود الذى جاء بفيض من الخير عميم

وإذا ذكرنا الصناعة والتجارة ، فلنذكر معها الأيدى العاملة التى شغلت عمال العرب ، لا من أبناء الجزيرة وحدها بل من سائر بلاد المسلمين ، حتى لتجد التعمير والإنشاء فى البلاد يجاوز حد العقل والتخيل ، فقد خلق هذا النشاط نهضة لا تقارن بها نهضة فى أى بلد عربى ، والذين زاروا جدة مثلا منذ عشر سنوات ، ليقفون اليوم

مشدوهين وهي تقفز — ولا أقول تزحف — بعمائرها وشوارعها وأنوارها نحو مكة المكرمة أو نحو المدينة المنورة دون عوائق أو عقبات

وهكذا تمكن الملك عبد العزيز بفضل الله وخيراته من أن يفتح المدارس ويقيم المشافى ، ويؤمن الناس على صحتهم فيمد لذلك مجارى المياه الصالحة للشرب ويحبسها عن الضياع فيسعد بها الناس فى كل وقت وكانوا ينالونها قبل عهده شحيحة ويشترونها بالقعب والفنجان ! ويقيم السدود لتكون فى خدمة الإصلاح الزراعى ، ثم يمد السكك الحديدية ، وينشىء التليفونات الأوتوماتيكية ، ويضىء المدن بالكهرباء ، فتقوم المصانع والورش وتأخذ البلاد فى نهضة صناعية ليس لها من قبل نظير ، ويصلح الموانىء ويوسعها ويعيد إنشاء القديم منها لترسو السفن الكبيرة فى أمان ، ويمهد الطرق فترتبط البلاد بشبكة من المواصلات نادرة المثال ، ويعفى التجار من الجمارك ويقرضهم فى الأزمات حتى تزهر هذه الطبقة المتوسطة التى كانت فيما مضى محجوبة الجهد وفيها خير عناصر الأمة وعياً وفهماً لشئون الحياة

وكون الملك للبلاد أول جيش نظامى تعرفه المملكة العربية السعودية ، وكان من قبل شراذم تجمعها الغنيمة ويفرقها نزول الأمطار ! وهو جيش مدرب على أحسن النظم العسكرية ، وعدته من أفضل طراز ، ومقسم بين البر والجو ، وفيه وحدات تركب المصفحات والدبابات

وأهمية هذا الجيش ، بعد تسليحه وإعداده ، تأتى فى المقام الأول فى حياة الشرق العربى ، لأن العرب مشهورون بجلدهم وصلب قناتهم إذا دعا الداعى إلى امتشاق الحسام ؟ وهم فى ميادين الوغى أعلام ، ولهم فى تاريخ الحروب تاريخ عظيم ، وبذلك ضمنت البلاد العربية قوة عسكرية ذات عدد وعتاد ، ولم تكن منذ قرن شيئاً يدخل فى الحساب كلما فكر أحد فى رسم خريطة الشرق العربى ، وكم مرة رسمت خريطته على هوى الأجنبى حين افتقد قوى العرب فى كل مكان ؟!

ولم يقف الأمر عند تكوين جيش عربي يماثل خيرة الجيوش العربية ، بل مضى مفكراً فى إنشاء صناعات حربية تمد هذا الجيش بالعدة والعتاد ، وقد أكمل الملك سعود فكرة « تعريب » أدوات الحرب ورسم الطريق نحو إنشاء المصانع الحربية مستعيناً فى ذلك بخبراء العرب ، مجنداً لهذا الأمر كل ما فى وسعه من جهد ومال

وسمح « الشيوخ » بأصدار الصحف والمجلات تنويراً لشعبه وتثقيفاً لخاصته، وزاد فى هذه النواحى فأوفد بعوث الطلبة إلى أقاصى الأرض ليأخذوا من العلم ويغترفوا من الفن والأدب بأوفى نصيب ، وأنشأ السفارات بينه وبين دول العالم على اختلاف الملل والنحل ، وفى ذلك تعريف لوطنه وإعلاء لكلمته فى المحيط الدولى ، ومشاركة منه لحياة الجماعة السياسية والاجتماعية فى العالم ، وأخيراً وظف كل أموال الزيت التى أنتجتها بلاده لصالح بلاده ، ولم يحفظ لنفسه شيئاً حتى مات فلفوه فى « مشلحه »[1] ، فلم يكن الملك يقتنى لنفسه حريراً ولا دمقساً ، ولم يساهم فى شركة أو مصنع ، ولعله مات أفقر من عامة رعاياه ، فرجع بذلك إلى ربه مطمئن النفس رضى البال ودخل جنته فى رفقة الكرام الصالحين

وغاية الأمر فى الانقلاب الذى أحدثه الحكم السعودى فى الجزيرة العربية أنه أشعر أبناءها أن هناك حكومة قد أخذت على عاتقها أن تسعى ماوسعها الجهد لإسعادهم والقيام عنهم بحاجاتهم ، وسد مطالب البلاد المادية والأدبية ووضعها فى المكان الملائم بين الأمم والدول المتحضرة ، وأصبح أسلوب الحكم السعودى موضع النظر والاعتبار من سائر الممالك والإمارات فى الجزيرة ، فنهج معظمها نهجه وضرب أكثرها على وتره ، فشاعت فيها موجة من التحضر منقطعه النظير

كل هذا الذى ذكرناه ، وهو طرف من أعمال عبد العزيز آل سعود ، كان فى

---

١ — هو مانسميه فى مصر العباءة

فى العهد السابق على حكمه ، لوناً من الترف فى جهة من الجزيرة وكفراً وإلحاداً فى أكثر أنحاء البلاد ، كان ترفاً لا يعرفه إلا الأمراء والملوك ، أما خاصة الشعب وعامته فليس لهم حق أو نصيب فى هذا الترف المزعوم ، على أن هذا الترف كان فى أضيق الحدود فلم تكن البلاد تعرف إذ ذاك طرقاً أو طائرات أو سيارات أو تعليما أو إصلاحاً يقصد به وجه الشعب أو يقصد به الصالح العام ، وما أقل ما كان الصالح العام موضع النظر والاعتبار !

متاعب المجددين

لقد أبي عبدالعزيز آل سعود أن يسرق
تأييد الناس بالقوة إن عجز عنه باللطف والإيناس
فعرض قضيته متعالياً بما من الله عليه من
فضل ، متواضعاً حين يلتقي ورعاياه عند كلمة
الحق والدين

يجب أن نذكر أن ماقام به « إنسان الجزيرة » من إصلاحات لم يتم فى هدوء أو دون متاعب ومشقات ، فقد قامت من أجل هذه الإصلاحات بعض الثورات التى لم يرض أصحابها عن الجديد الذى أدخله للبلاد ابن السعود ، ومن بين الذين لم يعجبهم الحال أنصاره من « الإخوان » وهم عدته فى الحرب وأدوات نصره فى كثير من الوقائع والحروب ، فقد ساءتهم السيارة والدراجة والتلفون واللاسلكى وكرهوا الإذاعة خاصة واعتبروها عنواناً رائعاً للشيطان ، وقد مضوا يقطعون الأسلاك التليفونية ويحطمون آلات الراديو كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وعالج الملك الأمر بالحكمة والروية ، فاجتمع بالغـــلاة من أصدقائه الوهابيين الساخطين على هذه الخرافات ناقلة البدع فى جميع الساعات واللحظات ، وسأل جمعهم : هل يجوز أن ينقل الشيطان ــ أى آلة الراديو ــ آيات القرآن الحكيم فأجابوا بالنفى واستعاذوا بالله أن يأتى قوله على لسان شيطان ! فقال الملك إذن استمعوا... وأدار مفتاح الآلة وإذا القرآن يتلى من مقرىء ذى صوت رخيم! وآمن الإخوان بفطنة الملك وتذكروا أن الله يخلق مالا يعلمون؟! وهكذا حدث فى أمر التلفون وأمر اللاسلكى وسائر الآلات التى تفيد ولا تسىء إلى خلق أو دين .

غير أن هذا العلاج الذى ظنه الملك قاطعاً مانعاً فى تبصير مواطنيه بفوائد الجديد الذى أدخله على مملكته لم يرض المنافسين الذين ظنوا أن ثورة باسم الدين كفيلة بهدم هذا الملك الذى شاده ابن السعود بالدم وعرق الجبين ، فأذاع فيصل الدويش أن ابن السعود قد انحرف عن الدين وتنكب الطريق السوية بإدخال اللاسلكى والتلفون وعقد المعاهدات مع الكفار وأنه لذلك غير جدير بطاعة المسلمين

وكانت ثورة عنيفة من الدويش شغلت الملك وملكه العريض ، حتى إنه دعا إلى مؤتمر فى الرياض ، مثلت فيه الطوائف جميعاً ، فكان هناك العلماء والأمراء ونواب الملك ورؤساء القبائل ، وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر من نوعه من حيث عدد الحاضرين، ومن حيث خطورة الموقف ، ويكفى أن نذكر أن الملك اضطر لغضبة المتعصبين إلى إبطال اللاسلكى فى الرياض ، وأهمية هذا المؤتمر أن الملك خطب فيه خطبة من أمتع الخطب التى تشير إلى ديمقراطيته ونزوله عند رأى الجماعة ، وإثبات هذه الخطبة هنا ، بصرف النظر عن معانيها السامية ، ضرورى ، فأنها تضمنت مبادئ جديدة فى نظام الحكم لم تعرفه الجزيرة منذ قديم ، وهى تدل على أن ألوان الحضارة التى دعا إليها ابن السعود كانت نذيراً خطيراً يوجب عليه هذا الاجتماع الضخم ، ويفرض عليه هذا الخطاب الممتع البديع (١)

قال الملك « أيها الإخوان ، تعلمون عظم المنة التى من الله بها علينا بدين الإسلام ، إذ جمعنا به بعد الفرقة ، وأعزنا به بعد الذلة ، واذكروا قوله تعالى «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » . . . إن شفقتى عليكم وعلى مامن الله به علينا وخوفى من تحذيره سبحانه وتعالى بقوله « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » كل هذا دعانى لأن أجمعكم فى هذا المكان لتذكروا — أولا — ما أنعم الله به علينا ، فنرى مايجب عمله لشكران هذه النعمة — وثانياً — لأمر بدا فى نفسى ، وهو أنى خشيت أن يكون فى صدر أحد شيء يشكوه منى أو من أحد نوابى وأمرائى بأساءة كانت عليه أو بمنعه حقاً من حقوقه ، فأردت أن أعرف ذلك منكم لأخرج أمام الله بمعذرة من ذلك وأكون قد أديت ما علىّ من واجب — وثالثاً — لأسألكم عما فى خواطركم وما لديكم من الآراء أو مما ترونه يصلحكم فى أمر دينكم ودنياكم .

---

١ — نقلا عن صقر الجزيرة — أحمد عبد الغفور عطار ص ٥٧٠ وما بعدها



حضرة صاحب السمو الملكى الأمير نايف بن عبد العزيز أمير المدينة

« أيها الإخوان ، إن القوة لله جميعاً ، وكلكم يذكر أنني يوم خرجت عليكم كنتم فرقاً وأحزاباً يقتل بعضكم بعضا ، وينهب بعضكم بعضا ، وجميع من ولاه الله أمركم من عربي أو أجنبي كانوا يدسون لكم الدسائس لتفريق كلمتكم وإضعاف قوتكم لذهاب أمركم ، ويوم خرجت كنت في محل الضعف وليس لي من عضد وساعد إلا الله وحده ، ولا أملك من القوة إلا أربعين رجلا تعلمونهم ، ولا أريد أن أقص عليكم مامنّ الله به عليّ من فتوح ، ولا بما فعلت من أعمال معكم كانت لخيركم لأن تاريخ ذلك منقوش في صدر كل واحد منكم ، وأنتم تعلمونه جميعاً وكما قيل « السيرة تبين السريرة » .

« إني لم أجمعكم اليوم في هذا المكان خوفاً أو رهباً من أحد منكم ، فقد كنت وحدي من قبل وليس لي مساعد إلا الله فما باليت الجموع ، والله هو الذي نصرني ، وإنما جمعتكم — كما قلت لكم — خوفاً من ربي ومخافة من نفسي أن يصيبها زهو أو استكبار ، جمعتكم هنا في هذا المكان لأمر واحد ، ولا أجيز لأحد أن يتكلم هنا في غيره ، ذلك هو النظر في أمر شخصي وحدي ، وأن تجتنبوا في هذا المجلس الشذوذ عن هذا الموضوع ، أما الأشياء الخارجة عن هذا فسأعين لكم اجتماعات خاصة وعامة ننظر فيها .

« أريد منكم أن تنظروا — أولا — فيمن يتولى أمركم غيري ، وهؤلاء أفراد الأسرة أمامكم ، اختاروا واحداً منهم ، ومن اتفقتم عليه فأنا أقره وأساعده ، وكونوا على يقين بأني لم أقل هذا القول استخباراً لأني ولله الحمد لا أرى لأحد منكم منة عليّ في مقامي هذا بل المنة لله وحده ، ولست في شيء من مواقف الضعف حتى أترك الأمر لمنازع بقوة ، ولا يحملني على هذا القول إلا أمران : الأول محبتي راحتي في ديني ودنياي ، والثاني أني أعوذ بالله من أن أتولى قوماً وهم لي كارهون . فإن أجبتموني إلى هذا ، فذلك مطلبي ولكم أمان الله ، فأن من يتكلم في هذا فهو آمن ولا أعاتبه ، لا آجلا ولا عاجلا ، فأن قبلتم طلبي هذا

فالحمد لله ، وإن كنتم لاتزالون مصرين على ماكلمتمونى به على إثر دعوتى لكم ، فأنى أبرأ إلى الله أن أخالف أمر الشرع فى أتباع ماتجمعون عليه مما يؤيد شرع الله .

« فأذا لم يحصل ذلك منكم فابحثوا فى شخصى وأعمالى ، فمن كان له علىّ — أنا عبدالعزيز — شكوى أو حق أو انتقاد فى أمر دين أو دنيا فليبينه ، ولكل من أراد الكلام عهد الله وميثاقه وأمانه . إنه حر فى كل نقد يبينه ولا مسئولية عليه ، وإنى لا أبيح لإنسان من العلماء ولا من غيرهم أن يكتم شيئاً من النقد فى صدره ، وكل من كان عنده شىء فليبينه ، ولكم علىّ أن كل نقد تذكرونه أسمعه ، فما كان واقعاً أقررت به وبينت سببه وأحلت حكمه للشرع يحكم فيه وما كان غير بين وهو عندكم من قبيل الظنون ، فلكم علىّ عهد الله وميثاقه أننى أبينه ولا أكتم عليكم منه شيئاً ، وأما الذى تظنونه مما لم يقع فأنا أنفيه لكم ، وأحكم فى كل ماتقدم شرع الله فما أثبته أثبته وما نفاه نفيته .

« أنتم أيها الإخوان : إبدوا ما بدا لكم وتكلموا بما سمعتموه وبما يقوله الناس من نقد ولى أمركم أو من نقد موظفيه والمسئول عنهم ، وأنتم أيها العلماء اذكروا أن الله سيوقفكم يوم العرض وستسألون عما سئلتم عنه اليوم ، وعما أئتمنكم عليه المسلمون ، فابدوا الحق فى كل ما تسألون عنه ، ولا تبالوا بكبير ولا صغير ، وبينوا ما أوجب الله للرعية على الراعى ، وما أوجب الراعى على الرعية فى أمر الدين والدنيا ، وما تجب فيه طاعة ولىّ الأمر وماتجب فيه معصيته وإياكم وكتمان ما فى صدوركم فى أمر من الأمور التى تسألون عنها ، ولكل من تكلم بالحق عهد الله وميثاقه أننى لا أعانبه وأكون مسروراً منه ، وإنى أنفذ قوله الذى يجمع عليه العلماء ، والقول الذى يقع الخلاف بينكم فيه أيها العلماء فأنى أعمل فيه عمل السلف الصالح إذ أقبل ماكان أقرب إلى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله أو قول أحد العلماء الأعلام المعتمد عليهم عند أهل السنة والجماعة .

« إياكم أيها العلماء — أن تكتموا شيئاً من الحق تبتغون بذلك مرضاة وجهى فمن كتم أمراً يعتقد أنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة .

« إظهروا الحق وبينوه ، وتكلموا بما عندكم »

لم يخطب الملك هذا الخطاب الممتع إلا بعد أن علم بالخطر الذى يتزعمه فيصل الدويش ، فقد كان فى الحجاز حين جاءه نبأ اجتماع « الإخوان » واحتجاجاتهم على إرسال الملك إبنه سعوداً إلى مصر « بلد الشرك » والسماح لابنه الثانى الأمير فيصل بزيارة لندن ، ثم هذه البدع التى أقرها الملك أو أدخلها فى البلاد السعودية كالسيارات والتليفونات واللاسلكى !

وبمجمل القول إن الاجتماع الكبير قد انفض بعد أن أعلن العلماء أنهم يشهدون الله على أنهم ما نصحوا الإمام إلا انتصح ، ولو رءوا فى عمله ما يخالف الشرع لما سكتوا عنه ، وهو بشهادتهم قائم على خدمة الدين وشعائر الإسلام خير قيام لذلك يثبتونه فى ملكه ويجددون له البيعة على السمع والطاعة ، ثم أفتوا فى المسائل التى عرضها عليهم وخاصة مسألة اللاسلكى ، فقالوا إنهم لم يجدوا فى القرآن أو السنة أو فى أقوال السلف الصالح ما يدعو إلى تحريم اللاسلكى ، وإن من يقول بالتحريم يفترى على الله كذبا

هذه القضية ، قضية اللاسلكى وما إليه من ضروريات الحياة الحديثة ، تبين لنا كيف جاهد الملك عبد العزيز آل سعود فى سبيل تحضير بلاده حتى وضعها فى مصاف الدول الناهضة الواعية ، وبقدر ما تعنينا هذه القضية فى رواية المتاعب التى صادفته تعنينا كذلك فى الخطاب الرائع الممتع الذى ألقاه « إنسان الجزيرة » فى المؤتمر العام بالرياض ، أليس هذا الخطاب طرحاً للثقة كما يحدث فى أعرق برلمانات العالم ؟ أليس هذا الخطاب يشبه من قريب خطاب العرش فى افتتاح المجالس الديمقراطية حيث يعرض رئيس الحكومة ماله ويطلب إلى النواب أن يفيدوه

بما عليه ، ليعلم أخفت موازينه أم ثقلت حتى يبنى على ذلك حجة الاختفاء عن المسرح أو حجة البقاء فيه ؟

إن الملك يطلب رأى رعاياه صريحاً واضحاً ويؤمن معارضه وناقده ، فهو لا يريد أن يحكم قوماً لا يرضون حكمه حتى لا يتحرج عند لقاء ربه ، وهو لا يرجو إلا وجه ربه فى دينه ودنياه ، وقد أوصى الله بأن يتنحى الحاكم إذا رأت رعيته سوءاً فى أخلاقه أو سيرته أو طريقة حكمه ، وهذا هو الذى فعله ابن السعود غير حانث فى يمينه ولا ساخط على شانئيه

ثم تعالوا نقارن بين ما قام فى دولة السعوديين وبين كثير من الأمم الأخرى ليحسن العرض ويستقيم القياس ، وبعض هذه الأمم عريق النسب ، حسيب المنبت يقول حاكمه فى عين الشمس وفى وجه التاريخ ، إنه يحكم رضى الناس أو كرهوا ، وهو لا يحكم بشريعة موضوعة ولا اعتماداً على عرف أو دين ، ولا يسير فيهم بالعدل أو الفطنة ، بل يسوقهم بالرأى الفطير

لم يخن عبد العزيز أمانة الحكم فاحتقر الرعية بعلمائها وأهل الفهم والإدراك فيها كما صنع غيره من الملوك والحكام ، وإنها لخيانة أن يبغضك الناس ويكرهون ولا يتك ويضيقون بأسلوبك ويجمعون على التبرم بك فتأبى إلا أن تلى أمورهم بالرغم منهم وحجتك أنه شعب حقير لا تنتظم أموره إلا بالحديد والنار ، ولا يستقيم قصوره إلا بالحنظل والمر ، ولا يصلح للسير فى مواكب الأحرار إلا بالقيود والأغلال !

لقد أبى عبد العزيز آل سعود أن يقوم عرشه على هذا اللون من فساد السيرة وأن يسرق تأييد الناس بالقوة إن عجز عنه باللطف والإيناس ، فعرض قضيته متعالياً بما أغدقه الله عليه من فضل ، متواضعاً حين يلتقى ورعاياه عند كلمة الحق والدين . . .

إن الحكم عند عبد العزيز أمانة ، وأصول الحكم عنده عقد من المحبة والثقة بين الحاكم والمحكوم ، إن افتقدت بينهما وجب على الحاكم أن يتنحى عن الرئاسة

وتدبير الأمور ، ولا يليق به أن يتولى أمر قوم وهم له كارهون ، وإلا كان خواناً وكان ظلوماً كفورا ، ومعاذ الله أن يحمل أمانة لا يحسن أداء التزاماتها ، لذلك هو يشفق على دينه ودنياه ويأبى أن يمضى فى الطريق حتى يثبّت رعاياه ملكه بالتأييد من جديد . .

تلك هى صناعة التاريخ ! فمن بالله من ملوك العرب وأمرائهم المعاصرين للملك عبد العزيز فعل مثلما فعل صانع التاريخ ؟ تلك آية من آيات الديمقراطية التى يندر وجودها حتى فى أعرق الديمقراطيات وآصلها فى الحريات ، وحسبنا دليلاً على عدالة الملك التى نافست ديمقراطيته ، أنه أكرم بعد ذلك زعيم الثورة فيصل الدويش وعفا عنه مرات ومرات بالرغم من يمين الولاء التى حنث بها ، وبالرغم من لجوئه إلى الإنجليز وغير الإنجليز يرجو إغاثتهم ، ونسى أن مليكه نعم المجير ونعم المغيث !

إن عبد العزيز يكره لضميره أن يحتمل لذة الحكم رغم ضيق الناس به ، وإنه ليسمو فى نظرته إلى الدنيا سمو أهل العلم الذين يزنون الأمور بميزان العقل ، ولا يحكمون عواطفهم فى أخذ الحياة وعلاج مشاكلها

وإنه لينظر كذلك إلى الحكم نظرة أهل الدين الذين يرونه تكليفاً ثقيلا لا يترضى العظيم من أجله السوقة أو النخبة ، فليس الحكم تشريفاً إلا للتافهين ، وإنما هو واجب إن صحت مقاييس الحاكم . أما إذا رأت الجماعة أنها اختلت وخرجت على أصولها فالرأى للجماعة أخطأت الفهم أو أصابت التقدير

وإنما يلتمس الحكم بالغصب من ساءت نفسه وانطوت على أغراض الدنيا وعرض الحياة ، وابن السعود أكبر من الدنيا ومن عرض الحياة

وابن السعود هذا الملك الذى تدين له بالولاء قبائل نجد وتؤيده جماعات من سائر أرجاء الجزيرة ويستطيع بقوتها أن يضرب فتنهد لضربته الجبال . . . . عبد العزيز هذا يأبى أن يغتصب السلطة من غير حق السلطان ، ويأبى أن يترضى

مواطنيه بكلمة حلوة لينتزع بها تأييدهم ، بل يعلن رأيه ويسأل أهل الرأى كلمة الحق ، ويقسم أن ينزل عليها ولو أدى الأمر أن يختفى من ميدان السياسة ، وهو يعلم أن فى اختفائه عن مسرحها نكبة لوحدة البلاد

ولكنه رجل دين وإمام من أئمة المسلمين ، وقد فرض الإسلام احترام رأى الجماعة وقد جاء رأى الجماعة فى المؤتمر فأذا به تأييد لإنسان الجزيرة وتجديد للثقة به حتى يمضى بالوطن إلى السماك ، فماذا كان طابع حكومته بعد المؤتمر العتيد ؟

طابع الحكومة

إنكم لتنامون ملء عيونكم هانئين مطمئنين
فى بيوتكم ، وأما أنا فأبيت سهران قلقاً
لايقر لى بال ، أنظر وأتأمل فى سبيل
مصالحكم وتأمين رفاهيتكم وسلامة بلادكم

بالشورى ، وبالسماحة استقر أمن البلاد ، وبالسيف عند اللزوم تحل المشكلات الكبرى ، غير أن طابع الحكومة المتحضرة اليوم فى جميع أرجاء المملكة هو الطمأنينة التى تشمل المواطنين على أموالهم وأولادهم وأعراضهم ، وهم يعبرون الصحراء فى ساعات النهار والليل فلا تدهمهم عصابة ولا يقلقهم قاطع طريق ، ويرى المسافرون فى الطرق الصحراوية أطلالاً لا يعرفون أنها القلاع التى بناها الترك ليحولوا بين قطاع الطرق ونهب القوافل فى أثناء حكمهم للبلاد ؛ تهدمت تلك القلاع فما أصبح للدولة حاجة بها بعد أن نشر الأمن ربوعه فى كل مكان ، وبعد أن أصبح الحق والعدل والمساواة قوانين الوجود فى حكومة ابن السعود .

وإذا حدث أن نفساً سولت لها الخروج على القانون ، فلن تجد المحقق ضابطاً وجنوداً فقط بل تجد وزير الداخلية عبد الله الفيصل وهو أمير من الأمراء ، على رأس المحققين ، وقد تكون الحادثة سطواً على فرد أو معركة فى الطريق ، غير أن الأمير الوزير لا ينام حتى يقتص للضعيف وينصره ويقيم الحد على المجرم الأثيم ، ولا يتعب وزير الداخلية كثيراً ، فأن من النادر جداً أن يسول الشر للنفوس أن تعتدى على حرمة الآخرين

وإن التاجر لينصرف إلى المسجد لأداء الصلاة ويترك حانوته على مصراعيه بلا رقيب ثم يعود وهو مطمئن كل الاطمئنان إلى أن حكومة ابن السعود تحميه وتحمى ماله من أن يصيبهما سوء ، وإن الإنسان إن فقد شيئاً فى طريقه فسوف يعود إلى الطريق يبحث عنه فيجده حيث هو لم تمسسه يد بشر ولم ينقص منه أحد شيئاً . فالدنيا أمان كما يقولون ، وليس فى الدنيا أمان كهذا الأمان الذى نشره عبد العزيز آل سعود ! فأن ضلت الإبل « . . . ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها صاحبها »

كما جاء فى الحديث الشريف ... وما أوحى به القرآن والسنة واجب التنفيذ

وإنسان الجزيرة الذى لا تغفل له عين عن مصالح رعاياه يعيش بينهم فى السراء والضراء كواحد منهم ، وقد مر هذا الاختبار على الراعى والرعية إبان الحرب العالمية الثانية ، فقد نضبت الحياة أثناء تلك الحرب نتيجة انقطاع الوارد ونتيجة قلة المطر ، ومايترتب على قلة المطر من قحط ، فضلا عن أن نسبة الأراضى المزرعة لنسبة مساحة المملكة شىء ضئيل جداً ، وأحس الملك الأزمة تجتاح رعاياه فبذل الأموال بسخاء ليقى البلاد شر المسغبة ، وأمر بإقامة المطاحن والأفران لإطعام المواطنين بالمجان ، تماماً كما فعل عمر بن الخطاب حين شح الطعام فى المدينة وكاد شعبها أن يهلك جوعا

ولم يصدر أمره بالإغاثة للدعاية والإعلان ، بل راقب الحالة بنفسه وراجع « المبرات الملكية » فى كل آن ، ثم اكتشف إهمالاً منها فى مراجعة تعداد أهل مكة إذ قدر عماله أنهم خمسة وسبعون ألف نسمة ، فقال لهم « ... عودوا إلى مقركم وأكملوا بحق مهمتكم ، فأن سكان مكة وضواحيها أكثر بكثير من هذا القدر ، لابد أنهم يزيدون عن مائة ألف على أقل تقدير ، فاحصوهم جميعاً وسجلوا أسماءهم فى المبرة ، ولا فرق عندى بين واحد وآخر ... إن المبرة عامة للجميع .... » وثبت لعين الملك الفاحصة أنه كان أدق تقديراً إذ أكدت المراجعة أن سكان مكة نحو مائة وخمسين ألفاً !

هذا ماصنعه عبد العزيز آل سعود وسط المحنة وإبان البلاء وأثناء المسغبة ، ولا نستطيع أن نذكره فى معرض المقارنة بغير الأئمة الصالحين فى قديم الزمان ، لأن زمانه لم يحتمل ملكاً مثله ينافسه فى هذا الميدان ، وإن الناس ليذكرون كيف كان الملوك والسلاطين ينتهزون محن الشعب فيتاجرون فى قوت الشعب ، وشتان بين إنسان الجزيرة وبين أى إنسان يماثله فى القدر ويقف معه فى صف الملوك والسلاطين ، وإنه لصادق حين يقول لشعبه « إنكم لتنامون ملء عيونكم هانئين



حضرة صاحب المعالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية والاقتصاد

مطمئنين فى بيوتكم ، وأما أنا فأبيت سهران قلقا ، لا يقر لى بال ، أنظر وأتأمل فى سبيل مصالحكم وتأمين رفاهيتكم وسلامة بلادكم »

لقد صدق عبد العزيز ، فقد كان الملك يسوس أمور الملك فى أضواء هذه الكلمات القوية الصادقة ، والمُلك كله لصالح شعبه ، وحتى بيته يراه بيت شعبه ، وإنك لتذهب إلى الرياض لتقضى أياماً ضيفاً أو صاحب حاجة ، أو موظفاً تعرض على ولى الأمر شأناً من الشئون ، فتجد بيت الملك بيتك ، وتجد المئات على موائد الملك بلا رقيب أو حسيب فى الصباح أو فى الظهيرة أو فى المساء . . . إن قصر الملك مكان الضيافة ومكان الرعاية لكل جائع أو طارق أو صاحب حاجة ، وعلى نهج الملك أقيمت الموائد هنا وهناك عند الأمراء الذين لا تنطفىء لهم نار . . .

وإذا شح المطر فى مكان ما ، وشكا البدو سوء الحال ، مرت السنة عليهم بخير ، لأن الملك يتولى عنهم طعامهم وكساءهم ، ويعوضهم عن النكبة ببره المأثور عن البدو والحضر على السواء ؛ والوالى الحبيب إلى الملك ، ذلك الذى ينهج نهج « طويل العمر » إذا نزلت النازلة بحى أو قرية أو مدينة فى البلاد ، وأذكر أن المطر هدم عدة بيوت قديمة فى جده فى شهر نوفمبر الماضى ، وأشهد أن الملك الجديد أبى إلا أن يتولى عن أصحاب تلك البيوت بناءها من جديد على طراز يحميها من أخطار العواصف والأمطار ، تنفيذاً لسنة والده العظيم وتلبية لطبيعة الكرم فيه .

إن طابع الحكومة الكرم، ولكن ليس يعنى ذلك السفه المشاهد فى الحكومات السابقة الأخرى ، الكرم سليقة الحكومة عند الشدة ، ولكنها تقبض يدها كل القبض فيما لا يعود على البلاد بالخيرات ، وإن أياماً غراً فى الدين أو فى الدنيا تمر بالمملكة السعودية ولا تقام فيها حفلات أو مهرجانات ، ولا ينصرف فيها الناس عن أعمالهم كما يحدث فى بلاد أخرى حيث لا يكاد يمر شهر إلا والدولة فى إجازة

يوماً أو عدة أيام . . .

وقد رغب بعض رعايا الملك أن يجعلوا يوم توحيد المملكة عيداً ومهرجاناً فأبى ، لأن فى ذلك تضييعاً لمال العباد وجهدهم ، ثم انظر إلى المهرجانات والحفلات تقام فى بلاد أخرى لأتفه الأسباب حتى مجها الناس ، بالرغم مما فيها من دواعى الأنس وبواعث المتعة والسرور .

ومن طابع الحكومة أنها تبسط يدها كل البسط عندما ترى فى مشروع من المشروعات ، فائدة للوطن والمواطنين ، وهى لا تبخل أبداً بمالها وجلالها وسلطانها على واحد من العاملين إذا قصد وجه الصالح العام ، وسعى للإنشاء والتعمير ، فقد قامت حكومة عبدالعزيز للإنشاء والتعمير ، ولم تقم قط على وسائط التهريج والتغرير .

هذا هو طابع حكومة « إنسان الجزيرة » الأمن والسماحة والكرم الذى لا يصرف الناس عن الجد والاجتهاد ، والذى يقى الناس مغبة السؤال ، والذى يعين العاملين ويأخذ بيدهم ، ويحفظ للكرام كرامتهم .

هذا هو طابع الحكومة الذى شاد قواعده « إنسان الجزيرة » وجعله عقيدة فى نفوس مواطنيه ورعاياه ، وفرضه فى كل مكان ، ودعا إلى تأكيده وتأييده ولاته ووزراءه ، وأصبح بذلك مضرب الأمثال .

تعالوا الى كلمة سواء

: : : هذه عقيدتنا فى الكتب التى بين
أيديكم ، فأن كان فيها ما يخالف كتاب الله
فردونا إليه ، إننا لم نطع ابن عبد الوهاب
ولاغيره إلا فيما أيدوه بقول من كتاب الله
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

دخل ابن السعود مكة المكرمة ، بعد أن دانت لرجاله بالطاعة ، ولم يسفك فيها دم ، فقد حرم علماء نجد على سلطان نجد أن يدخل جنوده البلد الحرام إلا محرمين . . .

دخل ابن السعود مكة المكرمة بعد أن أخلاها الحسين وأبناؤه ، فكاد الناس يموتون فَرَقاً من سيرة الحاكم الجديد ، بشع المنظر ، صلب القلب ، عميد الوهابية التى لا تعرف الرحمة أو اللين ؟! . .

دخل ابن السعود مكة المكرمة ، فدخل معه الوجوم والذهول والرعب ، ودخل الناس بيوتهم وجحورهم ، ينتفضون من الخوف والفزع ، فقد جاء البلاء الأكبر فى ركاب الوهابى العتيد ؟!! . .

والناس معذورون ، فقد شبوا على نغم لا يعرف وصفاً لعبد العزيز غير هذا الوصف الذى يوغر الصدور ويهز الأفئدة ويملؤها بالذعر والضيق: ربع قرن أو أكثر من ربع قرن والدعاة من الأتراك والأشراف يذيعون عن عبد العزيز أسوأ ما قيل فى ملك بل أسوأ ما قيل فى إنسان، فقد إنسانيته ونافس فى جبروته هولاكو وجنكزخان! ومن ينسى ما صنعه هولاكو وزميله فى العرب ، نصارى ومسلمين ؟ فكيف يطلب السلطان الجديد التأييد والإعجاب من شعب يعرف عن « دعاة السوء » أنه عدو الإسلام والمسلمين ، وهادم مقوماتهم ، وناسف كلمة الحق والدين ؟

غير أن أهل الفضل وهى قلة فى البلد الأمين ، خرجت لاستقبال العاهل الجديد ، فهى أخبر بسيرته الرشيدة ، وبأمجاده فى خدمة الإسلام ونشر راياته فى أرجاء الجزيرة العربية ، وكان خروج الصفوة المرتجاة لاستقبال الحاكم العادل والترحيب به مفترق الطريق فى الرأى عنه عند عامة الناس وخاصتهم الذين

لا يعرفون غير ما يفزع عن ابن السعود ! وخرج الناس من بيوتهم يشاهدون هذا الملك فأذا هو قد سواه الله جميل المنظر وضاء الجبين ، على ثغره ابتسامة حلوة ويكاد قلبه الرفيق الحنون يشف للنظارة على جانبي الطريق !

ياسبحان الله كيف زعموا أنه على غير هذه الصورة التي قلما فطر الله إنساناً على شاكلتها إلا أن يكون من الصالحين ؟

وأقبل الناس عليه يريدون يده يوسعونها لثماً وتقبيلا ، فيأبى ، فيدهش الناس لهذا التواضع وقد وصفه خصومه بالكبر والخيلاء ، وينظر الناس إلى ثيابه فأذا هى نظيفة بيضاء ، لا كلفة فيها ولارواء وإن كانت أنيقة دقيقة يعرفها المتحضرون من الناس ، وليس عليه من سمات إلا سمات الأبطال الذين يزينهم وقار نادر وجسم فاره وعينان فيهما من الرأفة والدعة الشىء الكثير

وقام الخطباء ، وقام ابن السعود يقول كلمة الدين والدنيا ، ويشرح أسباب الحرب ويبين أغراض الحكومة الجديدة ، ويعتذر للناس ويأسف حزيناً لما وقع فى بعض بلاد الحجاز من أحداث ، كحادث الطائف الذى أساء إلى الوهابية ، وأقض مضاجع الناس وخوفهم من النظام الجديد

ويجتمع الناس إلى الملك فى الموعد الذى ضرب لهم ، ليعلن عن سياسته الجديدة فى خطبة طويلة وضعت الأمور فى نصابها وردت الأمن إلى النفوس ، ورسمت حياة الناس فى إطار من العدل والحق ، ووضعت خاتمة لما أذيع عن مذهب الوهابيين ، وجمعت أهل الفقه على كلمة سواء

قال الملك « إن الأمور كلها بيد الله ، وإن الله قد ضرب الأمثال فى القرآن ولم يترك شيئاً لتأديبنا إلا ذكره فى كتابه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — الذى من أحبه فقد أحب الله ومن أطاعه فقد أطاع الله — يأخذ نفسه بآداب القرآن الذى نزل به أمين السماء جبريل على أمين الأرض محمد صلى الله عليه وسلم ولا أظن رجلاً عنده ذرة من عقل وعرف ما جاء فى كتاب الله إلا قدر هذه

الآداب حق قدرها ، ورأى أن الخير كل الخير فى أتباع الهدى الحكيم . وأنتم تعلمون أن نبينا محمداً عليه السلام ما جاء إلا ليدلنا على طريق الخير ويبين لنا السبيل الأقوم .

« إن أفضل البقاع بقاع يقام فيها شرع الله . وأفضل الناس من اتبع أمر الله وعمل به ، فهل تعلمون قبيلة أفضل من قريش ؟ ولو لم يكونوا أفضل العرب لما بعث الرسول عليه السلام منهم . وهل فى البلاد أفضل من مكة ؟ ولو لم تكن كذلك لما كان بيت الله فيها ولما نشأ الإسلام والرسول بها ، أو ليس كذلك ؟ ألم يقاتل من كان بمكة ؟ نعم كان هذا وذلك لأن قريشاً عصوا الله وأعرضوا عن الحق . ألم يشرف بلالاً الحبشى وسليمان الفارسى بالإسلام . والأول عبد حبشى والآخر رجل فارسى ؟ ألم يذل أبا لهب بالكفر وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فالشرف ليس بالحسب ، ولا بالنسب وإنما هو بالعمل الصالح

« إن هذا البيت هو شرف الإسلام الخالد ، وما عمل فيه من الأعمال الحميدة يضاعف الله أجره ، وما عمل فيه من السيئات يضاعف الله وزره .

« إن لهذا البيت شرفه ومقامه منذ رفع سمكه بيد سيدنا إبراهيم عليه السلام وقد عظم شأنه فى جاهليتهم فتحالفوا وتعاقدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم صيانة لهذا البيت أن يقع الظلم فيه .

إن الفضول تعاقدوا وتعاهدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم

« أولئك كانوا على الشرك والضلالة ، أفيليق بنا ونحن مسلمون أن نقر فيه ظالماً أو نعتدى فيه حدود الله ؟ » .

كان افتتاح خطاب الملك كما رأينا تحية ملؤها الاحترام والتقدير والإعجاب بمكة وأصحاب مكة من الأولين الصالحين ، بلد الأمان والسلام ، بلد محمد الذى أعلن الحاكم الجديد ولاءه لسيرته وإعجابه « بأمين الأرض » وتقديسه لكل ما عمله ، حتى يشيع فى قلوب سامعيه الاطمئنان على مقدرات صاحب الرسالة العلوية ،

ويكذب علانية أولئك الذين ادعوا نكرانه لمحمد وآياته البينات فى تاريخ الجزيرة والإسلام ، فأذا فرغ الملك الجديد من هذه الفاتحة الطيبة استطرد يقول :

« إن العقائد التى جاء بها الأنبياء من قبل ذات أصل واحد وهو إخلاص العبادة لله وحده ، وينحصر فى قوله « لا إله إلا الله » فلفظ « إلا الله » معناه إثبات العبادة لله وحده ، فأذا لم يكن كل عمل صالح مبنياً على هذا الأساس فهو باطل . قال الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » فدلت هذه الآية الكريمة على أن النجاة لا يكفى لها العمل الصالح وحده بل لابد من إخلاص العبادة والدعاء لله وحده » .

وفى أول هذه الفقرة من خطاب « إنسان الجزيرة » لا يقصر إيمانه على الرسول العظيم فقط بل يعترف فى وضوح وجلاء بما جاء به الرسل الأولون غير متعصب لدينه وحده ، ثم يقول « والله وبالله وتالله ، ورب هذا البيت — والمقدر كائن — لقد كان من أحب الأمور إلىّ أن يقيم الحسين شرع الله فى هذا البيت المبارك ولا يعمل لإبادتنا من الوجود ، فأفد عليه مع الوافدين ، أقبل يده وأساعده على كل شىء يريده ؛ ولكن هكذا شاءت إرادة الله ، ولو لم يلحق الأمر الأديان والنفوس لما أقدمنا على ما أقدمنا عليه ، فقد قرر الحسين تقسيم بلادنا وتوزيعها ، وأصر عليه وأخذ يعمل له — وهذه جريدة القبلة(١) أمامكم تعرفكم نياته نحونا — فأن كان الحسين أتى إلى هذه الديار مؤمراً من قبل الترك وأقام فيها ثم خلع طاعتهم فنحن فى ديارنا لم يؤمرنا غير سيوفنا واتباع ما أمر الله » .

وهكذا أخذ عبد العزيز يملك ناصية الموقف وترهف لتواضعه وأدبه الأسماع ، وتؤمن بما يقسم به ، فهو فى ساعة النصر لا يهاجم خصمه بأكثر من رواية الحق ، ولا يخلو هجومه من أدب النفس وأدب المقال ، ولا يفوته أن يشرح لمستمعيه الفرق بينه وبين الحسين الذى خلع طاعة الأتراك وهم كفلاؤه ، بينما هو حيث

١ — جريدة الحسين الرسمية وكانت فيها مقالات عنيفة ضد آل سعود كتب بعضها الملك حسين نفسه

هو ، لم يصنعه غير جده وسيفه وإيمانه بالله والقيام على تنفيذ أحكامه ، ثم يطالب رعاياه الجـدد بالإخلاص فى كل شىء ، ثم يقول « أنا بذمتكم وأنتم بذمتى ، أنا منكم وأنتم منى » .

ويمضى الملك فى خطابه الجامع فيقول « هذه عقيدتنا فى الكتب التى بين أيديكم ، فأن كان فيها مايخالف كتاب الله فردونا إليه ، إننا لم نطع ابن عبدالوهاب ولا غيره إلا فيما أيدوه بقول من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ... »

ثم قال «لقد أشاع الترك عنا كثيراً ، وقالوا فى جملة ما كذبوه عنا إننا لا نصلى على محمد ، وإننا نعد الصلاة عليه شركاً بالله ، نعوذ بالله من ذلك ، أو ليست الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ركناً من أركان الإسلام لا تتم إلا به ؟ ويقولون إننا ننكر شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، معاذ الله أن نقول هذا ، وإنما نطلب من الله أن يشفع فينا نبينا «من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه» بل ندعو الله أن يشفع فينا الولد الصغير ونقول « اللهم اجعله فرطاً لأبويه » ولا نطلب الشفاعة من الطفل . وأما محبة الأولياء والصالحين فمن ذا الذى يبغضهم منا ؟ فأن كان هذا مقبولاً عندكم فتعالوا نتبايع على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

كان خطاب الملك فى مؤتمر مكة الأول خطاباً له أثره فى قلوب الناس وخاصة علماء المدينة الذين سرهم أن يهىء لهم الملك فرصة الاجتماع بعلماء نجد حتى ينتهى الطرفان إلى حل الخلاف بينهما إن كان ثمت خلاف ، فقد توحدت الجزيرة ، ولا بد من تباحث الطرفين فى أصول الدين وفروعه والخروج على الناس باتفاق يؤكد السلامة لهم ولأولى الأمر منهم ، وقد اجتمع فعلاً علماء نجد وعلماء مكة وأصدروا بياناً كان هدياً ونوراً لرعايا الملك آل سعود ، القدماء منهم والجدد على السواء ، وعلى ضوء هذا البيان رسمت للناس حدود الله واضحة بينة لا تحتاج إلى تأويل أو تبديل بعد أن أجمع عليها فقهاء نجد ومكة ، وأهم ما فى البيان ينصب على ما يأتى : —

أولا : إن من أقر بالشهادتين وعمل بأركان الإسلام الخمسة ثم أتى بمكفر ينقض إسلامه قولى أوفعلى أواعتقادى ، إنه يكون كافراً يستتاب ثلاثاً فإن تاب وإلا قتل .

ثانياً : من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم فى طلب نفع أودفع ضر أو يقربونه إلى الله زلفى ، إنه كافر يحل دمه وماله (ومن يطلب الشفاعة من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله إن ذلك شرك ، فأن الشفاعة ملك لله ولا تطلب إلا منه ولا يشفع أحد إلا بأذنه كما قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه) وهو لا يأذن إلا فيمن رضى قوله وعمله كما قال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وهو لا يرضى إلا التوحيد والإخلاص .

ثالثاً : تحريم البناء على القبور وإسراجها وتحرى الصلاة عندها ، إن ذلك بدعة محرمة فى الشريعة .

رابعاً : لا يجوز الحلف بغير الله لا الكعبة ولا الأمانة ولا النبى ولا غير ذلك لقول النبى صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد أشرك) .

ثم يختم العلماء بيانهم بقولهم « فهذه المسائل كلها لما وقعت المباحثة فيها حصل الاتفاق بيننا وبين المذكورين ، ولم يحصل خلاف فى شىء ، فاتفقت العقيدة بيننا معاشر علماء الحرم الشريف وبين إخواننا علماء نجد ، نسأل الله أن يوفق لما يحبه ويرضاه آمين وصلى الله على محمد وآله وسلم » .

وقد انضم علماء المدينة إلى رأى زملائهم فى مكة ونجد ، وجاء فى فتواهم « أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً لصحة الأحاديث الواردة فى منعه ، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه ، مستندين فى ذلك بحديث على رضى الله عنه أنه قال لأبى الهياج (ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) رواه مسلم .

« وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها فممنوع مطلقاً وإيقاد السرج عليها



-صاحب المعالى الأديب الشاعر الشيخ محمد سرور الصبان وزير الدولة ومستشار جلالة الملك

ممنوع أيضاً لحديث ابن عباس (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) وأما مايفعله الجهال عند الأضرحة من التمسح بها والتقرب لها بالذبح والنذر ودعاء أهلها مع الله فهو أمر ممنوع شرعاً لايجوز فعله أصلاً » .

« وأما التوجه إلى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم عند الدعاء فالأولى منعه كما هو معروف من معتبرات كتب المذاهب ولأن أفضل الجهات جهة القبلة ، وأما الطواف بها والتمسح وتقبيلها فهو ممنوع مطلقاً .

« وأما مايفعل من التذكير والترحيم والتسليم فى الأوقات المذكورة فهو محدث . هذا ماوصل إليه فهمنا السقيم وفوق كل ذى علم عليم » .

وكذلك استفتى الملك علماء مصر حتى يطمئن إلى سلامة رأى علمائه فجاء فى فتواهم « أما ما يتعلق بزيارة القبور فنقول : إنها مندوب إليها شرعاً بقوله صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » وكان صلى الله عليه وسلم يزور قبور المسلمين ببقيع الغرقد ويقول « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أسأل الله لى ولكم العافية » وكان يزور شهداء أحد على رأس كل حول ويقول « السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » ونقل عن القهستانى مانصه : قال فى الإحيـــاء والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا وجه الميت ، وأن يسلم (ولا يمسح القبر ولا يقبله ولا يمسه) وبين الفقهاء جملة مما يكره عند زيارة القبور ، ثم أجملوا ذلك بقولهم (وكذا كل مالم يعهد من فعل السنة) وهى قاعدة كلية ينبغى تطبيقها على أى فعل لم يعهد فى السنة ، وقد مثلوا له بالمس والتقبيل ، ومعلوم أنه لم يعهد من فعل السنة الطواف بغير الكعبة .

« وأما مايتعلق بشرب الدخان فنقول : إنه لم يكن موجوداً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عهد خلفائه الراشدين ولا فى الصحابة والتابعين لهم بأحسان

ولا فى زمن الأئمة المجتهدين ، وإنما حدث فى القرون الأخيرة ، واختلف العلماء فيه اختلافاً كثيرا ، فمنهم من قال بحرمته عملاً بحديث أحمد المروى عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر ، وقال إنه إن لم يكن مسكراً كان مفتراً » وجنحوا من هذا إلى نهى ولى الأمر عنه ، والقواعد الفقهية تقضى أن ولى الأمر لو نهى عن مباح لمصلحة دينية حرم ، ومنهم من ذهب إلى أنه مكروه نظراً لما فيه من الضرر الظاهر للأبدان وإضاعة الأموال، ومنهم من لا يرى أنه مفتر فقال بأباحته أخذاً بالقاعدة العامة ، وهى أن الأصل فى الأشياء الإباحة أو التوقف ، ورد على ماقال بالحرمة أو الكراهة بأنهما حكمان شرعيان لا يثبتان إلا بدليل ، ولم يوجد ، والذى يظهر أن أعدل الأقوال هو القول بالكراهة ، فينبغى تركه وعدم الإصرار على تعاطيه فأن الإصرار على الصغائر يقلبها كبائر .

« وأما الموسيقى ، فحكمها من جهة الإيقاع والاستماع حكم اللهو واللعب وهو الكراهة التحريمية ، فأن فقهاءنا نصوا على كراهة كل لهو كالرقص والسخرية والتصفيق وضرب الأوتار من الطنبور والبربط والرباب والقانون والمزمار والصنج والبوق ، فأنها كلها مكروهة تحريماً، ولم يستثن من ذلك إلا ضرب الدف فى الأعراس والأعياد الدينية ، وإلا ملاعبة الرجل وزوجته وتأديبه لفرسه ومناضلته بقوسه » .

والخلاف طفيف جداً بل يكاد لا يكون هناك خلاف بين فقهاء مصر وفقهاء الجزيرة ، وفتوى علماء مصر فيما سئلوا عنه كانت فصل الخطاب ، وبذلك قطعت جهيزة قول كل خطيب !

ذروة المجد

أرجو الله أن يوفقك للخير ،وافهم أننا
نحن الناس جميعاً لانعز أحداً ولا نذل أحداً
وإنما المعز والمذل هو الله سبحانه وتعالى،
من التجأ إليه نجا ، ومن اعتز بغيره هلك. . .

انتهى الخلاف الديني بين نجد والحجاز ، بل انتهى بين نجد وسائر أمم الاسلام، وكان لابد من الخطوة الثانية ، وهى لاتقل أهمية ولا جلالا عن الخطوة السابقة، لم جاء ابن السعود إلى الحجاز ؟ وما هى أساليبه فى نظام الحكم ؟ وماهو دستوره فى إقامة العدل ؟ وماذا هـو صانع بأدوات الحكم من أمراء وموظفين ؟ وهل سيطبق ماكان متبعاً من قبل فيجعل الناس طبقات ، لبعضها الفقر والإملاق ، ولبعضها الخير والمتاع ، لبعضها الذلة والهوان ولبعضها المنعة والسلطان ؟

تلك كانت الأفكار التى تدور فى أذهان الناس ، فكان لابد إذن من أن يكون هناك دستور للحياة ، وأن يعلن الحاكم الجديد سياسته العامة فى وضوح وجلاء ، وقد أعلنها فى بيان رسمى لحضر الحجاز وبدوها جاء فيه ، أنه أقبل إلى ديارهم منتصراً لدين الله وسنة رسوله التى انتهكت حرماتها ودفعاً للشرور التى أشاعها من استبد بالأمر فيهم من قبل [1]

ثم يتحدث الملك عن أساليب الحكم فيقول إنه سيجعل الأمر فى هذه البلاد المقدسة شورى بين الناس ، وأنه قد أبرق لكافة المسلمين فى سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامى عام يقرر شكل الحكومة الذى يرونه صالحاً لأحكام الله فى هذه البلاد المطهرة ، ثم يقول إن التشريع الذى سيتبع والأحكام التى ستصدر ستجىء طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما أقره علماء الإسلام عن طريق القياس أو ما أجمعوا عليه مما ليس فى كتاب أو سنة

ويشير الملك فى بيانه (الدستورى) إلى أن كل من كان من العلماء فى هذه الديار أو من موظفى الحرم الشريف أو المطوفين ذى راتب معين فهو له على ما كان

---

١ — صقر الجزيرة ج ٢ ص ٤٧٢

عليه من قبل إن لم نزده فلا ننقصه شيئاً ، إلا رجلا أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه ، فذلك ممنوع مما كان له من قبل ، وكذلك كل من كان له حق ثابت سابق فى بيت مال المسلمين أعطيناه حقه ولم ننقص منه شيئا ، ثم يختم بيانه بأروع ماجاء فى بيانه « لا كبير عندى إلا الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا ضعيف عندى إلا الظالم حتى آخذ الحق منه ، وليس عندى فى إقامة حدود الله هوادة ولا أقبل فيها شفاعة »

أصدر « إنسان الجزيرة » الدستور العام الذى تضمنه بيانه العظيم ،وبقى دور العمل والتنفيذ حتى تطابق أفعاله أقواله؛ونهض لتنفيذه بحماس وقوة ، وقرر أن يشيد — لأول مرة فى الحجاز الحديث — الحكم الديمقراطى الصحيح ، فدعا أعيان مكة إلى مؤتمر خطب فيه فقال « لا أريد أن أستأثر بالأمر فى بلادكم دونكم ، وإنما أريد مشورتكم فى جميع الأمور ، إن العرب تقول :الرجال ثلاثة، رجل ونصف رجل ولا رجل . فالرجل من كان عنده رأى ويستشير الناس فى أموره ،ونصف الرجل : من ليس عنده رأى ويستشير الناس ، وليس رجلا من كان لا رأى له ولا يستشير الناس

« إن أهل مكة أدرى بشعابها كما يقول المثل ، فأنتم أعلم ببلدكم من البعيدين عنه ، وماأرى لكم أحسن من أن تلقى مسئوليات الأعمال على عواتقكم .

«لا أريد أوهاماً وإنما أريد حقائق ،أريد رجالا يعملون بصدق وعلم وإخلاص، حتى إذا أشكل علىّ أمر رجعت إليهم فى حله وعملت بمشورتهم وتكون ذمتى سالمة وتكون المسئولية عليهم

« أريد منهم أن يعملوا لما فيه المصلحة العامة ، وأريد الصراحة فى القول والإخلاص فى العمل ؛ لأن ثلاثة أكرههم ولا أقبلهم : رجل كذاب يكذب علىّ عن عمد ، ورجل ذو هوى ، ورجل متملق ، فهؤلاء أبغض الناس إلى »

وعلى ضوء هذا الدستور طلب الملك من رعاياه الجدد أن يعملوا فى أسرع

وقت على انتخاب من يمثلهم فى مجلس الشورى الأهلى الذى أشار إليه فى خطبته، وطلب إليهم أن يرفعوا إليه نتيجة الانتخاب ليعتمدها ، راجياً « السرعة فى العمل لأمتع نفسى برؤية هذه البلاد المطهرة تتمشى فيها الحياة الجديدة» وأسرع المواطنون الأحرار إلى تنفيذ الرجاء ، وتمت رغبة الملك على أحسن حال ، فعين بعد ذلك الحكام والموظفين الذين يرضاهم عامة الناس وخاصتهم ، ونفذت قواعد الدين والدنيا على كتاب الله وسنة رسوله ، لاهوادة فى الحق ولاظلم لإنسان

إلى هذا الوقت الذى أصدر فيه « إنسان الجزيرة » دستوره ونظام حكمه الديمقراطى ، كان يتحدث بوصفه سلطاناً لنجد جاء إلى الحجاز ليرد عنه عاتية حاكميه وليقيم العدالة بين الناس حتى يختاروا من يشاءون لملكهم الجديد ، ولم يفكر حينئذ فى ملك وسلطان ، فقد كان فى حالة حرب مع على بن الحسين الذى تحصن فى مدينة جده وأثارها حرباً شعواء ، وقرر ألا يخلى البلاد كما يريد ابن السعود إلا بحد السيف غير منصت إلى وسائط الخير تأتيه من جوانب العالم الإسلامى ، فأذا اضطره سيف سلطان نجد إلى إخلاء جده والخروج هو وأسرته من الحجاز ، أصبحت البلاد جميعا فى حوزة آل سعود ، وكانت الفترة بين دخول عبد العزيز مكة المكرمة إلى جلاء على بن الحسين « فترة انتقال » كفيلة برفع سمعة الحاكم الجديد إلى السماك بما قدمه للناس من خير وبما أثبته من كفاية وجدارة لحكم البلاد ، فاجتمع أهل مكة من خير بنيها وأسرها العريقة وقرروا اختيار عبد العزيز ملكا على الحجاز ، وكتبوا إليه مبايعين قائلين فى بيعتهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، نبايعك ياعظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود على أن تكون ملكاً على الحجاز ، على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم ، والسلف الصالح والأئمة الأربعة رحمهم الله ، وأن يكون الحجاز للحجازيين ،

وأن أهله هم الذين يقومون بأدارة شئونه ، وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز والحجاز جميعه تحت رعاية الله ثم رعايتكم »

وأرفق سادة مكة هذه البيعة بوثيقة أخرى تفسر ذلك كله وجاء فيها «المعروض على عظمة السلطان الموفق المعان ، أن قد اجتمع الداعون الموقعون أدناه من أهل الحل والعقد بمكة المكرمة وتذاكروا فى الأمر وقابلوا بارتياح كل ما جرى بين عظمتكم وبين الهيئة المتمثلة فى مجلسكم العالى صباح أمس من خيرة الأهلين ، وبمناسبة اهتمامكم بذلك ومزيد بشرهم به ، سارعوا جميعاً إلى تقرير عقد البيعة على المنوال المسطور أعلاه ، راجين أن ينزل ذلك من رغبات عظمتكم منزلة القبول ، وأن تتفضلوا بتتويجه بالإشارة السلطانيـــة ليكمل لهم مقصدهم الوحيد بحصول رضائكم العظيم ، مسترحمين الإنعام عليهم بتعيين وقت عقد البيعة عند البيت المعظم والله يديم بالتوفيق دولتكم »

ورضى الملك عن طيب خاطر بهذا الذى دعاه إليه أهل مكة ، فقد سره أن تتاح له فرصة توحيد الجزيرة على هذا الشكل الرائع من رضى الناس وإعجابهم ، فوقع على صورة البيعة بقوله « من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى إخواننا الموقعين أسماءهم . سلام عليكم وبعد فقد أجبناكم إلى ما طلبتم ونسأله سبحانه وتعالى المعونة والتوفيق للجميع »

وفى اليوم التالى لتوقيع الملك ، أى فى ٨ يناير ١٩٢٦ أسرع الناس إلى باب الصفا من المسجد الحرام يتهيأون لبيعة الملك الجديد على السمع والطاعة ، والبشر يعلو وجوههم ، وأصواتهم تجاوز الفضاء بالدعاء لابن السعود . فأذا أقبل الملك كبر الناس وهللوا ثم صمتوا ليستمعوا إلى كلمة التاريخ يقولها خطباء الاجتماع ، ثم أخذ واحد من الصفوة يقرأ البيعة والناس ترددها والتاريخ يصدح بها ، حتى إذا فرغ الخطباء من الخطب ونال الملك البيعة على السمع والطاعة من شعبه طواعية واختيارا ، نهض فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أسمع خطباءكم يقولون : هذا إمام عادل ، وهذا كذا . . .

وهذا كذا .. فكل رجل مهما بلغ من المنازل العليا إذا لم يخش الله ويطلب مرضاته فلا أثر له ولا لعمله ، فمتى تركت الشهوات وهجرت المحرمات وعبدنا الله على بصيرة لاقينا الخير كله ، وهل جاء البلاء للناس إلا من اتباع الشهوات ، شهوات النفس التى فيها خراب الدين والدنيا ؟ لذلك أدعوكم إلى الدين واتباع آثار السلف الصالح ، واتخاذ الصراحة فى القول والإخلاص فى العمل وترك الرياء والملق »

ثم يمضى فى وصيته صريحاً كعادته لا يرائى أحداً من مستمعيه ، مبصراً إياهم بعقبى الرياء وسوء النفاق « فمتى اتفق العلماء والأمراء على أن يتستر كل منهم على الآخر فيمنح الأمير الرواتب ، والعلماء يدلسون ويتملقون ضاعت أمور الناس وفقدنا — والعياذ بالله — الآخرة والأولى . لم يفسد الممالك إلا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء وأعوانهم ، وإنى — والله — لأود ألا أكون منهم . إن التمدن الذى فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا فمرحباً به وأهلا ، وأما التمدن الذى يؤذينا فى أدياننا وأعراضنا وشرفنا فوالله لن نرضخ له ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب . أيها الإخوان ، إنى أحمد الله الذى جمع الشمل وأمن الأوطان ، وإن لكم علىّ عهد الله وميثاقه أننى أنصح لكم كما أنصح لنفسى وأولادى ، وأحبكم فى الله وأعاديكم به »

إنها لبيعة من ولى الأمر لرعاياه ، تلك الأقوال التى جاءت رداً على بيعتهم له ! وهى فى صراحتها وقوتها وعنفها أيضاً لأسلم من كلمات الملق والدهان التى اعتادها الملوك والسلاطين فى الشرق العربى خاصة ، وهو دائماً يصحب أقواله بالأفعال ، فما أن انتهى اجتماع البيعة حتى دعا إليه أعضاء المجلس الأهلى وسائر الوفود وقال لهم « إننا اليوم فى أوقات العمل وفى ساعات التأسيس ، ولا يستقيم الأمر إلا بالتدبير ، وأمامنا عدو وصديق ينظران إلينا ، فإذا لم نضع لنا أساساً متيناً ضاعت أمورنا ، وقد أعددت لكم موضوعات هامة للنظر فيها وتقريرها وأنتم أرباب الرأى والفكر فيها » وبسط لهم مستشاروه تلك الموضوعات فأذا

هى تتصل بوضع اسم رئيس الحكومة فى الحجاز وتحديد العلاقة بينه وبين نجد، وتعيين شكل الحكومة وموقف الحجاز من الناحية الدولية، وأمور ثانوية أخرى يفرضها مقتضى الحال

وناقش المجتمعون تلك الموضوعات جملة وتفصيلا، ثم قرروا أن يلقب رئيس حكومة الحجاز « بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » وهذا هو اللقب الذى رضيه ابن السعود وأبى أن تضاف إليه سائر النعوت والأوصاف، ثم تركوا الشئون الأخرى إلى الهيئة التأسيسية التى عملت منذ ذاك الوقت على رفعة الوطن الحديث فى مضمار الحياة، والإعلان عنه أحسن الإعلان

ويمضى « إنسان الجزيرة » من نصر إلى نصر، فيستقر ملكه على دعائم من الحب والولاء، وتفشل الثورات الصغيرة والكبيرة التى شنها أمثال فيصل الدويش ويرتفع اسم نجد والحجاز فى الهيئات الدولية ويحسب لهما فيها ألف حساب، وتأخذ النهضة التعليمية والاقتصادية فى النمو والتوفيق، وتصبح الحياة ناعمة هادئة رتيبة، فيفكر أمر الشعب فى مستقبله ويفكر فى توحيد البلاد توحيداً يبرز ما كمن القوة فيها ويزيدها جلالا على جلال، ويهتف بذلك جلة الناس ونخبتهم المرتجاة، ويتردد الصدى فى نفوس العامة، فينادون بحماس وقوة لتوحيد الجزيرة فى ظل « إنسان الجزيرة الذى ما نافسه فى إنسانيته منذ عهد الخلفاء الراشدين ملك ولا سلطان، واجتمع سامرهم فى مؤتمر وأذاعوا توحيد المملكة.

قالوا: نسميها المملكة لأن على رأسها ملكاً عريق الأرومة أصيل المنبت، ونسميها عربية لأنها تجمع تحت ظلها خير أمة أخرجت للناس، وقالوا نسميها سعودية تفاؤلا باسم حاكمها العظيم الذى كان من فضله توحيد البلاد، وليكن اسمها « المملكة العربية السعودية »، وهو اسم فيه كل المعانى التى ألح فى تحقيقها أهل نجد والحجاز والأحساء وعسير وغيرها من المقاطعات، ونزل الملك عند إجماع رعاياه وعرفت دولته بذلك الإسم الجديد منذ ٨ سبتمبر ١٩٣٢ وأذاع



حضرة صاحب المعالى السيد محمد رضا وزير التجارة

سعود أكبر الأبناء نبأ توحيد المملكة واسمها الخالد من « الرياض » كما أذاعه من « مكة » فيصل الابن الثانى للعاهل الكبير ، وبات الناس فى أفراح التوحيد ما شاء لهم من أفراح

ثم عاد الشعب الأبى يفكر من جديد فى مستقبله ، إنه يرجو « لطويل العمر » أطول العمر ، فما رأى الأمن والطمأنينة إلا فى عهده السعيد ، لذلك أخذ الناس يفكرون فيمن يخلفه بعد هذا العمر الطويل ، والناس يخشون عاديات الزمان وعودة الظلم والفوضى والطغيان إذا أصاب مليكهم المحبوب سوء ، وهم الحريصون على وحدة بلادهم وقد حقق لهم الملك تلك المعجزة بعد الكفاح والجهاد ، فمن ذا يكون خليفته إذا حل بالبلاد هذا المصاب ؟ إنهم يريدون الطمأنينة المتصلة لمقدرات حياتهم فى الداخل ، ويريدون المحافظة على سمعتهم عند سائر الأمم والشعوب

ولم تطل حيرة أبناء المملكة العربية السعودية ، فأن للملك اكبر أبنائه موفور العقل موفور الذكاء ، ذكى القلب سمح النفس ، فيه حزم أبيه وتقاه ، وله من أفقه الواسع خير شفيع إذا فكر الناس فى اختيار ولى للعهد يرث الإمام فى السمات والأخلاق ، ويرثه فى سياسة الملك وطرائق النظر للحياة ، ولهذا قرر مجلسا الوكلاء والشورى والقضاة وسائر أهل الحل والعقد اختيار الأمير « سعود » وليا للعهد بالإجماع ، ورفعوا قرارهم إلى الملك فى ١١ مايو ١٩٣٣ ، ووافق الملك العظيم على رغبة رعاياه التى استقبلها سكان الجزيرة بالغبطة والفرح والمهرجان ، وجاءت البيعة لولى العهد من كل مكان ، وجاء تأييد البيعة لولاية العهد من الملك ، وجاءتها معها برقية إلى ابنه ماقرأت فى حياتى أمتع مما جاء فيها من توجيه وإرشاد ، ولا وقعت عينى على وصية ملك لخليفته ، فيها هذا الذى كتبه عبد العزيز إلى ابنه سعود .

« الابن سعود

« أرجو الله أن يوفقك للخير ، وافهم أننا نحن الناس جميعاً لانعزف أحداً

ولا نذل أحدا . وإنما المعز والمذل هو الله سبحانه وتعالى ، من التجأ إليه نجا ، ومن اعتز بغيره هلك ، موقفك اليوم غير موقفك بالأمس . ويجب أن تعقد نيتك على أن تقف حياتك لإعلاء كلمة التوحيد ونصر الدين وعبادة الله وحده والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تجد وتجتهد فى النظر فى شئون من سيوليك الله أمرهم بالنصح سراً وعلانية ، والعدل بين المحب والمبغض ، والقيام بخدمة الشريعة خدمة صادقة فلا تأخذك فى الله لومة لائم ، ويجب عليك النظر فى أمر المسلمين عامة وافراد أسرتك خاصة ، واجعل كبيرهم والداً ، وأوسطهم أخاً ، وصغيرهم ولداً ، وهن نفسك لرضاهم ، وامح زلتهم ، وأقل عثرتهم ، وانصح لهم ، واقض حوائجهم بقدر إمكانك ، فأذا فهمت وصيتى هذه ولازمت الصدق والإخلاص فى العمل فأبشر بالخير ، وأوصيك بعلماء المسلمين خيراً ، واحفظ الله يحفظك » .

وتلقى الملك من ولى عهده رداً سريعاً يقول فيه « إن ماذكره جلالته لخادمه هو عين الصواب ، وأنه لاقوام للدين والدنيا إلا بالله ثم به » ويمضى فى برقيته راجياً أن يوفقه الله فيرضى عنه ويرضى عنه والده لما فيه صلاح الإسلام والمسلمين ، وإن كان سبحانه وتعالى يرى سريرته على غير هذا فليكف المسلمين شره ويرد عنهم كيده ثم يختم بقوله « ياطويل العمر ، وصيت فأبلغت ، وستظل وصيتك فى قلبى راسخه إن شاء الله ماحييت » .

ولا يقف عبد العزيز عند برقيته ، بل يبعث بخطاب طويل لولى عهده الجديد ، يعيد عليه فيه الوصية التى أوجزها فى برقيته ، ويطالبه فيه بالحزم فى أموره والعدل فى أحكامه والبر بالعلماء وحفظ العهود والمواثيق وأن يكون سمحاً مع المسلمين فى الحرب والسلام ، وأن يبحث فى سياسة الداخل والخارج بروية وتفكير عميقين ، ويدرس مواقف الحكومات المختلفة من بلاده ، ويحذره من التسرع فى الحكم على الأفراد والجماعات ، وأن يبتعد عن الهوى فى قضاء أمور الناس .

وهكذا بلغ إنسان الجزيرة وبلغ ذروة المجد فى الحياة .

لهذه السيرة

. . . يابنى كل من فى الوجود يحب المال
ولكنى والله ثم والله إني لا أحبه إلا بقدر
ما أقضى به مصالح المسلمين ، وليس لهـذا
الملك وعظمته عندى من قيمة ، وإنما الذى
أحبه وأريده هو رضاء الله

لن يفرغ الناس من سيرة عبدالعزيز آل سعود ، فهى سيرة حية على الزمن ، حافلة بالمواعظ والعبر ، نجد فى كل جانب منها مجموعة من الصفات الحسنة والخلائق الطيبة مالو وزع على قبيل لكان ناسها خير من عرفت الإنسانية من ناس …

وإذا أراد كاتب أن يدرس شخصية « إنسان الجزيرة » بعد هذا البيان الموجز الذى نشرته فى هذه الفصول عن سيرته ، فأن حيرته تأخذ عليه قلمه ، أين يبدأ وكيف يمضى وإلى أين ينتهى به المطاف ؟ فأن عبد العزيز صورة مزدحمة بالمعانى الجميلة والملامح الحسناء ، لاتدرى أى معنى تقصده حين تمسك بقلمك ؟ فكل مافيه أجمل مافيه ، وإذا تساوى فى الرجل جماله وتلاقى كماله نخذ حين تكتب أول مايلقاك منه ، فلن تجد جانباً يسبق جانباً ، فالبناء واحد حيثما درت ، وحيثما قصدت واجهة من واجهاته المشرقة على الدنيا فسيحة الأرجاء .

عاش الملك ، ومات الملك ، لايعرف قيمة للمال ، ولايجد فى سبيله إلا رعاياه ، ولا يطمع فى شىء منه لذاته ، فهو فى غُـنية عنه بغنى النفس ، إذ هو عنده ثروة لاتستباح « … يابنى كل من فى الوجود يحب المال ، ولكنى والله ثم والله إنى لا أحبه إلا بقدر ما أقضى به مصالح المسلمين ، وليس لهذا الملك وعظمته عندى من قيمة ، وإنما الذى أحبه وأريده هو رضاء الله »(١) قالها الملك لأحد رعاياه فى بساطة وإيمان .

إن الملك عبدالعزيز لايعنيه ملك ومال عبد العزيز ! إنما يعنيه فى دنياه رضاء الله ! أليس فى نفسه غنية عن المال وغنية عن الجاه والسلطان وقد عاضها الله برضائه وبركاته الشىء الكثير ؟

---

١ — الإمام العادل ص ٢٣٤

إن ابن السعود لايحب فى دنياه إلا دينه ، ولا يرضى عن دنياه إن لم يعل دينه عليها ويوجهها ، وإنه لايكره أحداً ... ولا أظن أحداً يكرهنى ... » كما كان يعتقد فى رعاياه ومواطنيه ، وإذن فصاحب السيرة لا يبغض أحداً ، وما نظن أحداً كره الملك العظيم فى شخصه أو سيرته ، فقد أحببناه وبيننا وبينه بحار وصحراء ، وبيننا وبينه اختلاف فى المذهب وفى طرائق النظر إلى الحياة، حتى أولئك الذين حاربوه ونافسوه ، ردتهم محاسنه إلى مودته وحبه وإكباره ، وحتى أولئك الذين تحزبوا ضده فى الحجاز ، وأعلنوها عليه حرباً من وراء البحار ، وهاجروا عصاة عليه ، حتى أولئك ردتهم إلى الوطن محاسنه ، فجاءوا إلى ساحته وكانوا خير من قاموا فى خدمته ورفعوا مع البناة قوائم العهد الجديد ، إيماناً بصاحبه وثقة فيه وإكباراً لدينه وخلقه وآدابه وسننه الحميدة .

لم يفكر الملك ، وهو أمير وسلطان ، أن يقاسم جنده وقادته ما أحلته الحرب من غنائم وأسلاب ، ترفع ترفع كريم المحتد أصيل الأرومة ، ولولا حاجته إلى العون فى مطالع حياته وإبان أزماته لأبى على جنده الغنيمة مهما تحلها التقاليد الحربية فى الصحراء ، وقد كفل لجنده المال والميرة حين استقرت أموره فى الملك والسلطان واختفت تلك العادات البدائية على مر الزمن وبعد أن تحضرت المفاوز والصحراوات .

وهذا الأمير الشجاع ، وهذا السلطان طويل الباع ، ما خرج من حرب إلا ودخل حربا ، أعنى ما خرج من قلب معمعة إلا وصال فى قلب أخرى ، لم يترفه أو يبعد عن مواقع الخطر بل كان وسط المعامع إلى جانب جنده حذوك الرأس بالرأس ، وإن كانت هذه الطريقة فى القتال يراها عرف المحاربين المحدثين غلطاً لاتقره نظم الحرب ، فما يجوز أن ينزل القائد العام منزل عامة الجند ويتيح لخصمه فرصة القضاء عليه ، فيقضى على الآمال العراض ، ولكنها شجاعة الأحرار وبطولة الصناديد تدفعهم إلى المخاطر وكأنهم محاطون بحجاب ، ولولا رعاية الله تبارك

جهاد الأبطال لصرع ابن السعود مرة فى زحمة النضال ، ولكن العناية رعته فى كل صولة صالها ولم ينله إلا رذاذ من هول القتال !

وما العجب فى نزول الأمير إلى قلب الميدان ، بل العجب كل العجب أن يكلف نفسه — كأسوة لجنوده — فوق طاقتها ، بل فوق طاقة البشر ، فقد كانت له فى كل غزوة نياق وجياد ، بيد أنه كثيراً مايترك لجنوده النياق والجياد ويجرى حافياً فى الهجيرة حتى يتشجع جنوده ويحتملوا حمارة القيظ ، فما يليق بجندى وهن وسيد الموقف قادر على السعى حافياً ، وهو الأمير ابن الأمير الذى ماكان ينبغى أن تعرف قدماه الأرض ولا يتصبب عرقه من الجبين، غير أنها النفس الشجاعة والقلب الكبير يأبيان إلا أن يضربا أروع الأمثال ، بهذا قاد ابن السعود الجيوش إلى النصر وحقق لمواطنيه الأحلام ، وأى أحلام ؟ إنها لأقرب إلى الخرافات فى تاريخ المجاهدين الأبطال .

وقد يزعم زاعم بأن عبد العزيز حين يلقى بنفسه فى حومة الوغى ، إنما يفعل ذلك بطبع الرجل المغامر أو نتيجة لخطر داهم لا يرده إلا وجود القائد العام فى قلب الميدان وسط العواصف والأنواء ، غير أن الإنسان ليقف حائراً عند طبيعة هذا القائد الذى يعطى من نفسه لجنوده أكثر مما يعطى له الجنود من أنفسهم، فمنذ متى سمعنا أن أميراً من الأمراء يخرج على رأس جنوده فى كثير من الغزوات ، فيقف الليل فى حراستهم ، ويقوم على إعداد طعامهم وقهوتهم ؟ ومع ذلك فان هذا القائد الذى يخدم جنوده لا يقاسمهم عند النصر الغنائم ولا يشاركهم فيما أحلته حرب الصحراء من قواعد وآداب !

* * *

لم تكن هذه المعاملة التى لقيها الجنود من أميرهم إلا وحى السليقة الكريمة التى فطر عليها « إنسان الجزيرة » ، وهو فى إنسانيته فريد زمانه بل فريد كثير من العصور والأزمان ، وإذا كان سخى النفس رقيق الحاشية

مع أعوانه فهو بالطبع أسخى وأرق مع الأهل والأولاد ، ويذكرون فى حياته فترة أرقت فيها حياته ولم يمر عليه مثلها حتى استقبل وجه ربه، فقدماتت زوجه الأولى وهو حدث أقرب إلى الفتيان منه إلى الشبان ، فلم يحزن أياماً ولم يلهُ بعد ذلك كما يلهو فى مثل هذه النكبات غيره من الأخدان ، فقد مضى به الأسى سنوات وسنوات (١) ، فأذا بى مرة أخرى ، ومات ابنه البكر (تركى) شق عليه القضاء فيه، غير أنه عالج المصيبة بحكمة الرجل العارف بارادة الله ، ولم تستبد به الفجيعة استبدادها يوم كان حدثاً لم تصقله الحوادث والملمات ، وعوضـــه الله فى بنيه الآخرين العوض الجديد بالمؤمن الملتاع

وهكذا امتحن عبد العزيز فى زوجه وولده وأمه وأبيه ، فاجتاز الامتحان راضخاً لقضاء الله ، وإن لم ينس الأحبة الذاهبين فى ساعة من الساعات ، وكان ذكرهم الطيب خير بلسم للقلب المجروح على مدى الزمان

ويذكرون من عواطفه الإنسانية الشيء الكثير ، ولو شئنا أن نعددها لأفردنا لها كتاباً يشرح تفاصيلها ، وفى تفاصيلها العجب العجاب ، ومن ذلك أن الكاتب الأديب أمين الريحانى قام بجولة فى الصحراء العربية وزار أكثر من ملك وأمير، وانتهى به المطاف يوماً إلى الرياض فنزل ضيفاً على سلطان النجديين عبد العزيز آل سعود . وفى الرياض مرض الأديب الكاتب بالحمى ، وساءت صحته ، وجاء النبأ إلى « إنسان الجزيرة » فروّعه مرض الصديق الجديد ، ولم يكشف عن قلقه برسالة يبعثها أو يفعل ماتقتضيه تقاليد الملوك والسلاطين فيبعث إلى ضيفه برسول من عنده يعلن للمريض فضل السلطان وتفضله بالسؤال عنه كما كنا نرى أقرانه يفعلون فى مثل هذه المناسبات !

لم يفعل عبد العزيز شيئاً من هذا بل كان يذهب إلى بيت ضيفه يعوده بنفسه

---

1 — Arabian Jubilee : H. St John Philby 1952. PP 6 — 7

ويجلس إليه ويسمر معه حتى خفف عنه ، واسترد الرجل عافيته فأبى إلا أن يسجل هذه المكارم فى كتاب ، هو فى الحق من أجمل ما قرأت عن الملك من صفحات (١)

ولا تقف إنسانية الملك عند هذا الذى شرحناه ، من عناية بالجند ووفاء للأهل والأصدقاء ، أحياء وأمواتاً ، فذلك قد تجده — وإن كان قليلا — فى الحكايات تروى عن بعض الملوك والحكام ، ومن طرائف إنسانيته التى تفرد بها بين أقرانه وأنداده ، العفو عند المقدرة ، ورعاية ذوى الرحم مهما تصدر عنهم من إساءات ، ولا أعنى أنه يرحمهم ويذود عنهم إذا تجاوزوا حدودهم فى الدين أو أثموا فى حق مسلم من غير حق ، إنما يحميهم من ذات نفسه إذا أساءوا إليه فى قول أو فعل ، وقد لقى من بعضهم أشد مما لقى من خصومه وأعدائه ، فقد خانه هذا البعض فى أحرج الساعات ، فلما تم له النصر اقترح حواريوه أن ينهض باستجواب أقاربه الذين لم يقيموا وزنا لصلة الرحم وأخذوا جانب الأعداء ، فكان رد الملك « إذا دعوتهم إلى فقد يحدث بينكم وبينهم قتال ، فأكون ذابحاً لذوى القربى وهذا مكروه عندى . كفانا الله شرهم » (٢)

ليس ابن السعود جزاراً بسكين حتى يدعو آله وذوى قرباه للسؤال والاستجواب ، فيقاتلهم الموتورون من أنصاره . وهو يعرف أنصاره وبغضهم للخصوم والأعداء ، وهو يكره ذلك فى سيرته ولا يريد إلا أن يعفيه الله من شرهم ، فهو هنا فى الجزيرة العربية نسيج وحده بين الملوك والأمراء ، فقد سجل تاريخ الجزيرة أبشع القصص عن الخيانات والثارات بين الأبناء والآباء وبين الأشقاء وبين أبناء العمومة والخؤولة وبين الأصهار ، وقد أريق دم الأهل فى

---

١ — أعنى بالكتاب مؤلف الريحاني « ملوك العرب » وهو من خير الكتب التى نشرت عن تفاصيل حياة أمراء الجزيرة العربية وملوكها

٢ — الريحاني ج ٣ ص ١٦٣ الطبعة الثانية

أكثر من أسرة ليتولى القاتل المشيخة أو الإمارة أو الملك كما حدث فى أسرة الصباح وأسرة الرشيد ، وأسرة آل سعود نفسها قبيل عهد عبد العزيز ، وغير تلك الأسر مما لا يقع تحت حصر إذا أردنا الرواية والتفصيل ، إلا ابن السعود فلم يحدث قط أن سفك دم ذوى الرحم أو أساء إلى الأقارب والأصهار

وإنسانية عبد العزيز آل سعود إنسانية عامة من الطبع والسليقة وليست إرثا أو تقليدا ، فقد يزعم زاعم أن بين الناس من يعطف على آله ، ولا يلحق بهم سوءاً وإن كان هذا قليلا ونادراً جداً ، وخاصة إذا كان الأهل يقصدون الدم والقضاء على العزة والشرف. وتلك الأمجاد التى حصل عليها مثل ابن السعود بالجد والكفاح .

وهب الزعم صحيحاً وجاز لنا أن نأخذه على علاته ونقدر أن بين الناس من يصطنع الحلم مع أهله كما اصطنعه «إنسان الجزيرة» مع ذوى قرباه ،ولكن ماجواب الزاعم حين يعلم أن هذا الذى جرى بين ابن السعود وبين أقاربه وأصهاره جرى مثله تماما بينه وبين ألد أعدائه وأقساهم عليه ؟ بل جرى بينه وبينهم أمتع مما جرى بينه وبين ذوى قرباه ؟

لقد كان ابن السعود يريد عند أول النصر حين أراد أن يسترد الرياض ، أن يقاتل وحده عجلان الحاكم العام فيصرعه وينهى الأمر ويكفى المؤمنين القتال ، ولم يقاتل عجلان من خلف بل واجهه فى معركة مكشوفة حتى لا يتهم باللؤم والغدر [١] وانتصر عليه ولم يستطع تجنب القتال مع الحامية وكان ذلك شيئاً ثقيلا على نفسه ، غير أنه اضطر إليه اضطراراً ، ولم ترض نفسه البارة وقلبه الطيب يومئذ إلا حين عفا عن كل أعدائه فى المدينة وأكرمهم إكراماً منقطع النظير

ومامن موقعة حربية إلا ولابن السعود فيها موقف يحكى إنسانيته ويتحدث

١ — Philby P. 11



حضرة صاحب المعالى الشيخ يوسف يس وزير الدولة ومستشار جلالة الملك

عن خلق الأصيل وخلاله العالية ، فقد حاصر يوماً حصناً من الحصون لعل من فيه يطلب التسليم والأمان وتقف تلك المعركة الدامية ، ولكن أعداءه كانوا من الجلد بحيث ينذر موقفهم فى الحصن بأسوأ العواقب لعبدالعزيز وجنده المحاصرين لذلك الحصن ، وتفتق الذهن الحربى عن وسيلة تفض المعركة وتنهى القتال ، ذلك هو نسف الحصن فى لحظات ، ولكن تبين لإنسان الجزيرة أن بالحصن نساء وأطفالا ، فأرسل الرسل ينصح بالتسليم ، ثم تباطأ فى التنفيذ مع ما كان يكلفه التباطؤ من خسائر تجل عن الوصف ، حتى إذا علم من فى الحصن أن المهاجم الكريم فى مقدوره فعلا نسف الحصن والقضاء عليهم لو شاء ، سلموا له بلا قيد ولا شرط

وكانت شريعة الحرب تقضى بالجزاء العنيف لمن كبدوه خسائر لا طاقة لإنسان بها غير أنه صرف جنده عن ذلك كله وأكرم خصومه وأنزلهم أهلا فى الرياض يعيشون فى كنفه سالمين آمنين ! ذلك لأنه كان لا يقتل من أمنه على نفسه وماله وعياله مهما تكن بينهما من إحن وخصومات ، وإن شعاره دائماً إذا تكلم أو فعل الصفح عن المسىء والإحسان إلى المحسن ، ومن رأيه دائماً أن « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب »

وكذلك كانت دائماً آدابه فى الحرب ، وهو نسيج وحده فى حرب الصحراء ، وهى شهادة له صدرت من الخصوم والأصدقاء على السواء ، وقد حرص ابن السعود على تلك الآداب حتى أصبحت تقاليد فى جيشه إذا دافع أو هاجم ، استمع إليه وهو يخطب جنوده قبيل الهجوم على الترك فى (الكوت) ... « يارجال التوحيد: إننا هاجمون الليلة على الترك فى الكوت ، وإننا منتصرون بإذن الله . . . فحاربوا من حاربكم ، ووالوا من والاكم ، ولكن البيوت لا تدخلوها ، والنساء لا تدنوا منهن »

وما عرفت الصحراء مثل هذه الآداب وقت الشدة ، فقد كانت وسائل التحمس والتشجيع عند أقرانه أن البيوت ستفتح لكم بحد السيف لتنهبوا منها ماتشاءون وتأخذوا منها ماتحبون ، وأن النساء لكم سبايا تفعلون بهن كما تريدون...

إنهبوا واقتلوا واسبوا حين تنتصرون !

تلك كانت تقاليد الحرب فى الصحراء فأذا «إنسان الجزيرة» يغير من الطبائع ويحذر قبيل الهجوم من أن يسىء جندى إلى بيت أو يعتدى جندى على حرمة من الحرمات ، فليست الحرب — منذ اليوم — نهباً أو سلباً ، ولا قتلاً لبرىء ولا سبياً لأنثى ، الحرب فى الميدان فقط ، أما بعد النصر ، فالمنهزم صديق إذا طلب الأمان والمنهزم مكسور الجناح فلا يليق بالكرام أن ينتهزوا ساعه النصر ونشوتها وكسرة العدو وهزيمته فيسلبوا أو ينهبوا أو يعتدوا على شرف الناس !

أقول إن هذا جديد فى حرب الصحراء ، ومن أمير لم يركب البحر أو يقرأ عن آداب الحروب عند المحدثين من الناس ، وإن كان المحدثون يرتكبون الآثام فيها ويلتمسون لها الأعذار ، وكان هناك الملك حسين ، وهو رجل كثير الصلات بالغرب والشرق ، وأدوات الحرب عنده من أحدث طراز ، وبلاده بالقياس أرقى من نجد وما يحيط بها من صحراء ، وكان المفروض أن يكون إدراكه للحرب الحديثة السليمة أعمق مما كان عليه ، بيد أنه كان يقتل المهزوم ويدمر بيته ويسبى زوجه وبنته ، وقد أراد ابنه الأمير عبدالله أن يثير الرعب فى نفوس القرى والقبائل فأخذ يذكرهم فى منشور وزعه عليهم بما فعل فى أهل تربة من أحداث « ما خفى عليكم ما حل بتربة من ذبح الرجال وتدمير المال . . . »

وشتان بين الرجلين .. فى الحرب والسلام ! وإنها لطبيعة فى النفس وليست درساً ولا علماً ولا إصاخة لصلات . . .

وإذا شئنا أن نعدد «لطويل العمر» الفضائل والحسنات أثناء الحرب أو عقب النصر ، فلن يسعفنا فى ذكرها فصل أو كتاب ، بل يحسن أن نفرد له بحثاً يحكى عن إنسانيته فى تفصيل وإسهاب ، وإنما نعنى من هذا الفصل أن نلم ما استطعنا بهذه السيرة العطرة ، فهى قدوة لمن يقتدى بخيار الناس

ولنتعقب موقف الأمير الجليل حين يفلت منه الزمام أو حين يكبو جنده

وعماله وتعوزهم فطنة قائدهم العظيم ، لنتعقب موقفه حين يعلق بموقفه غبار ، فقد حدث أن قائده حين فتح الطائف فى حرب الحجاز عجز عن أن يمنع النهب والسلب ، وماهو أفظع من النهب والسلب كتقتيل المدنيين من رجال ونساء ، وقد أثبت التحقيق فيما بعد أن جند الفاتح أبرياء مما نسب اليهم ، وليست غلطتهم إلا فى افتقار القائد إلى الحزم المطلوب فى مثل هذه الملمات

إن الجرائم التى ارتكبت فى فتح الطائف قام بها جميعاً وبلا استثناء بعض البدو الذين كانت نفوسهم تنطوى على حقد دفين للطائفيين لأسباب لا يعلمها ابن السعود ولا قائده ، وإلا كانا أعدا للأمر عدته قبل أن يفلت الزمام ، اندس هؤلاء البدو فى زحمة الاحتلال ، وأخذوا ينهبون ويقتلون من غير حساب ، حتى قيل ان الصحراء لم تشهد من قبل مثلما شهدت فى الطائف من نكبات ، وكان لما حدث فى الطائف أقبح الأثر فى سائر البلاد الحجازية ، وانتهزها خصوم السلطان عبدالعزيز وشنوها دعاية رخيصة فى كل أرجاء الدنيا ، وأعطوا بها أسوأ الرأى على ما يحمله ابن السعود فى ركابه لأهل الحجاز !

فماذا قال ابن السعود وبأى وجه قابل نكبة الطائفيين ؟ بكى حين بلغت أسماعه تفاصيل المذبحة التى جرت فى الطائف . . . واعترته الكآبة وغامت على وجهه سحابة من الحزن العميق »[1] وتمنى لو ان قائده لم ينتصر فى تلك الموقعة وارتد إليه مكسوراً مدحورا ، فلقد كان ذلك أخف على قلبه من أن يصاب أهل الطائف هذا المصاب الثقيل ، وإن إنسانيته لا تحتمل أن يعلق فى رقبته مجزرة لم يكن له فيها يد وإن نسبت حينئذ إلى جنده وقائدهم ، واعتبرت سقطة فى حرب السعوديين! بكى « إنسان الجزيرة » واستبد به الحزن ، فما كان يظن أن مثل هذا يمكن أن يحدث فى فتح الحجاز وهو ذاهب إليه ليرفع عنه المظالم ويقيم حدالله على من يسىء إلى الدين والأخلاق

---

١ — صقر الجزيرة ج ٢ ص ٣٩٠ والريحاني ج ٣ هامش ص ٣٠١ الطبعة الثانية

لم يقف الملك حين جاء نبأ الفجيعة فى الطائف عند حد البكاء والحزن الشديد، بل أجرى تحقيقاً دقيقاً وأخذ المعتدين بالشدة والعنف، ثم أمر فحصرت الخسائر وعرف من نزل به سوء، وقرر أن يساهم من جيبه الخاص بتعويض كامل عما فقد من مال ونفس، وليس له غاية إلا أن يواسى المصابين بما يستطيع أن يواسيهم به، ولا يملك ابن السعود إلا ماله الخاص يدفع منه على سبيل الاعتذار عما حدث من السوقة والغوغاء، ولم يكن لجيشه فيه نصيب، وما كان يتحرج عن العصف بأى فرد من أعوانه لو قام الدليل على أنه اجترأ على الحق وأساء إلى المدنيين المسالمين

وقد كذبت مواقف ابن السعود الإنسانية من الطائف وأهلها كل ما أشاعه عنه خصومه من دعايات رخيصة، وعاون على التكذيب مواقفه السابقة من مدن خصيمة أخرى رأى فى حربها الهول، إذا قيست بها حرب الطائف كان الطائفيون أهل مروءة وسلام، وإن الناس ليذكرون أن خسائر ابن السعود فى حرب (بريده) فاقت كل خيال، وأنها مدينة أمنته ووالته، وخرجت عليه بعد ذلك خروجاً فيه من الغدر والخيانة الشيء الكثير، وأنه اضطر إلى منازلتها بكل ما يملك من قوى، واستطاع أن يدخلها منصوراً مظفراً، ومع ذلك لم يقم وزناً لنكثها العهد وخروجها على طاعته بلا مبرر إلا مبرر الخيانة والغدر، فدخلها دخول الصديق الحنون الغفور الرحيم، وعفا عن أهلها جميعاً، وهم جميعاً كانوا له محاربين، ولم ينته عند العفو والمغفرة، بل وجد بأهلها خصاصة وعرياً فأمدهم بالطعام والكساء، وقبل اعتذار حاكمها رأس البلاء ونسى له ألوان الغدر وما ترتب على غدره من خسائر فى المال والأرواح.

وواقعة (بريدة) تلك آية على سياسة الملك التى اتبعها فى حروبه زهاء ثلاثين عاماً لم يغمد له فيها حسام، وهى سياسة لحمتها إنسانيته وسداها طبيعة الخير فيه، وإن المؤرخ ليجد له خطاباً أو مقالا فى جنده قبيل كل موقعة، ولم ينس قط فى خطبة أو مقال أن يوصيهم بضبط النفس عند النصر ورعاية المهزوم والحفاظ

على ماله وناسه ، وكثيراً ماقرأنا قوله لجنده بألا « يتبعوا مدبراً وألا يجهزوا على جريح ، وألا يهاجموا بيتاً ، وألا يقتلوا شيخاً ولا طفلا ، وألا يعترضوا امرأة ولو قاتلت ، وألا يؤذوا المدنيين من السكان » وما نظن قائداً يأمر جنده بهذا يمكن أن يعلق بأنسانيته غبار ، مهما يحدث بعد ذلك من خطأ يخرج عن طاقته ويعز عليه وقفه عند حدوثه وإن لم يعز عليه علاج الأمر عند وقوع المحظور !

وليس كابن السعود قائد فى الجزيرة العربية نهج هذا النهج القويم فى الحرب أو فى جزاء مخالفيه وشانئيه : ولعل هذا شيئاً لم يعرف فى طبع قائد عربى بعد حكم الخلفاء الراشدين ، فان هذه الإنسانية شىء عجيب إن لم تكن لها أسباب فى النفس أقوى من أن ينحرف بها إلى يمين أو يسار ، واعتقادى أن إيمان الرجل بالله وسلامة عقيدته الدينية ومافطر عليه قلبه من الرأفة كانت هى الأسباب الأولى فى موقفه الغريب من العدو المنكسر والخصم العنيد فمصدر هذا إيمان عميق بما تشير به الشريعة والدين وهو الإحسان إلى الناس ، الطيب منهم والخبيث لعل الثانى يرتدع بالحسنى ، وما أكثر مادعت آى القرآن الحكيم والشريعة السمحاء إلى الحسنى والأخذ بالمعروف والنهى عن المنكسر باللين والمودة وحسن الأسلوب.

وقد طبق « إنسان الجزيرة » هذه التعاليم ، فعفا وصفح فى ساعات لايجوز فيها الصفح والغفران ، ومن ذلك أن عبداً يمنياً ضبط فى قصر ابن السعود ينوى الشر به ، وقام تحقيق أثبت أن هذا العبد قد كلف من مسئول يمنى بأن يغتاله وله جزاء ذلك قدر معين من المال ، غير أن المجرم خانته شجاعته وشلت يده إذ كان طويل العمر يؤدى فريضة الصلاة إذ ذاك ، وكان لصلاة الملك رهبة فى نفس العبد حالت بينه وبين تنفيذ ماسعى إليه من شر .

وكان المفروض أن يطيح الملك برأس العبد عبرة لغيره من الخونة والمارقين ، غير أنه أمر بالعفو عنه وضاعف الجزاء الذى كان مقدراً له عند من بعثه للغدر والخيانة ، وقال طيب الله ثراه . . . ومن يدرى فقد يكون العبد فى حاجة الى

المال ، ولعل الحاجة هي التي دفعته الى هذا الموقف البغيض . . .

لقد كان الملك العظيم في موقفه هذا نسيج وحده بين ملوك المسلمين ، فما رأينا في تاريخ الأئمة الصالحين غفراناً كهذا الغفران ، ولا سماحة كهذه السماحة ، فهو شديد الترفع كبير النفس في المواقف التي يصغر فيها خصومه هذا الصغار .

ويذكرون أن واحداً من بيت الأشراف أقارب الملك حسين لاذ بكنف الملك وعاش في رحابه ، اقتحم عليه مجلسه يوماً لينهي في شيء من الغبطة والسرور نبأ مقتل الملك عبد الله ملك شرق الأردن ، ظاناً أنه نبأ جدير بأن يزف الى « إنسان الجزيرة » واعتقاداً منه بأن الخصومة القديمة بين الأسرتين كفيلة بأن تجعله خبر اليوم القمين بحسن الاستقبال ، فغضب طويل العمر لأسلوب الناقل وسوء المنقول ، وكان نفاقاً كرهه الملك من صاحبه فقذفه في وجهه وطرده من مجلسه ، وأبى عليه منذ تلك اللحظة أن يحضره في مكان !

ان الملك رجل شريف ، وقد محت مآسي العرب ما بين الأسرتين من خلاف ، فاتفقت الكلمة على الاتحاد والتضامن ، وانه لنبأ مزعج ذلك الذي ينعى اليه عبدالله في وقت يحتاج العرب فيه الى ملوكهم وزعمائهم لدفع المصاب عن فلسطين وسائر بلاد المسلمين . . .

هذه سيرة ابن السعود الذي يخشى الله في كل روحاته وغدواته ، ويخشى أن يخطيء حيث يريد الصواب ، لذلك كانت مروءته تغلب حدة الإنسان فيه ، وكان يميل دائماً الى مسالمة الناس جميعاً حتى لمن أساء اليه ، ومن خشيته الله قوله دائماً في ساعات النصر « اللهم اعطني من الدنيا ما تقيني به فتنتها وتعينني به على أهلها ويكون بلاغاً لي إلى ما هو خير منها ، فانه لا حول ولا قوة إلا بك » .

ومن ذا يذكر ساعة النصر غير النصر ؟ إنه عبد العزيز بن السعود رجل الدنيا الخواف من الآخرة ، إنه يريد من ربه أن يحميه من دنياه العريضة وملكه الخطير ، إنه يلتمس من ربه غناء النفس فلا تلتمس من الناس شيئاً يسيء إليها

فى آخرته ، وإن هذا الذى يطوف بابن السعود ساعة النصر هو الذى أملى عليه سياسة الحرب وتقاليدها ، وكان هذا الطائف لايزايل عقله وقلبه ساعة من ليل أو نهار حتى إن أحداً لم يكن يخشع لتلاوة القرآن الكريم خشعة الملك عبدالعزيز، فكان إذا رتل القرآن أو تليت الأحاديث الشريفة والمواعظ الدينية فاضت عيناه بالدموع ، وقد شهد تعبده وتهجده كل من زاره من أجانب العرب المسلمين، وتذكر بعثة الجامعة فى القاهرة ، أنها حضرت منذ سنتين مجلس الملك وهو ينصت لعالم فى درس دينى ، وشاهدت دموعه على خديه ، حتى خشى الزائرون أن يصاب الملك بسوء من عمق التهجد والإيمان ، وقد نصح فى نهاية الدرس بأن يتزود زائروه فى سفرهم للآخرة بتلاوة القرآن قبل أن يبرحوا الرياض !

* * *

وعبدالعزيز هذا الذى كانت تحنو له الرقاب، وتملأ سيرته الغرب والشرق، ويفرق من اسمه كل جبار ، عبد العزيز هذا الذى يرتجف للقائه عظماء الرجال ولا يجرؤ تشرشل فى أوج النصر أن يدخن أمامه السيجار، عبدالعزيز هذا الذى ملك الجزيرة العربية وفرض سلطانه على كل عاتية ، ورسم حدود ملكه على مايشتهى ويريد، عبدالعزيز هذا ، وله كل هذا ، كان يرتجف حين يقتحم مجلسه صعلوك ويقول له : خف الله ياعبد العزيز ! إنه ليشعر بخشية ورعدة لم يعرفهما قط الاحين يذكر أمامه اسم الله . . . خف الله ياعبد العزيز ! ولم يخوفنى هذا البدوى من الله ؟ أأسأت حيث كنت أريد الصواب ؟ يجوز ! وإذن فيجب أن يرتعد عبد العزيز ويرتجف ، ولا بد أن تبحث حاجة الصعلوك حتى يطمئن الملك إلى أنه أدى واجبه فى دنياه ، فلم يُظلم إنسان فى عهده ، وبذلك يطمئن قلبه إلى رضى الله !

وليس بمستغرب إذن أن يكون إيمانه بالله غلاباً على كل خاطر يمر بنفسه ، وقد كان فى أشد الحالات وأهدئها يكاد أن يسقط بعد الصلاة خشية من الله ، وكان إذا فرغ من الصلاة سمع له نشيج متصل قد يطول فلا يجرؤ إنسان على أن

يرده إلى حاجات الدنيا الواقفة ببابه فى كل آن ، وكم راجع أحكام القضاة مرة ومرات ! وإنهم يذكرون أن الدولة تحملت باهظ التكاليف من تلك اللجان التى كان يبعث بها الملك إلى أقصى الصحراء ليراجع حكم قاض حتى يطمئن إلى عدالة الحكم ، فأذا لم يعجبه منطق اللجنة كما لم يعجبه حكم القاضى من قبل وأحس أن هناك منفذاً للمراجعة والتمحيص ، وأن فى الأمر أهون الشك ، بعث بلجنة أخرى فأن اتفقت مع سابقتها وآزرت حكم القاضى اعتمد الحكم واستقبل وجه ربه راضياً ، فقد راجع الأمر أكثر من مرة ، وهذا غاية ما يستطيعه بشر يرجو رضاء الله ويخشى العاقبة

وكان الملك لا يعاقب أحداً على عمل إلا إذا كان المخطىء عارفاً بعواقبة ، وقد جاءوا إليه بمذنب ، وحكى الرجل خطيئته ، وذكر « للشيوخ » أنه ما كان يظن فيما أتاه جرماً يستحق عليه الجزاء ، لأن « طويل العمر » لم ينه عن ذلك من قبل . . فقال الملك « الحق علىّ لأنى لم أحذرك » ! وعفا عن الرجل على ألا يعود إلى فعلته مرة أخرى .

ويقولون إن « إنسان الجزيرة » حين أحس دنو الأجل وحضرته الوفاة ، أشار بالإفراج عن كثير من المسجونين ، فقد خشى أن يكون قد ظلم أحداً منهم وهو اليوم أقرب ما يكون إلى الله ، ولا يحب أن ينتقل اليه وفى عنقه وزر إنسان ، وإنه لم يظلم فى الحق أحداً ، ولكن الإيمان العميق بالآخرة دفعه إلى تلك الإشارة وهى خاتمة الآيات على أن عبد العزيز كان ملكا يعرف الله . . .

ولقد عرف له شعبه خشية الله ، فما كان أحد يخشى إنساناً مهما يعل قدره ويجل فى مناصب الحكم والقضاء ، وقد أحس مواطن أنه ظلم فبعث إلى الملك ببرقية يتساءل كيف يجوز فى عهده أن يلقى بمظلوم فى السجون ؟ وكانت قضية عرفها خاصة الناس وعامتهم ، وأخذ فيها المخطىء بالشدة وجوزى بأعنف الجزاء ، وخرج الرجل يلهج بحمد ابن السعود والثناء عليه ، فانظر هذا الذى حدث وقسه



سعادة الشيخ عبدالله بالخير سكرتير خاص جلالة الملك سعود

على ما يقوله الريحانى عن ملك الحجاز قبل حكم ابن السعود ، فقد ذكر الكاتب الأديب ، أنه الملك حسينا حين كان يطلب إنسانا ما ليراجعه فى أمر من الأمور كان الرجل يكتب وصيته سواء كان مذنباً أو بريئا !(١) ولست أعقد برواية ماسجله الريحانى مقارنة ، فالمقارنة هنا لا موضع لها ، غير أن ذكر بعض الحقائق يفيد فى بيان ما انطوت عليه نفس عبدالعزيز من كريم الخلائق والصفات

ولنمض مع الريحانى قليلا فهو يكشف لنا بالتفاصيل التى ضمنها سفره كثيراً مما نجهله عن « إنسان الجزيرة » ولا ينبغى أن يفوتنا فى هذا الكتاب ، فهو يحدثنا عن الملك حسين وحياته الزاخرة بالدعة والأبهة ، فيقول إنه كان يتناول قهوته فى فنجان يحمله عبد خاص ، وهو موضوع — أى الفنجان — فى بيت من الحرير مزركش باللؤلؤ الثمين !(٢) وليس من العدل هنا أن نعقد مقارنة بين الملكين ، حسين وعبدالعزيز ، فلم يعرف قط أن « إنسان الجزيرة » احتفى بشىء يدخله اللؤلؤ والذهب ، بل إن مذهب الوهابية وهو حاميه وداعيته حرم الذهب على الرجال ، وليس فى حياة عبدالعزيز شىء من الدعة ؛ فقد افترش الأرض معظم عمره ، ونام على سرير يشبه «العنجريب» السودانى ،وحين حضرته الوفاة أوصى بدفن شرعى ولبى أبناؤه الوصية والنداء ، وغيره من الملوك كانوا يدفنون فى مهرجان كأنهم ذاهبون إلى حفلة عرس ، وقد شهدت بنفسى دفن الملك فؤاد ! وحسب «طويل العمر» أنه حين ذهب إلى وجه ربه لم يكن يملك إلا (مشلحه) وثوبه العادى منافساً فى ذلك أفقر رعاياه . . .

ويحدثنا الريحانى عن أدب الملوك ، فيذكر أنه بلغ نجداً بعد أن حالت بينه وبينها ظروف سياسية ومواقف تعنت من الإنجليز لم يُعرف لها أسباب ، وكان حريصاً أشد الحرص على لقاء سلطان نجد ، فأنه يعتقد أن « ملوك العرب » لن

---

١ — الريحاني . ملوك العرب . جـ ١ ص ٥٥ الطبعة الثانية

٢ — الريحاني . ملوك العرب . جـ ١ ص ٥٨ الطبعة الثانية

يستقيم لهم تاريخ حتى يلقى هذا الملك الذى علا صيته وتحدثت به الركبان ، وكان الكاتب الأديب يلح فى لقاء عبدالعزيز وحال سوء المواصلات أن يلقاه الملك عندما رجا اللقاء ، فكتب إليه كتاباً ما قرأنا مثله لملك فى أدب المقال ، كتب يعتذر للأديب عن أسباب تأخره فى لقائه فيقول « ... ولهذا وحده حصل تأخير منا فأرجوكم المسامحة » ! وما سمعت بملك يعتذر بنفسه عن تأخير ليس له فى علاجه حيلة ، ثم « يرجو المسامحة » ومنذ متى كان الملوك يواجهون الناس بالمعذرة والرجاء؟ منذ عرفت الجزيرة العربية الخليفة الخامس عبدالعزيز الفيصل آل سعود ملك العرب فى جزيرتهم الفيحاء ، ثم انصت إلى الملك يختم كتابه بقوله « . . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »(١) ومنذ متى كان الملوك ينتظرون فضلا من أحد ويتواضعون فيقدمون للناس « فائق الاحترام » ؟ منذ عرف العرب مليكهم إنسان الجزيرة بلا مراء . . .

وأطمعت سجايا الملك الواضحة فى كتابه ، أديبنا الريحانى الذى كاد يجن لتأخر اللقاء ، فقد كان الريحانى فى ميناء العقير الصغيرة إذ ذاك ، وقد أجهده السفر ، وهو سفر طويل ثقيل انتهى بتلك الميناء ، وكان الملك عبدالعزيز فى (الحسا) يتهيأ للسفر إلى العقير ، فشجع كتاب الملك مؤرخنا فكتب إليه يسأل جلالته أيحضر إليه أم ينتظر تشريفه فيكون فى استقباله فى الميناء ؟

ورد الملك فى أدب الملوك يقول « . . . الأمر راجع لرغبة حضرتكم وتبعاً لراحتكم » وإن الريحانى المسيحى لمعذور بعد ذلك الرد الرقيق أن يمضى متغنياً بمحامد السيرة السعودية مئات الصفحات ؟ !

وهكذا بدت أخلاق الملك الكريمة لطارق من بعيد ، فمحت أكاذيب الخصوم وأكدت للكاتب أنه سيلقى سيد الملوك غير منازع ، فما عرف هذا فى أمير من

---

١ — الريحاني . ملوك العرب . ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ الطبعة الثانية

الشمال أو الجنوب ، وقد كان ابن السعود مع الريحانى وغير الريحانى على طبيعته ، متواضعاً أشد التواضع ، لا يرضى أن تقوم الفوارق والفواصل بينه وبين أى إنسان ، حتى إنه كان يرفض أن يلثم الناس يده ويقول « المصافحة من عادات العرب أما عادة التقبيل فقد جاءتنا من الأجانب ونحن لا نقبلها » وذلك كله ليحفظ على العرب كرامتهم وعزتهم ولا يشعرهم بهوان ، وكان من أخلاقه أيضاً أنه لا يسف فى حق خصومه ولم يطلق لسانه فى ذمة أحدهم ، ولم يجعل قط من نقائصهم طريقاً لإبراز فضائله ، فقد برزت محاسنه على السليقة دون أن يلتمسها فى مواضع المقارنة والتفضيل

* * *

ما كان يمكن لعبدالعزيز أن يزل له لسان فى عرض إنسان أو كرامة أحد وهو المتأدب بآداب القرآن ، ولا يخلو مجلسه من العلماء والفقهاء والشعراء ، وكان حرصه على تلك المجالس شيئاً معروفاً مهما تكن الظروف والملابسات ، سواء كان فى حالة حرب أو حالة سلام ، فأن هذا المجلس هو مجلس الاستنارة والاستشارة ومجلس الخير والبركات ، وفيه يأخذ الملك عن العلماء ويستمع للفقهاء يفسرون ويحللون ما جاء فى الكتب والسير ، ولا يترك شاردة ولا واردة إلا ويعقب عليها بالسؤال والاستفهام ، وقد يرى الرأى المخالف لما يسمع من علمائه وفقهائه ، ويدور جدال ممتع بين الإمام وبينهم ، وكان ينزل كثيراً عند رأيهم حين يقتنع بالرأى والمقال ، وكثيراً أيضاً ما كانت بصيرته تلهمهم بالحق فيما دار عليه النقاش ولم ينقطع الملك يوماً عن الاستماع لأهل العلم والأدب ، وكان يسيغ شعر الأوائل وخاصة أشعارهم فى الأخلاق والشجاعة والمروءة ، وكان رواته فى هذه العلوم يصحبونه وهو فى طريقه إلى الحرب ، وكثيراً ما قطع على جواده المفاوز والقفار وإلى جانبه راويته يقص عليه أو يقرأ له أو يجادله فى موضوع من الموضوعات

ولا شك أن الدراسات والقراءات التى مرت بالملك عبدالعزيز واستمع فيها إلى علماء المسلمين وأدبائهم وشعرائهم كان لها تأثير كبير فى تكوين عقليته ، وذلك لأنه استطاع ، عن طريق ما حصله من شعر ونثر وفقه ودين ، أن ينهل كثيراً من المبادىء القويمة التى اهتدى بها فى سياسة الناس ومعاملتهم وملاحظة الطبائع والأشياء ، ولقد كان عالمه الأول وأستاذه الكبير والده الإمام عبدالرحمن ، ولعل أباه كان وسيلة لعبت دورها فى وعيه الباطن ، فأنتجت هذا التوقير الشديد للعلم والعلماء ، فقد كان يحترم أباه ويأخذه قدوة ومثالا ، وكان الإمام عبد الرحمن عالماً فقيهاً جديراً بالإجلال والإكبار ، لذلك كان مجلس العلماء قائماً فى بيته كل يوم ساعتين ، ولهذا المجلس رهبة ووقار منقطعا النظير ، فأن أحداً لا يستطيع أن يحيى الملك أو الحاضرين إذا كان أحد العلماء يقرأ أو يتحدث ، ولا تدار القهوة إلا قبيل الدرس ، أما إذا بدأت الساعتان فلا قهوة للضيفان حتى يختم الملك مجلس العلم بقوله للقارىء أو المتحدث « بارك الله فيكم »[1]

وكان أقرب الناس إليه أهل العلم ، ويأتى بعدهم الناس مراتب ، كل حسب قدره ومقامه ، وكان لأهل العلم فى مجلسه الصدارة والرعاية والتجلة والتعظيم ، وقد أبصر الملك يوماً عالماً من العلماء بعيداً عنه ، وقد زاحمه الناس فى مقامه منه ، واضطر الرجل للزحمة أن ينأى عن الملك ومجلسه ، فغضب عبد العزيز لذلك غضباً شديداً ونهر المزاحمين وبكتهم قائلا « ألا تعلمون أنه ليس منا من لم يوقر كبيرنا ؟ » وجرى الناس بقصة العالم وقولة الملك ، ومنذ ذلك التاريخ ولأهل العلم من مجلسه مكانهم العظيم عند رعاياه وضيوفه الكثيرين ؛ ولم يبخل الملك بالمال على العلماء حتى يستعينوا به على الإستزادة من العلم ، وخاصة علوم الحديث والتفسير والفقه والتوحيد والتاريخ ليستفيدوا ويفيدوا بعلمهم سائر المسلمين ، ألم يقل يوماً إنه إن

Philby — P. 150 — 1

أراد المال فأنما يريده ليبذله فى صالح الإسلام والمسلمين ؟ وقد أعطى الملك بسخاء لطبع الكتب الدينية والتاريخية ، وكان يأمر فتوزع على أهل العلم بالمجان ...

وكان الملك عبد العزيز آل سعود يقرأ كثيراً أو يستمع لرجال العلم والدين ، وقد أخذ بنصيب وافر من الدراسات الدينية ، وتمكن أيضاً من الدراسات الأدبية بشكل ملحوظ ، وقد قرأ فيما قرأ الأغانى والكامل والبيان والتبيين وأدب الكاتب ، ونال من دراسة الشعر قسطاً طيباً وخاصة شعر أبى تمام وامرىء القيس وطرفة بن العبد وعلقمة الفحل والنابغة وزهير والشريف الرضى وغيرهم من أئمة الشعراء حتى استكمل بذلك ذوقاً فنياً كان يحكم به على أى شعر سواء كان للقدامى أو المحدثين ، كما أثر ذلك كله فى أسلوبه الأدبى فجاء فى خطبه وبياناته رصيناً مشرق العبارة منتقى فى ألفاظه ومعانيه ، وهو كثير التمثل بما جاء فى الحديث وأقوال الخلفاء الراشدين ، كما كان يترنم دائماً بقول الشاعر

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فأن تجمع أوتاد وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذى كادوا

وفى أعطاف هذا الشعر شاد ملكه وساد حكمه خمسين عاما . .

* * *

أكرم الله الملك عبد العزيز ، فلم يرد سائلا أو محتاجاً ، وفى هذا تروى الروايات الغريبة التى تزرى بحاتم الطائى وهارون الرشيد ، وهذا الكرم ، وهذه الكف الندية طبع فى « إنسان الجزيرة » وليس طارئا عليه حين أكرمه الله مرة أخرى بالزيت يتفجر فى أراضيه ويجرى بذلك الذهب تحت أقدام شعبه ومواطنيه ، إن الكرم سليقة فى الملك منذ كان أميراً يعوزه المال فى الحرب كما يعوزه فى السلام وقبل أن تكون له حكومة متحضرة تفرض الضرائب فيزيد بها بيت المال

كان يجلس فى قصره فى الرياض فيقدم له رئيس التشريفات كل يوم أسماء من مروا ببابه فيكتب بخطه أمام كل إسم ما يمنحه صاحب الأسم «من آلاف الروبيات أو من البشوت والعباءات المقصبة والنياق والبنادق والسيوف والخناجر . . .» الى آخر ألوان المنح والإكراميات ! (١) وكانت أثقل الايام عليه الأيام التى يعوزه فيها المال ، فقد كان يخشى أن يصرفه الضيق عن سد حاجات الناس وتلبية مطالب البائس والمحتاج . ولم يكن يخرج الا وفى سيارته أكياس من الفضة وأحياناً أكياس من الذهب ، يمنحها لرعاياه إذا طلبوا منه شيئاً فى الطريق ، وكان وجهه يضيء بشراً كلما أرضى حاجة إنسان (٢)

* * *

وبعد هذه الصورة التى أعطيتك عن ملامحها بعض البيان والتفسير ، لا يفوتنى أن أنفى عن الملك الراحل ماقد يعلق فى ذهنك من أثر صرامته وتعبده وشدته فى الحق ، فتراه جافياً لا يبتسم ولا يضحك ولا يتبسط فى أمر من الأمور ، والحق إن عبد العزيز كان أبسط من أن يشغلك بملكه الواسع وجاهه العريض ، فهو لطيف الحديث لا تفوته الملحة بل قد يصطنع النكتة فتجيء رائقة تحكى على مر السنين ، أثقل عليه أحدهم وشاء أن يفرض على الملك آراءه ، ويدخل عليه ذكاءه المزعوم فقال طيب الله ثراه ، إنه « ربع الدنيا » ثم أردف قائلا أعنى الربع الخالى ؟ ! ! وكان الملك عميقاً فى سخريته عمقه فى نظراته للأمور . . .

وما كانت تفوت الملك السخرية كلما وجد لها مجالا ، وما أكثر ما وجد عبد العزيز فى حياته مايدعو إلى السخرية ، غير أنه ما قال قط سخرية تجرح إنساناً ، وحتى النكتة القاسية كانت تقال على سبيل الفكاهة وما كان يطلقها إلا فى قريب إلى قلبه

---

١ — الريحاني . ج ٢ ص ٩٢ طبعة ثانية

٢ — **Philby P. 112**



سعادة الشيخ طاهر رضوان وكيل وزارة الخارجية

يفهم النكتة ويهضمها ولا يتدنس لها بحال ، ومن الطرائف التي تروى عن الملك أنه كان يوماً يحضر مؤتمراً في الصحراء ليدرس مع الإنجليز إحدى الاتفاقيات ، وقسم معسكره إلى جزأين ، جزء على الطريقة الأوروبية ينزل فيه مندوب الإنجليز ومرافقوه ، وجزء على الطريقة البدوية يشغله الملك وحاشيته ، وكان كلما تهيأ لانعقاد المؤتمر عند الجزء الذي ينزل فيه ضيوفه الإنجليز يقول لمرافقيه « ... تعالوا نسافر إلى البلاد المتمدنة » (١)

* * *

ومما يذكر من ميزات سيرة « طويل العمر » حسن اختيار الرجال لمناصب البقاع والأمصار ، ولا يقام أي اعتبار في هذا الاختيار إلا اعتبار الحكم وولاية المصلحة العامة التي تنادي بالشخص المناسب للعمل المناسب ، ولو كان من رجال المدرسة القديمة أو من أقرب المقربين لأصحاب السلطان القديم .

وقد استعان الملك بجلة من الحجازيين بوأهم أرفع المناصب وألقى إليهم بخطير المهمات ، ومنهم من كان خصماً لسياسته وخصماً لمذهبه وثائراً على نظامه الجديد ، ومع ذلك استطاع « طويل العمر » بصدره الواسع وقلبه الكبير أن يرد الخصوم أصدقاء ، وينقل الثائرين من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، ولا تزال هذه النخبة الواعية تسير دفة الأمور في البلاد ، ومنهم أهل العلم والفضل ، ورجال المال والأعمال ، ولولا وحدة الكتاب واعتبارات تتصل بالفصول والأبواب لذكرت الأسماء ، وذكرت بعض التفاصيل التي تؤكد ماذهبت إليه من آراء .

وقد أشرك الملك أولاده الأمراء وبعض أحفاده في صناعة الحكم حتى يمرنوا على الجليل من الأمور التي تنتظرهم في مستقبل الأيام ، وكان في مقدمة من

---

١ — الريحاني ج ٢ ص ٥٥ طبعة ثانية

اعتمد عليهم ولى عهده إذ ذاك « الأمير سعود » ملك المملكة العربية السعودية الحالى وله فى مجد البلاد نصيب وأى نصيب .

ويقول الذين لقيتهم : إن الملك الجديد — أى الملك سعود — معنى بشئون التعليم ولا تنسى أن له يداً قديمة على التعليم . . .

والملك مهتم بالزراعة ولا تنسى أن له يداً على الزراعة منذ قديم . . .

ويقولون ، إن الملك الجديد يرعى بحماس وقوة شئون الجيش ، ولا تنسى أنه عينه وقلبه وهو حدث صغير . . .

ثم يقولون ، واطمئن على سائر المرافق الوطنية فى كل ناحية من نواحى النشاط الإنشائى ، فأن الملك الجديد خبر أمورها خبرة العارف الصانع القدير .

واذن فالملك الجديد سعود كان يقاسم والده معظم المسئوليات ، ولم يستقبل فى ملكه — حين توارى النجم الكبير — شيئاً جديداً عليه ، فهو فى هذا الملك منذ شب عن الطوق ، خبير ابن خبير ، وقد كان الى جانب أبيه العظيم فى الحروب والسفارات ، وفى شئون السياسة ومطالب الكياسة ، وفى أمور الدين والدنيا ، وقد ألقى عليه أبوه العبء منذ قديم ، فلم يجد عليه فى شئون بلاده جديد أو مستحدث أو غريب ، وقد ساهم فى الكيان الرسمى والشعبى مساهمة الأصيل الذى يرد إليه الفضل فى أكثر ماعرف سكان الجزيرة لآل سعود من فضل .

لقد أراد عبد العزيز ألا يقطع على بلاده حبل النشاط أو يبدو فيها فراغ اذا استقبل وجه ربه فاختار ولى عهده ليقاسمه أمور الملك والسلطان ، فلما آل العلم السعودى إلى طويل العمر « سعود بن عبد العزيز » كان فى يد قوية وقلب سمح ونفس فتيه ، وعقل فيه من الرجاحة كل ما كان لأبيه العظيم .

وأذكر أنى قرأت فى الصحف منذ أكثر من ربع قرن ، وكنت حديث عهد بقراءة الصحف ، شيئاً عن زيارة الملك الحالى لمصر فى عهد سعد زغلول ، وأذكر أن زيارته فضت مع زعيم بلادنا كثيراً من المشكلات ، وتركت فى

نفس كل مصرى ألواناً من الإكبار والإجلال، وعرف جيلى عن البلاد السعودية طرفاً من جهادها ، والفضل لسعود فيما أضفته علينا زيارته من معارف وأخبار .

ويذكر التاريخ أن « المختار » من والده ، قد ملأ فراغ الدنيا بعد ذلك فى رحلاته إلى الشرق والغرب ، ونجح فى كل سفارة من سفاراته المتعددة ، فى إيطاليا وانجلترا والباكستان وغيرها ، وكل ذلك كان له خطره وقدره فى إعلاء شأن المملكة العربيــة السعودية ، ولم يعل شأنها بالزيارة والسفارة ، بل علا شأنها بصفات « الأمير سعود » الذى فرض بسماته احترام الناس له ولبلاده ، وحل بها كثيراً من المشاكل وأنهى عديداً من الاتفاقات ، ثم عاد إلى وطنه عالى الذكر مرفوع اللواء ، يساهم إلى جانب والده فى مسئوليات الحكم ، ويظاهر بشبابه وعقليته الجبارة أهداف والده الكبير .

ويذكرون أن الملك سعوداً لم يصعد إلى هذه السمات شاباً أو رجلاً ، بل إن هذه الخصال قد عرفت عنه فى سن باكرة ، فقد كان سفير أبيه ، فى السلم والحرب ، وهو ابن ثلاثة عشر عاماً ، وله منذ تلك السن الصغيرة تاريخ عظيم ، قاد خلالها الجيوش ، وانتصر فى أكثر من موقعة ، وقد تفرد بالنصر وحده فى كثير من الحروب ، ، وكان فى معظم وقائع أبيه إلى جانبه فى الميدان ، يصول ويجول ، مضرب الأمثال على الشجاعة والتفنن فى أساليب القتال ، حتى رأى « إنسان الجزيرة » أن يلقى إليه مقاليد الجيش ، فأصبح قائداً عاماً لقوات عبد العزيز آل سعود

وإذا علمت أن الملك اختاره « يده اليمنى » لهذه الخلائق والخصال ، فاعلم أن له من الصفات والملامح ما كان لأبيه ، فهو مثله إيماناً وورعاً ومحافظة على تقاليد العرب العالية ، قليل الكلام كثير الأمجاد والأفعال ، نشأ نشأة عربية إسلامية صحيحة فدرس الدين والأخلاق ، وحفظ القرآن وقرأ السير ، وأعان رجال العلم ، وبسط لهم كل البسط واحتضن مجهوداتهم العلمية ، فملأ البلاد بذخائر الكتب فى الدين والأدب ، ورعى النهضة التأليفية رعاية خاصة ، ولم يرد يوماً سائلاً ولا قعد عن

إغاثة ملهوف ، حتى أحبه الناس واحتضنوه ، وطالبوا باجماع الرأى أن يكون ولياً للعهد فى عز أبيه ، وجاءوا إليه بعد وفاة « إنسان الجزيرة » مبايعين على السمع والطاعة ، فوصل بسياسته ماانقطع ، وخلق فى حياة الدولة السعودية جديداً جديراً بكتاب خاص .

واختار الملك الراحل عبدالعزيز آل سعود ولده الثانى «فيصل» الذى أصبح فى عهد شقيقه الملك سعود ولياً للعهد ورئيساً لأول مجلس وزراء اجتمع فى عهد الملك الجديد ، وقد ألقى إليه والده شئون السياسة الخارجية فكان فارس ميدانها وله فى المنظمات الدولية صولات وجولات يشهد له فيها ممثلو الشرق والغرب على السواء .

وقد أكمل الملك الجديد سعود ما أبداه والده العظيم فعين من أشقائه وأبنائه ومن رعاياه وزراء لسائر الوزارات ولوزارات جديدة أنشئت منذ شهور ، وهم يمتلئون حماسة ووطنية لرسالة العهد الجديد إيمانهم برسالة العهد القديم

* * *

ولتبلغ الصورة دروتها يحسن بنا أن نعيش مع هذه السيرة يوماً من أيامها الحافلة فيأتى هذا اليوم مسك الختام لتاريخ عبدالعزيز الفيصل آل سعود ، وقد عودنا الملك الراحل أن تكون أيامه كلها رتيبة لاجديد فيها بعد ما أدخل على يوم الملك من جديد ، فيستيقظ عادة قبيل الفجر بساعة فيقرأ القرآن حتى يحين موعد الفجر وينادى على الصلاة فينتظم فى صفوف المصلين ، ثم يعود إلى بيته ليعاود قراءة القرآن والأوراد الصحيحة ، فأذا فرغ من القراءة واستزاد من كتاب الله وارتاح قلبه ، يجلس إلى الأمور العاجلة فيراجعها ويقضى فيها بأمر ثم ينام مطمئن البال نحو ساعة فأذا استيقظ اغتسل وتناول إفطاره .

ومنذ الصباح الباكر حتى ينتصف النهار لا يشغل وقته إلا بشئون الدولة وأمور الناس ، وإنك لتجد كبار موظفيه حوله يعرضون الأوراق الحكومية

ويتلقون من سيد الأمر التوجيه والإرشاد ، وينصرف كل منهم بعد ذلك لتنفيذ ما رآه الملك ، ثم يقابل شيوخ البدو وكبار العرب ، ليسمع لشكاواهم ويقضى فيها بأمر ثم يفصل بين المتخاصمين ويصلح بينهم فى كثير من الأحوال ، بعد أن يعرض كل منهم وجهة نظره ويدافع عنها على طريقته الخاصة ، حتى إذا انتهى من المجلس الخاص انتقل إلى المجلس العام حيث يقابل رعاياه مهما تختلف مراتبهم أو تتباين أقدارهم ، فالمجلس العام مخصص للشعب كله ، وهو هنا الإمام الناصح الداعى إلى أحكام الدين

ويقتنص فترة الظهيرة فيحتجب فى حجرته الخاصة ساعة بعد الغداء ، وبعد صلاة الظهر يعاود الظهور فى مجلسه الخاص وينكب على دراسة الأمور العامة بنفس الحمية التى كان يدرس بها فى الصباح ، فأذا جاء العصر صلاه وانصرف بعدئذ إلى أولاده وأصدقائه يسمرون فترة من الزمن يخرج بعدها الملك للهواء الطلق فى سيارته الخاصة

وبعد العشاء يعود إلى جلسته العامة حتى يقبل أهل العلم والدين ، فيستمع إليهم فى شتى الفنون والعلوم ، وبعد أن ينتهى الدرس الدينى ينصرف إلى بيته ويجلس وحده معظم الليل يراجع بنفسه الأوراق تاركاً الأمر لضميره فأن أشكل عليه شىء أبقاه للصباح حتى يلتقى بالموظف المختص فيدرس معه الموضوع وينتهى فيه إلى قرار

أما ساعة المنح والعطايا فيتخيرها الملك ويختلسها فى زحمة اليوم ، ولا تعرف حينئذ يسراه ما أعطت يمناه

لقد كان الملك سراً لأنه كان إنساناً والإنسان مثله سر الحياة . . .

كتب المؤلف

١ — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١ والثانية سنة ١٩٥٠)

٢ — تاريخ الوقائع المصرية (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢ والثانية ١٩٤٢ والثالثة سنة ١٩٤٦).

٣ — تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٤ والثانية ١٩٤٥ والثالثة ١٩٥١)

٤ — أعلام الصحافة العربية (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٤ والثانية ١٩٤٨)

٥ — حول الصحافة فى عصر إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)

٦ — تاريخ جريدة الأهرام فى خمس وسبعين سنة (الطبعة الأولى ١٩٥١)

٧ — Etudes Journalistiques En Europe (الطبعة الأولى ١٩٥١)

٨ — دراسات فى الصحافة الاوروبية — تاريخ وفن — (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١ والثانية ١٩٥٢)

٩ — أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر (الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣)

١٠ — تاريخ السودان (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ والثانية ١٩٤٦)

١١ — تطور النهضة النسائية فى مصر بالاشتراك مع الدكتورة درية شفيق (ترجم الى اللغة الانجليزية) (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥)

١٢ — تذكار طلعت حرب بالاشتراك مع الأستاذ على عبد العظيم المحامى (دراسة تاريخية لفكرة بنك مصر) (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥)

١٣ — الحياة الثانية (قصة اجتماعية للحياة فى مصر والسودان) (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٣ والثانية ١٩٤٤ والثالثة ١٩٤٧ والرابعة ١٩٥٠)

١٤ — فى المصايف (دراسة اجتماعية) (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٤)

١٥ — الثور فى متحف الخزف (صورة اجتماعية واخلاقية) (الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣).

١٦ — إنسان الجزيرة (دراسة جديدة لحياة الملك عبد العزيز آل سعود)

قاموس الأعلام

تم طبع الكتاب بحمد الله

فى ٣٠ يونية سنة ١٩٥٤

